

دليل

ما بعد الحداثة

الجزء الأول

ما بعد الحداثة: تاريخها وسياقها الثقافي



تحرير: ستيوارت سيم

ترجمة: وجيه سمعان عبد المسيح

1070

لقد أصبح معتادا ومكررا اليوم القول إننا نعيش فى عالم ما بعد الحداثة، وقد أضحي تعبير "ما بعد الحداثة" كثير الاستعمال أو سبى الاستعمال فى لغتنا الجارية. ومن منا لم يسمع هذه العبارة مطبقة على بعض الأحداث التى تقع فى الحياة اليومية؟ وتأتى الإجابة بلا أدنى شك بنظرة أو ابتسامة أو ضحكة ذات مغزى، ومع ذلك فمن اللافت للنظر أن قلة من البشر فى وسعها أن تحدد بدقة ماذا يعنى مصطلح "ما بعد الحداثة" أو على ماذا ينطوى. وقد ارتأى بعض المنظرين أنه بمثابة اتجاه أو مزاج أو موقف عقلى مثل أى شىء آخر، لكن المرء يريد مع ذلك معرفة ما الذى يشكله هذا المزاج أو الموقف، وذلك ما يرمى هذا الدليل إلى الإجابة عنه.

دليل ما بعد الحداثة

الجزء الأول

ما بعد الحداثة : تاريخها وسياقها الثقافي

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 1070
- دليل ما بعد الحداثة (الجزء الأول) ما بعد الحداثة: تاريخها وسياقها الثقافي
- ستيفارت سيم
- وجهه سمعان عبد المسيح
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب:

The Routledge Companion to Postmodernism

Edited by: Stuart Sim

Copyright © 1998, 2001 by Stuart Sim

Arabic Translation © 2011, National Center for Translation

Authorized translation from the English language edition published by
Routledge, a member of the Taylor & Francis Group
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالاوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

دليل ما بعد الحداثة

الجزء الأول

ما بعد الحداثة: تاريخها وسياقها الثقافي

تحرير: ستيفارت سيم

ترجمة: وجيه سمعان عبد المسيح



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

دليل ما بعد الحداثة (ما بعد الحداثة- تاريخها وسياقها الثقافي)

- ج ١ / تحرير: ستوارت سيم ؛ ترجمة : وجيه سمعان عبد المسيح

ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١١

٢٦٤ ص ، ٢٤ س

١ - الثقافة

(أ) سيم، ستوارت (محرر)

(ب) عبد المسيح ، وجيه سمعان (مترجم)

٣٠١،٢

(ج) العنوان

رقم الإيداع ٢٠١١/٧٤١٤

الترقيم الدولى 978-977-704-599-5

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

7	مقدمة:
11	الفصل الأول: ما بعد الحداثة والفلسفة ستيورات سيم
29	الفصل الثاني: ما بعد الحداثة والنظرية النقدية والثقافية أنتوني إيسست هوب
49	الفصل الثالث: ما بعد الحداثة والسياسة إيان هاميلتون جرانت
69	الفصل الرابع: ما بعد الحداثة والحركة التساوية سو ثورنهام
85	الفصل الخامس: ما بعد الحداثة وأساليب الحياة ججيل واطسون
101	الفصل السادس: ما بعد الحداثة والعلم والتكنولوجيا إيان هاميلتون جرانت
121	الفصل السابع: ما بعد الحداثة والفن المعماري دايان مورجان
137	الفصل الثامن: ما بعد الحداثة والفن كولن ترود

155	الفصل التاسع: ما بعد الحداثة والسينما فان هيل- وبيتر إيفري
171	الفصل العاشر: ما بعد الحداثة والتلفزيون مارك أوداي
183	الفصل الحادي عشر: ما بعد الحداثة والأدب باري لويس
203	الفصل الثاني عشر: ما بعد الحداثة والموسيقى ديريك سكوت
225	الفصل الثالث عشر: ما بعد الحداثة والثقافة الشعبية جون ستوري
239	الفصل الرابع عشر: ما بعد الحداثة والحداثة وتراث المخالفة والاعتراض لويدي سبنسر
257	المراجع:

مقدمة

من الحادثة إلى ما بعد الحادثة

لقد أصبح معتاداً ومكرراً اليوم القول إننا نعيش فى عالم ما بعد الحادثة، وقد أضحى تعبير «ما بعد الحادثة» كثير الاستعمال أو سبب الاستعمال فى لغتنا الجارية. ومن منا لم يسمع هذه العبارة مطبقة على بعض الأحداث التى تقع فى الحياة اليومية؟ وتأتى الإجابة بلا أدنى شك بنظرة أو ابتسامة أو ضحكة ذات مغزى، ومع ذلك فمن اللافت للنظر أن قلة من البشر فى وسعها أن تحدد بدقة ماذا يعنى مصطلح «ما بعد الحادثة» أو على ماذا ينطوى، وارتأتى بعض المنظرين أنه بمثابة اتجاه أو مزاج أو موقف عقلى مثل أى شئ آخر، لكن المرء يريد مع ذلك معرفة ما الذى يشكله هذا المزاج أو الموقف، وذلك ما يرمى هذا الدليل إلى الإجابة عنه.

وبوجه عام، فإنه يتعين اعتبار «ما بعد الحادثة» بمثابة رفض لكثير، إن لم يكن معظم اليقينيات الثقافية التى بنيت عليها الحياة فى الغرب عبر القرنين الماضيين. وقد وضعت موضع الشك والتساؤل الالتزام الغربى بما يسمى «التقدم» الثقافى (وأنه يجب على الاقتصادات مواصلة النمو، وأن تحافظ نوعية الحياة على التحسن إلى ما لا نهاية، وما إليه)، كما شككت فى النظم السياسية التى عززت هذا المعتقد. وكثيراً ما يحيل أنصار ما بعد الحادثة إلى «مشروع التنوير»، الذى يعنى الأيديولوجية الإنسانية الليبرالية التى هيمنت على الثقافة الغربية منذ القرن الثامن عشر ؛ أيديولوجية سعت جاهدة لتحقيق تحرر البشرية من العوز الاقتصادى والقهر السياسى. ويرى أنصار ما بعد الحادثة أن هذا المشروع - ولو أنه ربما كان جديراً بالثناء وحميداً فى وقت من الأوقات - قد تحول بدوره إلى قمع البشرية، وفرض عليها مجموعة معينة من سبل

التفكير والفعل ؛ ولذا تتعين مقاومته. ويوجه أنصار ما بعد الحداثة انتقادات ثابتة لتعميم النظريات (التي يطلق عليها الفيلسوف جان فرانسوا ليوتار الروايات أو السرديات الكبرى grand narratives أو فيما وراء السرديات^(هـ) metanarratives) كما أن نظرتهم تتسم بمعادة السلطوية. والانتقال من «الحديث» إلى «ما بعد الحديث» يتضمن النزعة الشكية فيما تمثله الثقافة الغربية وفيما تجاهد من أجله. وسوف يرسى هذا الدليل ما الذى يبعث على هذه النزعة الشكية.

بنية هذا الدليل ومجاليه

تستهدف القواميس تقديم معلومات مرجعية، أما هذا الدليل لما بعد الحداثة فهو يشتمل على قاموس نقدي لفكر ما بعد الحداثة، وهو أكثر طموحاً من أى قاموس مرجعى معتاد - كما يدل على ذلك استعمال مصطلح «نقدى» - وينقسم إلى جزأين : أولاً : المقالات. ثانياً : الأسماء والمصطلحات. ويتكون الجزء الأول من أربع عشرة مقالة مطولة تتبع مصادر فكر ما بعد الحداثة وأثاره وتعرض لموضوع ما بعد الحداثة فى ميادين الفلسفة والسياسة والحركة النسائية والعلم والتكنولوجيا، فضلاً عن المقالات المتعلقة بمختلف الفنون (الأدب، والسينما، والموسيقى، والفن المعماري، وما إلى ذلك). وتتطرق المقالة الختامية إلى الحداثة وما بعد الحداثة وتراث المخالفة والاعتراض، بغرض تبين إلى أى مدى تحولت هذه الحركة لتصبح مثار خلاف وجدل، وتوضيح مقدار المعارضة التى استطاعت إثارتها حتى فى هذا المدى الزمنى القصير نسبياً. وتبين هذه المقالات فى مجموعها مدى اتساعها فكر ما بعد الحداثة الذى غير المشهد الثقافى فى أواخر القرن العشرين.

(هـ) يقصد ليوتار بالسرديات الكبرى الأنساق الفكرية والروحية العليا مثل العقائد والأديان؛ أي النظم التى تقدم رؤى شاملة وتهب الحياة معنى. أما الروايات أو السرديات الصغرى فهي تنفقر إلى المعانى والرموز الجزئية. أما metanarrative فالمقصود بها الرواية التى تتحدث عن نفسها وأساليبها السردية، ويطلق عليها أحياناً فى العربية «الرواية الشارحة» (راجع د. محمد عناني : المصطلحات الأدبية الحديثة). (المترجم)

وسيجد القارئ في الجزء الثاني صورة موجزة لكبار المنظرين والمبدعين الذين يشكلون عالم ما بعد الحداثة ومحاوراته (ما يزيد عن مائة شخصية). وقد تضمن بعض الشخصيات المؤثرة في وقت غابر، والتي أعاد فكر ما بعد الحداثة نسبة بعض أعمالها إلى نفسه، أو تلك التي أثّرت مناقشاته ومجاداته. ومن الصعب الانشغال بما بعد الحداثة دون الانشغال أيضاً بأعمال ماركس أو نيتشه مثلاً. وعلى الرغم من اقتضاب هذه اللمحات فهي بليغة وغنية بالمعلومات، وتستعرض أهم التفاصيل والأفكار التي انطوى عليها عمل كل شخصية مع تحديد مكانتها في سياق تطور حركة ما بعد الحداثة. وفضلاً عن هذه الصور الشخصية جرى تقديم تعاريف مقتضبة للمصطلحات الأساسية التي اقترنت بفكر ما بعد الحداثة.

ويستهدف هذا الكتاب تقديم معلومات في متناول الجميع عن خطاب يبدو معقداً ومتبايناً إلى أبعد الحدود، فهو بمثابة دليل للتعرف على أبرز الشخصيات who's who وأعمالها وطروحاتها what's what في ميدان ما بعد الحداثة.

ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية

لقد استهدفنا أن يستوعب هذا الدليل فكر ما بعد الحداثة : الشخصيات والمناقشات المتعلقة بما بعد البنيوية أيضاً، وهو مصطلح يشير إلى نطاق متسع من ردود الأفعال على النموذج البنيوي الذي هيمن على الفكر الفرنسي إبان عدة عقود في منتصف القرن العشرين، وهي ردود أفعال تمثلت في التفكيكية ذات التوجه الفلسفي التي قدمها جاك دريدا، والاستقصاءات الأركيولوجية والجينالوجية (نسبة إلى علم الإنسان) في مجال التاريخ الثقافي لميشيل فوكو، و«الاختلاف الإثنوي» لمنظرين من أمثال لوسي إيريجاري Luce Irigaray. ومن الشاق يوماً تحديد بداية حركات مثل هذه بدقة بالغة، غير أن ما بعد البنيوية غدت بكل تأكيد عنصراً مؤثراً في المشهد الثقافي منذ ستينيات القرن العشرين. ومن الممكن اعتبارها حالياً تشكل جزءاً من رد الفعل العام على الأيديولوجيات السلطوية والنظم السياسية التي تحددها بوصفها ما بعد الحداثة، والتي يمكن القول إنها تندرج فيما بعد البنيوية؛ ومن هنا جاء تضمينها في هذا الدليل.

الفصل الأول

ما بعد الحداثة والفلسفة

ستيورات سيم Stuart Sim

لقد كانت الفلسفة، لا سيما الموروث الفلسفى الفرنسى الحديث، الموضوع الأساسى الذى دار فيه النقاش المتعلق بما بعد الحداثة، كما كانت مصدر كثير من النظريات التى تشكل ما بعد الحداثة. وربما كانت الشخصية الأساسية فى هذا المضمار هى شخصية جان فرانسوا ليوتار J. F. Lyotard الذى يعد كتابه «أحوال ما بعد الحداثة.. تقرير عن المعرفة»^(*) (١٩٧٩) على نطاق واسع أقوى تعبير نظرى عن «ما بعد الحداثة». ويلوح أن الحجة التى أبداها ليوتار بأنه ينبغى لنا رفض السرديات الكبرى (أى النظريات الكونية الشاملة) للثقافة الغربية لأنها فقدت الآن مصداقيتها، تلخص المعتقد الأساسى لما بعد الحداثة، مع ازديادها للسلطة بتجلياتها العديدة. وتذهب هذه الحجة إلى أنه لم يعد هناك أى مجال للانخراط فى مناقشة مع الماركسية مثلاً، ويتعين بالأحرى تجاهلها بوصفها غير ملائمة لحيواتنا. وتزودنا فلسفة ما بعد الحداثة بالحجج والتقنيات التى تكون تلك الحركة الانشقاقية، وكذلك كيفية تكوين أحكام قيمية فى ظل غياب تلك السلطات الكلية الشاملة.

وربما كانت أفضل طريقة لوصف «ما بعد الحداثة» بصفتها حركة فلسفية هو اعتبارها شكلاً من أشكال مذهب الشك الفلسفى، الشكية فى السلطة والحكمة المعترف

(*) ترجم الكتاب إلى العربية بعنوان «الوضع ما بعد الحداثى»، ترجمة أحمد حسان، دار شرقيات، القاهرة ١٩٩٤ (التحرير) . .

بهما، والمعايير الثقافية والسياسية، وما إليه ؛ مما يضعها فى إطار الموروث الممتد فى الفكر الغربى منذ الفلسفة اليونانية الكلاسيكية. فمذهب الشك(*) شكل سلبى من الأشكال الفلسفية فى جوهره، ينزع إلى تقويض النظريات الفلسفية الأخرى التى تزعم امتلاك الحقيقة المطلقة، أو المعايير التى تحدد ما يعتبر حقيقة مطلقة. والمصطلح التقنى الذى يصف مثل هذه الأسلوب الفلسفى هو «مناهضة الأسس» Antifoundational. ويرفض مناهضو الأسس صحة الأسس التى يقوم عليها الخطاب ويطرحون أسئلة مثل : ماذا يضمن حقيقة الأساس الذى تعتمد عليه (نقطة البداية) بدوره ؟ وقد استقت «ما بعد الحداثة» الكثير من المثال الذى قدمه فلاسفة مناهضة الأسس، لا سيما فيلسوف القرن التاسع عشر، الألمانى الثائر على العادات والتقاليد المتوارثة، فردريك نيتشه الذى تشكل دعوته إلى «إعادة تقييم القيم» نوعاً من «صيحة المعركة» التى تبنتها هذه الحركة. بيد أنه قبل النظر فى وثائق الاعتماد الشكية التى قامت عليها «ما بعد الحداثة» على نحو أكثر تفصيلاً، ربما كان من المفيد الإشارة إلى ما الذى ومن الذى يمكن اعتباره مندرجاً تحت عنوان «فلسفة ما بعد الحداثة». ولن يقتصر الأمر هنا على إدراج أولئك المفكرين الذى يجاهرون صراحة بانتمائهم إلى «ما بعد الحداثة» مثل ليوتار Lyotard، بل سوف يشمل أيضاً مختلف أنواع الخطاب، مثل التفكيكية deconstruction التى تدخل فى عداد ما يسمى ما بعد البنوية poststructuralism.

وإن كان رفض ما بعد البنوية لموروث التفكير البنوي يشكل حركة أخرى للنزعة الشكية فى السلطة السائدة، ويمكن اعتباره جزءاً من المعالم الفكرية لما بعد الحداثة، وعلى الرغم من أن فلسفة «ما بعد الحداثة» تشكل إلى حد ما مجالاً متبايناً إجمالاً، فقد نستطيع أن نلاحظ بعض القسمات المشتركة، مثل تلك النزعة الشكية، والانحياز

(*) قول من التزموا الشك منهجاً مطرداً، وحالاً مستقرة، فيترددون دائماً بين الإثبات والنفي ويتوقفون عن الحكم (المجمع) وهو ما يجب تمييزه، كمذهب فلسفى، عن الشك المنهجي عند ديكارت وليس الشك الوجودي. راجع المعجم الفلسفى، د. د. مراد وهبة. (المترجم)

إلى مناهضة الأسس والكراهية اللإرادية تقريباً للسلطة^(هـ)، التي تجعل من المعقول مناقشتها باعتبارها أسلوباً فلسفياً يمكن التعرف عليه في حد ذاته.

وتعد ما بعد البنيوية حركة ثقافية عريضة تغطي العديد من المجالات الفكرية التي اشتركت في رفض البنيوية وطرائقها، وكذلك أيضاً الافتراضات الأيديولوجية التي تكمن خلفها. ويمكن اعتبارها حركة فلسفية وكذلك سياسية، كما يمكن اعتبار «ما بعد الحداثة» بعامة كذلك، وترتاب ما بعد البنيوية في اليقينيات الثقافية التي رأت البنيوية أنها جاءت لكي تجسدها، يقينيات مثل الاعتقاد بأن العالم يمكن معرفته على نحو حقيقي أصيل، وأن البنيوية زودتنا بمفتاح منهجي لفتح شتى النظم والأنساق التي يتكون منها هذا العالم. وتستلهم البنيوية وحيها من النظريات اللغوية التي قدمها اللغوي السويسري فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure، الذي أحدث تغييراً شاملاً أو انقلاباً ثورياً في دراسة اللغويات بكتابه الذي نُشر عقب وفاته Course in General Linguistics (١٩١٦). وموضوعه الأساسي هو اعتبار أن اللغة تمثل أولاً وقبل كل شيء نسقاً أو نظاماً تحكمه القواعد والقوانين المنظمة (أو الأجرومية الداخلية) التي حكمت كيفية عمل شتى عناصر اللغة، فاللغة تكونت من علامات Signs، وتكونت العلامات من جزأين: الدال (الكلمة) والمدلول (المفهوم)، اتحداً معاً بعملية فهم ذهني لتشكيل العلامة. وعلى الرغم من عدم وجود ارتباط ضروري بين الكلمة والشيء الذي تسميه (ويعترف سوسير بطابعهما التعسفي أو التحكيمي) فإن قوة العرف كفلت عدم تغييرهما بناءً على نزوة عابرة. فهناك على الأقل استقرار نسبي في اللغة وفي إنتاج المعنى، وإنه يتعين النظر إلى اللغة بوصفها نسقاً من العلامات التي استحدثت استجابة متوقعة من الجماعة الفردية.

وشكل النموذج اللغوي الذي وضعه سوسير أساس التحليل البنيوي الذي طبقه على الأنساق أو النظم بعامة، مفترضاً أن كل نسق له قواعده النحوية الداخلية التي

(هـ) يرى د. عبد العزيز حمودة في «المرايا المحببة» أن كلمتي authority وauthoritative (سلطة وسلطوي) لا تعنيان سلطة سياسية أو قوة خارجية، ولكنها تعني ما هو موثوق به إلى درجة يصبح فيها الشيء ذا سلطة أو ثقل، ويمكن ترجمتها إلى نص موثوق (ص٤١٦). (المترجم)

تحكم عملياته. وتمثلت مهمة التحليل البنيوي في الكشف عن تلك القواعد، سواء أكان النسق المعنى أسطورة قبلية أم صناعة الإعلان أو العالم الأدبي أو الموضة. وأخيراً فإن ما يعترض عليه دعاء ما بعد البنيوية هو الترتيب المنسق الشامل للمشروع البنيوي الذي يرى أنه لا توجد نهايات سائبة فضفاضة وكل شيء له مكانه المحكم الدقيق. وهكذا يعتبر مفكر مثل كلود ليفي شتراوس Claude Levi-Strauss، أو رونالد بارت Roland Barthes في بدايته، أن كل تفصيل في رواية ما له دلالة في بنية المنتج النهائي (ولا توجد عناصر عشوائية)، واندرجت الروايات في أنواع محددة حيث كانت أمثلة أو حالات معينة منها (ولكن أسطورة قبلية معينة) مجرد تنويعات على موضوع محوري. وانطلاقاً من منظور كهذا فإن نسقاً ما (أو رواية ما) قد يشبه كثيراً أى نسق آخر، ويغدو تحليل قواعده النحوية (أجروميته) ممارسة يمكن توقعها والتنبؤ بها إلى حد بعيد، كما لو كان المرء يعرف مقدماً تقريباً ما الذي سوف يجده، ويمكن للمرء حتى أن يزعم - كما فعل أنصار ما بعد البنيوية - أن التقنيات التحليلية التي استخدمها نصير البنيوية حددت النتائج. ويبدو أن المجال المحدود الذي تسمح به البنيوية للمصادقة أو القدرة الإبداعية أو لما هو غير متوقع يعده نصير ما بعد البنيوية أكثر أهمية بكثير من جميع أوجه التشابه والاختلاف وعدم إمكان التنبؤ بالتحليل.

وقد غدت تفكيكية جاك دريدا Jacques Derrida أقوى تعبير عن معتقدات ما بعد البنيوية. فالتفكيك يناهض التفكير المنهجي للبنيوية ويختلف مع الفكرة القائلة إن جميع الظواهر يمكن اختزالها لى تنطوى في نطاق عمليات تشغيل الأنساق، بما يعنيه ذلك من أننا نستطيع السيطرة الكاملة على البيئة التي نعيش فيها. وقد اهتم دريدا بتبيان عدم استقرار اللغة، وفي الواقع، الأنساق بوجه عام، ولم تكن العلامات Signs تلك الكيانات التي يمكن التكهن بها من وجهة نظر دريدا، ولم يوجد بالفعل أبداً أى ارتباط تام بين الدال والمدلول بحيث يكفل تحقيق اتصال غير إشكالي. ويحدث دائماً بعض الانفلات أو التحوير في المعنى. وبإحدى ذى بدء فإن الكلمات احتوت دائماً على أصداً وأثار لكلمات أخرى، مع خاصيتها الصوتية مما يُذكر، مثلاً وعلى نحو غير متغير، بنطاق من خاصيات صوتية مماثلة. وقدم دريدا دليلاً على هذا الانفلات من الناحية

الفعلية عن طريق مفهوم أطلق عليه اسم *différance* كلمة جديدة مشتقة من الفرنسية *différence* (وتعني الاختلاف *différence* والإرجاء *deferral* في الوقت نفسه)، ولا يستطيع المرء تبين المعنى في أثناء الحديث (لأنهما يتشابهان في النطق) وإنما يتضح ذلك في الكتابة فقط. ويرى دريدا أن ما يظهر هنا هو عدم التحديد المتأصل في المعنى والملازم له. فالمعنى اللغوي ظاهرة غير مستقرة، وينطبق الاختلاف والإرجاء *différence* في جميع الأماكن وفي كل الأوقات والأزمنة (وتجدر الإشارة إلى أن دريدا ينكر أن *différence* يمثل مفهوماً، إنما هو مجرد تعيين أو إثبات لعملية متجسدة في اللغة ذاتها). وتستهدف التورية والتلاعب بالألفاظ في الكتابة التفكيكية (وبذلك سمة متكررة لدى جميع كبار المحترفين لهذه الكتابة) توضيح عدم استقرار اللغة، وكذلك قدرتها الإبداعية اللانهائية على توليد معان جديدة غير متوقعة^(*).

وبناء على ذلك فالمعنى ظاهرة سريعة الأقال، يتبخر أو يتبدد تقريباً حال حدوثه في لغة منطوقة أو مكتوبة (أو يحافظ على تحوله إلى معان جديدة) بدلاً من أن يكون شيئاً ثابتاً يسيطر عبر الزمن على مجموعات متتالية من جمهور المستمعين. ويزعم دريدا أن الحضارة الغربية بأكملها نهضت مستندة إلى افتراض أن المعنى الكامل للكلمة «حاضر» في ذهن المتحدث، على النحو الذي يمكنه أن ينقله إلى المستمع أو يبلغه إياه دون أي انفلات له دلالاته. وهذا الاعتقاد أسماه دريدا «ميتافيزيقا الحضور»^(**) ويعتبر ذلك وهماً ؛ لأنه *différance* يقتحم دائماً الاتصال ليحول دون

(*) راجع د. محمد عناني : المصطلحات الأدبية الحديثة ص ١٢٨ - ١٢٩ حيث يوضح أن دريدا في كتابه *Positions* يزعم عدم وجود أي معان محددة للكلمات وأن أقصى ما نستطيع إدراكه هو الاختلاف فيما بينها وإرجاء المعنى إلى أجل غير مسمى. وإلجاء عكس الحضور، أي أننا حين نعجز عن الإتيان بشيء أو بفكرة فنحن نشير إليها بكلمة. ومن ثم فنحن نستخدم العلامات مؤقتاً ريثما نتمكن من الوصول إلى الشيء أو الفكرة، وعلى هذا فإن اللغة في حضور مرجح للأشياء والمعاني. ولا يمكن إذن افتراض حضورها في وجود اللغة. (المترجم)

(**) يعرفه د. عبد العزيز حمودة في «الرايا المحدث» (ص ٢٧٨) بأنه القول بوجود سلطة أو مركز خارجي يعطى الكلمات والكتابات والأفكار والأنساق معناها ويؤسس مصداقيتها. ويوضح د. محمد عناني أنه الاعتقاد بوجود مركز خارج النص أو اللغة يكفل ويثبت صحة المعنى دون أن يكون هو قابلاً للطمع فيه أو البحث في حقيقته. أي الإيمان بقدرة اللغة على الإحالة إلى أي مركز من هذه المراكز الخارجية أو النقاط المرجعية خارج النظام اللغوي والاعتماد عليها (ص ٧٨)، (المترجم).

إرساء الحضور أو اكتمال المعنى. إن التوكيد على الاختلاف، بما يعنى عدم التوافق مع المعايير أو التفكير المنهجي النظامي، وهو ما يسود فى التفكيرية - يُعد من الخصائص التى تميز إلى حد بعيد المعتقدات الفلسفية لما بعد الحداثة.

وميشيل فوكو Michel Foucault مفكر آخر انقلب على التفكير المنهجي النظامي والاتجاهات التى ترمى إلى استبعاد الاختلاف لدى الفكر البنيوي. مرة أخرى، فإن حقيقة الاختلاف هى التى يتم التركيز عليها. وبالنسبة إلى فوكو فإنه يهتم بشكل خاص بالجماعات المهمشة التى يبقياها اختلافها مستبعدة من السلطة السياسية : جماعات مثل المجانين والمساكين والشواذ جنسيا. ويرى أن ثقافة ما بعد النهضة التزمت بتهميش الاختلاف أو حتى تحويله إلى عمل شيطاني، عن طريق تحديدها لمعايير السلوك. وقد كتب فوكو مجموعة من دراسة الحالات يصف فيها كيف طبقت هذه المعايير فى أوروبا الغربية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، بحيث ظهر إلى الوجود نطاق جديد كامل من المؤسسات المنظمة بصرامة (مستشفيات المجانين والسجون والمستشفيات) لكى تتعامل مع الاختلاف. ويعتبر فوكو هذه المؤسسات تعبيراً عن السلطة السياسية وعن الطريقة التى فى استطاعة مجموعة مهيمنة أن تفرض بها إرادتها على الآخرين.

ولكى يبين فوكو كيف جرى إضفاء طابع شيطاني على الاختلاف الجنسي فى المجتمع الحديث تعدد الرجوع إلى الأزمنة القديمة فى مجلداته الثلاثة المعنونة : «تاريخ النزعة الجنسية» The History of Sexuality (١٩٧٦ - ١٩٨٤)؛ لكى يستقصى كيف عملت الجنسية المثلية فى الثقافات اليونانية والرومانية. فقد كان المجتمع اليونانى أكثر تسامحاً مع الاختلاف الجنسي من مجتمعنا، على الرغم من أنه لم يكن أقل أخلاقية فى نظرتة. ووفقاً لما رآه فوكو فقد كان «خطابه» عن الشئون الجنسية مختلفاً، ولم يفرض معياراً وجيداً للسلوك، حيث ازدهرت الجنسية المثلية إلى جانب اشتهاه الجنس الآخر. وقابل فوكو بين هذا الوضع وبين الأزمنة الحديثة حيث تحول اشتهاه الجنس الآخر إلى معيار اعتبرت جميع الأشكال الأخرى للتعبير الجنسي انحرافاً عنه. وهذا الإصرار على

المعيار وتوكيده على حساب «المختلف» إنما يشكل جزءاً من النزعة السلطوية (التسلطية) التي يقرنها مفكرون مثل فوكو بالتقافة الحديثة.

ومثل كتاب Anti-Oedipus لكل من جيل ديلوز Gilles Deleuze وفيلكس جاتاري Felix Guattari هجوماً آخر لما بعد البنيوية على النزعة السلطوية، وفي هذه الحالة فإن هذه النزعة غاصت في نظرية التحليل النفسي التي نشدت - من خلال آلية نظريات على غرار عقدة أوديب - السيطرة على التعبير الحر للرغبة الإنسانية. ويرى ديلوز وجاتاري أن الأفراد هم *desiring machines*، ينقصهم الشعور بالوحدة الذي نقرنه عادة بالهوية الفردية، ولكنهم يتحنون الفرصة للتعبير عن رغباتهم التي تكبحها السلطات الاجتماعية - السياسية (وتقدم الفاشية أقوى مثال مقنع لكيفية سير هذه العملية). ويغدو التحليل النفسي بالنسبة إليها رمزاً لكيفية كبت الرغبة، ويضعان في مواجهته «التحليل الفصامي» الذي يركز على خبرة الفصامي (المصاب بمرض انفصام الشخصية) الذي يصبح في نظامهما نوعاً ما من النموذج المثالي للسلوك الإنساني. إن البعد السياسي للفكر ما بعد البنيوي، الذي كثيراً ما توارى على نحوٍ ما وراء مناقشات ميتافيزيقية غامضة في مجال التفكيرية يحتل المقدمة بكل تأكيد هنا.

ويمكن أيضاً إدراج الحركة النسائية Difference Feminism تحت عنوان ما بعد البنيوية، من حيث إنها تتشكك في الجمود المفترض فيما بين فئتي النوع. وحجتها أن هوية النوع، والهوية النسائية على الأخص ليست عملية ثابتة، لكنها عملية غير محددة المعالم (سائلة) لا يمكن اختزالها إلى أي نوع من السلوك الأساسي والجوهري أو المعياري (وفي هذه الحالة فإن معيار السلوك مشتق من النزعة الأبوية) وقد استخدم المنظرون من أمثال Luce Irigaray هذه الحجة للتشكيك في الافتراضات المتعلقة بنظام السلطة الأبوية (سيادة الرجل على المجتمع Patriarchy)، ولا سيما افتراض سمات محددة للذكورة والأنوثة التي تفضي إلى القوالب النمطية للنوع التي ما زال مجتمعنا يتسمك بها إلى حد بعيد ويستخدمها أساساً لكبت المرأة.

وما زال ليوتار أقوى صوت مؤثر فى فلسفة «ما بعد الحداثة»، وهناك خيط متماسك من مناهضة السلطوية يتخلل عمله الفلسفى بحيث يمكن أن نعتبره الآن من أنصار ما بعد الحداثة على أكمل وجه. ومن الممكن اعتباره - فى بداية حياته المهنية - ماركسياً، وكان عضواً فى مجموعة الاشتراكية أو البربرية Socialism or Barbarism التى تخصصت فى إخضاع النظرية الماركسية لنقد ثاقب من الداخل، وتصرف باعتباره متحدثاً بلسان الجزائر فى صحيفة المجموعة. وتكشف كتابات ليوتار عن حرب التحرير الجزائرية فى الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى عن شخص بعيد عن كونه ماركسياً تقليدياً، ورغباً فى الشك فى المبادئ الماركسية. وتمثل اعتراضه الأساسى فى أن قيادة الحزب الشيوعى تعاملت مع الجزائر باعتبارها حالة كلاسيكية للثورة البروليتارية، فى حين إنها كانت فى الواقع مجتمعاً فلاحياً، حيث تكتسب الماركسية قيمة عملية محدودة.

وبعد انحلال مجموعة «الاشتراكية أو البربرية» فى ستينيات القرن العشرين ابتعد ليوتار بشكل واسع عن ماضيه الماركسى. وقد خاب أمله - على غرار كثير من المثقفين الفرنسيين فى جيله - من الموقف المناصر للمؤسسة الذى تبناه الحزب الشيوعى الفرنسى فى أحداث ١٩٦٨ فى باريس، وفى أعمال مثل «الاقتصاد الليبىدى الشهوانى» Libidinal Economy عبر عن الإحباط الذى شعر به آنذاك تجاه الماركسية الرسمية. وزعم فى «الاقتصاد الليبىدى» أن الماركسية غير قادرة على أن تستوعب شتى الدوافع الليبىدية التى يعانىها جميع الأفراد، ما دامت هذه الدوافع التى يصعب التكهّن بها تتجاوز أى سيطرة نظرية (وهى حجة مماثلة لتلك التى أبدت فى Anti-Oedipus). وإن ما هو خطأ على وجه الدقة فى الماركسية تمثل عنده فى محاولة كبث هذه الطاقات، ويعملها هذا كشفت عن نزعتها السلطوية الكامنة. وهناك وراء هجومه الشرس على الماركسية اعتقاد ليوتار بأنه من غير الممكن أن تكون الطبيعة البشرية أو العملية التاريخية قابلة للتنبؤ، وبالتالي قابلة للتلاعب بها، وذلك على النحو الذى تتمسك به النظرية الماركسية. دعانا ليوتار إلى قبول أن الطاقة الليبىدية (شئ)

مثل عقدة الدوافع اللاشعورية التي حددها فرويد) قضت ببساطة على أى زعم بأن الماركسية يمكن أن تكون قادرة على السيطرة على الأحداث. ومن الممكن اعتبار هذا الكتاب بداية نقد السرديات الكبرى الذى يكمن فى قلب عمل ليوتار الأكثر تأثيراً والأكبر نجاحاً «أحوال ما بعد الحداثة» Post Modern Condition.

ويزعم فى كتابه هذا أن المعرفة غدت الآن أهم سلعة فى العالم. وقد تصبح أيضاً مصدر نزاع بين الأمم مستقبلاً. ويشدد ليوتار على أن من يسيطر على المعرفة يمارس حالياً سيطرة سياسية، وهو حريص على ضمان أن يظل نشر المعرفة متاحاً قدر المستطاع. والبديل الذى يقدمه للسيطرة السياسية المركزية على المعرفة هو جعل جميع بنوك المعلومات فى متناول عامة الجمهور. والمعرفة تنتقل عن طريق ما يسميه السرد أو الرواية، وهو ينتقد ما يطلق عليه اسم «الروايات الكبرى» أى تلك النظريات التى تدعى أنها قادرة على شرح كل شىء وتقاوم أى محاولة لتغيير شكلها (أو روايتها). فالماركسية مثلاً لها روايتها الخاصة لتاريخ العالم التى تعتبرها حقيقة وبالتالي فإنها فوق النقد أو الحاجة إلى المراجعة، فهي ليست «رواية» لكى يعاد تفسيرها باطراد على ضوء الأحداث الثقافية المتغيرة، ولكنها نظرية لا تنقض وتصد مع مرور الزمن، وإنه لا ينبغى أبداً الارتياح فى مدى موثوقيتها. ويرى ليوتار أن موقفاً كهذا يتسم بطابع سلطوى، ويحتفى بدلاً من ذلك بما يسميه الرواية الصغرى Petit récit. وإن الروايات الصغرى تجتمع على أساس تكتيكى من قبل مجموعات صغيرة من الأفراد بغرض تحقيق بعض الأهداف المعينة (مثل «الرواية الصغرى» التى جمعت بين الطلبة والعمال فى أحداث ١٩٦٨ وطالبت بإجراء إصلاحات حكومية) ولا تدعى أن لديها إجابات عن جميع مشكلات المجتمع : ومن الناحية المثالية فإنها تبقى فقط ما دام ذلك ضرورياً لتحقيق أهدافها. ويرى ليوتار أن الروايات الصغرى هى أكثر طريقة خلقة لنشر المعرفة وخلقها، وأنها تساعد على كسر الاحتكار الذى مارسه تقليدياً الروايات الكبرى. وفى العلم، مثلاً، فإنه يتعين اعتبارها الوسيلة الأساسية للاستقصاء والبحث. ويخبرنا ليوتار أن «علم ما بعد الحداثة» هو بحث عم المفارقات وعدم الاستقرار والمجهول، بدلاً من أن يحاول تكوين رواية كبرى أخرى أيضاً يمكن تطبيقها على الجماعة العلمية بأسرها.

لقد استهدف ليوتار تقويض السلطة التى زاولتها «الرواية الكبرى» التى يعتبرها قامعة للقدرة الإبداعية الفردية، وأعلن «لم نعد نلوذ بالروايات الكبرى»؛ أى أنه لم يعد فى وسعنا الاعتماد عليها فى توجيه أفعالنا سواء على الصعيد العام أو الخاص. وما يبهجنا فعله هو عدم محاربة الروايات الكبرى، بل بالأحرى الكف عن الإيمان بها، وعلى أية حال فإنه من المفترض أن تتلاشى. وعلى الرغم من أن هذه النظرة تعد نظرة مثالية إلى حد ما للعملية السياسية، فإن شيئاً ما مثل هذا الاضمحلال حدث بعد سنوات قليلة من كتابه «أحوال ما بعد الحداثة»، عندما انهارت أوروبا الشرقية الشيوعية، دون حدوث صدامات عنيفة - إلى حد كبير - مع السلطات السياسية. ووفقاً لمصطلحات «ما بعد الحداثة» المرجعية فقد كف عامة الناس ببساطة عن الإيمان بالأيديولوجية السائدة، التى توقفت آنذاك عن أن تكون لها سلطة لكى تفرض إرادتها.

وتتمثل إحدى المشكلات التى تبقى معنا حالما نستغنى عن الروايات الكبرى - أو السلطات المركزية من أى نوع كان - فى كيفية تكوين الأحكام القيمية التى سوف يتقبلها الآخرون بوصفها عادلة ومعقولة. ويواجه ليوتار هذه المشكلة فى كتابه *Just Gaming* (١٩٧٩)، حيث يزعم أنه ما زال ممكناً تكوين أحكام قيمية، حتى ولو لم تكن لدينا «رواية كبرى» تدعم موقفنا، وذلك على أساس كل حالة على حدة (وهو شكل من البراجماتية التى يزعم أنها موجودة فى كتابات أرسطو السياسية والأخلاقية). وإن التصرف على أساس كل حالة على حدة *Case by Case* حيث يعترف المرء بعدم وجود معيار مطلق، هو الحالة التى يشير إليها ليوتار باعتبارها «وثنية» *Pa-ganism*، حيث تغدو المثل الأعلى للكيفية التى يتعين علينا العمل والتصرف على أساسها فى عالم ما بعد الحداثة. وإن يوجد أبداً مثل ذلك المعيار المطلق أو أسس الاعتقاد لكى توجهنا، لكن هذه الحاجة - كما يؤكد ليوتار - لن تؤدى إلى الوقوع فى فوضى اجتماعية، على نحو ما اعتاد النقاد من أنصار «الرواية الكبرى» افترض أنه سيحدث، وما يعتقه ليوتار هنا هو نزعة مناهضة الأسس *Antifoundationalism* : أى رفض فكرة وجود أسس لنظام التفكير أو الاعتقاد، لا تكون موضع شك وتساؤل، وأنها ضرورية لمهمة تكوين الأحكام القيمية. وقد اتضح أن فلسفة ما بعد الحداثة مناهضة

للأسس على نحو قاطع فى نظرتها، وغير راغبة فى قبول أن ذلك يجعلها مخلة - بآى حال - بوظيفتها باعتبارها فلسفة.

لقد أولت فلسفة ليوتار الأخيرة اهتماماً كبيراً لما يسميه «الحدث» (event)، وكذلك مفهوم «الاختلاف» difference. ويعتبر الحدث بمثابة حادثة أو واقعة غير متوقعة، تغير بشكل دارمى طريقة رؤيتنا للعالم وتثير التساؤل فى جميع افتراضاتنا الأيديولوجية مع مرور الزمن ومسيرته، ويمثل معسكر الاعتقال فى أوشفيتز مثل هذا الحدث وكذلك أحداث ١٩٦٨. فالحدث الأول بصفة خاصة لا يعد أمراً يمكن أن تنتحل له الأعدار بتطبيق نظرية «الرواية الكبرى»، والواقع أنه يمثل نقطة انهيار التنظير المتعلق بالرواية الكبرى. أما الحدث الآخر فهو نوع من انفجار الطاقة الليبيدية لا يمكن للنظام أن يتعامل فيها بخلاف ذلك، وأن تعترف بوجود أحداث لا يمكن التنبؤ بها أو استيعابها فى نطاق نظرية عالمية شاملة مُحكمة يعنى الاعتراف لا بمجرد حدود «الرواية الكبرى» وإنما أيضاً بانفتاح المستقبل. ويغدو هذا الانفتاح عقيدة جوهرية عند «أنصار ما بعد الحداثة» فالمستقبل لا يتعين النظر إليه باعتباره يتحدد مسبقاً، فمثل ذلك يجعل كل جهد إنسانى لا معنى له.

وتعتبر الاختلافات تضارب مصالح بين أطراف لا يمكن حلها، غير أنه يتعين الإقرار بها وبأن تبقى قيد النظر فى جميع الأوقات [راجع The Differend (١٩٨٢)]. وكل طرف يقطن ما يسميه ليوتار نظام تعبيري Phrase regime مختلف لا تتناسب أهدافه مع الآخر، وليس لأى منهما أى حق أخلاقى لكى يجعل الآخر متوافقاً مع رغباته. وما يحدث عملياً، ولا سيما فى الممارسة السياسية، هو أن أحد الأطراف فى النزاع يفرض آراءه على الآخر، وبذلك يحل النزاع لصالحه. ووفقاً لمصطلحات ليوتار فإن نظاماً تعبيريًا واحدًا يمارس الهيمنة على غيره - مثال كلاسيكى للنزعة التسلطية من الناحية العملية. ويذكر ليوتار مثالا على هذا فى عالم اليوم، حالة مستخدم (أجير) مُستقل لا يمكنه أن يحصل على تصحيح لوضعه الاستغلالي فيما لو رفع دعوى على رب العمل، ما دامت المحكمة التى تستمع إلى دعواه قامت على أساس مبدأ أن مثل هذا الاستغلال قانونى. فالنظام التعبيري لصاحب العمل يقوم على أساس أن يكون

للآخر صوته الخاص. ومهمة الفيلسوف مساعدة نظم التعبير المقموعة فى أن تعثر على صوتها، وذلك هو ما يسميه ليوتار «السياسة الفلسفية». ويمكن اعتبار «السياسة الفلسفية» البحث عن الجديد، الثقافة المضادة، نظم التعبير أقوى تعبير عن فلسفة ما بعد الحداثة.

وقد اهتم ليوتار فيما بعد بالطريقة التى تحاول بها القوى التى يسميها التقنية - العلمية Techno - Science (والتي يمكن أن نفترض أنها القوى المتعددة القوميات) أن تسطو على مجرى التاريخ الإنسانى، عن طريق تهديد السبيل لنهاية الحياة على الأرض. ويزعم ليوتار أن أنصار Techno - Science يستأصلون تدريجيا البشرية من الصورة بتطوير تكنولوجيا الكمبيوتر المتقدمة دائماً ذات المقدرة على إعادة إنتاج نفسها واستمرار الوجود فى مكان آخر فى الكون حالما تموت الأرض (حدث قد يقع بعد ٤,٥ بليون سنة). ويحذرنا فى The Inhuman (١٩٨٨) من أن الهدف النهائى لـ Techno - Science هو جعل التفكير ممكناً بدون جسد، وهو ما يمثل تهديداً للإنسانية وقيمها ينبغى مقاومته بشدة، لكونه «غير إنسانى» فى روحه. وما يبيغى علماء التقنية العلمية هو اختزال الإنسانية إلى جوهرها المفترض، أى الفكر، وجعل ذلك ممكن التنبؤ به فى شكل برنامج كمبيوتر. فالفكر المفترض دون جسد يعنى أنه لم تعد توجد أحداث و«اختلافات» تكون مثار قلق بطبيعة الحال ولا انفتاح المستقبل الذى يقدره أنصار ما بعد الحداثة إلى حد بعيد. وتلك حالة أخرى لاستبعاد المختلف وما لا يمكن التنبؤ به لكى يمكن ممارسة السيطرة. وإن ما أسقط من المعادلة هو الفرد وكذلك «السردية الصغرى» Little Narrative، وليس لكليهما أى مكان فى المخطط السلطوى للأشياء، وإن الرغبة فى تجريد البشرية من صفاتها الإنسانية باختزالها إلى «عملية تفكير» وحدها هو فعل أخير للنزعة السلطوية بالنسبة إلى ليوتار. وتغزو المقاومة على صعيد Little Narrative تصرفاً أخلاقياً بالإنابة عن قضية الاختلاف، وإن الاختلاف هو الذى يتعين حمايته مهما يكلف الأمر فى «عالم ما بعد الحداثة».

ويعد عمل جان بودريار Boudrillard تعبيراً مهماً أيضاً عن فلسفة «ما بعد الحداثة». وقد أضحى هو أيضاً شديد النقد للماركسية والبنوية، رافضاً في نهاية الأمر فكرة وجود بنى متوارية خلف جميع الظواهر من مهمة المحلل أن يعينها ويوضحها. ويرى أن عالم ما بعد الحداثة هو عالم المحاكاة أو الصور المحاكية - Simulacra، بحيث لم نعد نميز الاختلاف بين الواقع والمحاكاة. والصور المحاكية لا تمثل شيئاً سوى نفسها، ولا يوجد واقع آخر تحيل إليه. وبالتالي فإن بودريار أمكنه أن يزعم أن ديزني لاند Disneyland والتلفزيون يشكلان حالياً واقع أمريكا، وحتى على نحو أكثر خداعاً فإن حرب الخليج لم تحدث، بل كانت مجرد محاكاة (شيء قد يتماشى مع ألعاب الفيديو، على ما يبدو). ولم يكن من المستغرب أن تحظى هذه النظرة بقدر متعاظم من النقد لما تنطوي عليه من نظرة ساخرة تهكمية بكل وضوح وجلاء، وانعدام الحساسية للبعد الإنساني الذي تنطوي عليه.

وثمة حجة أخرى لبودريار أثارت قدراً هائلاً من الجدل تمتعت في أن النظم لم تعد محتاجة للمعارضة، وأنها يمكن أن تُغوي بدلاً من ذلك، أي تغري بالإذعان والاستسلام (راجع Seduction - ١٩٧٩). وقد وجه أنصار الحركة النسائية نقداً شديداً لما اعتبر بمثابة انحياز جنسي Sexism متضمن في فكرة الإغواء متهمين إياه بدعم الأنماط الجنسية المقولية بهذا الاستخدام.

وعلى الرغم من الإقرار بقوة الحجة النسائية فقد يتعين على المرء أيضاً أن يعتبر الإغواء محاولة أخرى مميزة تماماً لما بعد الحداثة في تقويض النظم والأنساق بتحديد موضع مواطن الضعف. ولا ترى فلسفة ما بعد الحداثة بعامة ضرورة للدخول في مواجهة سافرة مع نظم السلطة والقوة؛ إذ اهتمت أكثر بتبيان ما الذي يمكن عمله لكي تنفجر مثل هذه النظم من الداخل (وأبرز الأمثلة الماركسية والشيوعية).

ومن الممكن اعتبار أن رد الفعل على الماركسية العقائدية في عمل مفكرين من طراز ليوتار وبودريار كجزء من اتجاه ثقافي آخر أيضاً عرف الآن باسم «ما بعد الماركسية». وقد أصبح هذا الاتجاه يمثل موقفاً نظرياً مهماً، ويضم ليس مجرد

شخصيات ترغب في رفض المعتقدات الماركسية (مثل ليوتار وبودريار)، بل أيضاً أولئك الذين ييغون مراجعة الماركسية من منظور التطورات الثقافية والنظرية الجديدة، وقد عبر عن هذه الجماعة الأخيرة إرنستو لاكلو Ernesto Laclau وشانتال موفي Chantal Mouffe عندما نشرتا كتابهما النزالي في ١٩٨٥ : "Hegemony and Socialist Strategy: towards a Radical Democratic Politics"، وزعما في هذه الدراسة أن الماركسية تحتاج إلى أن تنحاز إلى شتى الحركات الاجتماعية الجديدة التي برزت إلى الوجود (مثل الحركة النسائية، والخضر، والأقليات العرقية والجنسية)، ويقول آخر فإنه يلزم الماركسية أن تحتضن التعددية السياسية وأن تتخلى عن ادعائها بأنها تجسد الحقيقة السائدة. كما احتاجت الماركسية إلى أن تأخذ في الحسبان شتى النظريات الجديدة التي برزت إلى الوجود، نظريات مثل التفكيكية أو ما بعد الحداثة.

ومرة أخرى فإننا نستطيع أن نلاحظ الارتباب المميز لما بعد الحداثة في النظريات الكبرى (الروايات الكبرى) وعقيدتها الدوجماتية التي تأتي في المقدمة. وما اعتبر خطأ في الماركسية هو إخفاقها في أن تتطور مع الزمن، وأن تدرك كيف أصبح المجتمع متنوعاً (أو متعدد)، باستخدام الكلمة الشائعة الاستعمال). وبدلاً من ذلك تشبثت الماركسية بالمستوى الذي يحاول فرض نظرياته على الآخرين، على أساس أنها هي وحدها التي تمتلك الحقيقة، وانطلاقاً من هذا المنظور تعتبر الماركسية نظرية سلطوية ومن الناحية الأخرى فإن موفي Mouffe و لاكلو laclau يدعوان إلى ماركسية أكثر انفتاحاً، قادرة على التواء مع الأوضاع الثقافية المتغيرة واجتذاب جماهير جديدة في غضون ذلك. وعلى نحو متوقع إلى حد ما فإن المؤسسة الماركسية لم تول الاعتبار لمزاعم موفي ولاكلو بأن الماركسية في حاجة إلى مراجعة جذرية، أو أن تسعى جاهدة لكي تصبح تعددية، متمسكة بدلاً من ذلك بالحقيقة المفترضة للماركسية وعالمية التطبيق.

إن هذا الارتياح في النظريات الكبرى ومزاعمها السلطوية هو ما يمكن اعتباره السمة المميزة لفلسفة ما بعد الحداثة، التي تتمسك بموقف مؤيد لحرية الفكر والعمل عبر شتى تجلياتها. وفي العالم الفلسفي الأنجلو أمريكي نستطيع أن نعرّض على مثل تلك الآراء التي يعتنقها الفيلسوف البراجماتي الأمريكي ريتشارد روتري Richard Rotry، بطل شهير لما يطلق عليه اسم الموروث الفلسفي القاري الحديث. وهو أيضاً لا وقت لديه للنظرية الكبرى، وأقل اهتماماً - على غرار الطراز البراجماتي الأصيل - بما إذا كانت النظريات صحيحة أو غير صحيحة، إنما ينصب اهتمامه على ما إذا كانت نافعة ومهمة. والفلسفة عنده ليست أكثر من شكل من أشكال المحادثة، ويتجه تفضيله لـكي يعثر على مصدر للأفكار لتوجيه سلوكنا. إلى موضوعات أخرى مثل الأدب. وانعطف Rotry إلى «ما بعد الفلسفة»، هو ما يعد أيضاً خصيصة مميزة لما بعد الحداثة، وهو نبذها السرد (النظير) المعياري الذي اقترن بالموروث الفلسفي الغربي. وتلك سلطة أخرى يجري إيداعها بفضاظة في مزيلة التاريخ.

ومما لا يبعث على الدهشة ألا يكون جميع الناس سعداء بالالتجاء المتواتر لما بعد الحداثة إلى مزيلة التاريخ. وقد سمى الناقد الأمريكي فريدريك جيمسون Fredric Jameson نظرية ما بعد الحداثة «المنطق الثقافي للرأسمالية في مرحلتها الأخير» معتبراً إياها، عن غير قصد أو خلاف ذلك، متواطئة مع السلطات التي تساعد على إبقاء الوضع الراهن السياسي. لقد انتقد أنصار ما بعد الحداثة باستمرار إيمان اليسار بفعالية المواجهة الأيديولوجية، وبالنسبة إلى ماركسي مثل جيمسون فإن نتيجة ذلك هي خدمة قضية اليمين الذي له مصلحة ثابتة في زيادة اللامبالاة بالعملية السياسية. وقد تبني تيري إيجلتون Terry Eagleton رأياً مماثلاً لرأي جيمسون، مسترعياً الانتباه باطراد إلى المفزى الأيديولوجي لتبني اتجاه ما بعد الحداثة، الذي يعتبره ضاراً بقضية الاشتراكية. وقد انتقد كريستوفر نوريس Christopher Norris بشدة عمل بودريار، وخاصة ما اعتبره موقفاً يتسم بالرعونة تجاه حرب الخليج، ويرى أن أفكار بودريار لحقيقة هذه الحرب إنما ترمز إلى خواء ما بعد الحداثة بوصفها نظرية ثقافية، وإنه لا يستطيع أن يتقبل فقدان بودريار الإحساس الواضح بالاضطراب السياسي والمعاناة الإنسانية.

كما أن يورجن هابرماس (Jurgen Habermas) (*) يجد أن ما الحداثة تثير الريبة والشك من الناحية الأيديولوجية، واختلف مع فلسفة ليوتار على هذا الأساس (لزيد من المعلومات عن نقد ما بعد الحداثة راجع الفصل الأخير من هذا الكتاب).

وإجمالاً فإن فلسفة ما بعد الحداثة يتعين تعريفها بوصفها صيغة حديثة من المذهب الشكّي، مع اهتمامها بالتركيز على تقويض أسس النظريات الأخرى ومزاعمها بامتلاك الحقيقة، أكثر من اهتمامها بإرساء نظرية إيجابية خاصة بها، على الرغم من أن الشك والارتياب في المزايم النظرية للآخرين ينطويان بطبيعة الحال على برنامج محدد خاص بهما، ولو كان ذلك عن طريق عدم وجوده فقط. ومن ثم فإن فلسفة ما بعد الحداثة يمكن أن تعتبر بمثابة نشر الفلسفة لتقويض الضرورات السلطوية الموجودة في ثقافتنا على الصعيدين النظري والسياسي. وما إذا كان هذا الاتجاه سوف يثير الاهتمام لفترة طويلة للغاية فإنه يصعب قول ذلك. وقد أضحت ما بعد الحداثة إلى حد ما رواية كبرى خاصة بها (هناك «اتجاه» ما بعد حدائى نهائى لمعظم القضايا الفلسفية)، ومعرضة بالتالى للهجوم بدورها. كما أنه يمكن الزعم بأن فلاسفة ما بعد الحداثة قد غالوا في أقوال الروايات (النظريات) الكبرى، وأحد الاعتراضات ذات الصلة الوثيقة بالموضوع على قول ليوتار بتخليها عن دلالتها المستمرة تمثل في أن الأصول الدينية (من أكبر «الروايات» التى وجدت) تصاعدت بوضوح جلى في العقود الأخيرة من القرن العشرين. ويلوح أن نمو الأصولية الإسلامية يلقي بظلال الشك والتساؤل على مدى صحة حكم ليوتار في هذا الصدد، علماً بأنها تسيطر حالياً على الحياة السياسية في عدد متزايد من البلدان في الشرق الأوسط وآسيا، مما يجعلها ذات تأثير مهم على المسرح السياسي العالمي.

(*) هابرماس : عالم اجتماع ألماني، ولد في دوسلدورف عام ١٩٢٩ فهو أحد ورثة مدرسة فرانكفورت والنظرية النقدية محتدياً خطوات هذه المدرسة في الجمع بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية، وربما كان من أهم أعماله بعد كتابه النقدي عن الماركسية «بعد ماركس»، ١٩٧٥ كتاب «نظرية الفعل الاتصالي» الذي احتوى على جانبين: أولهما دراسة ترشييد الفعل والمجتمع، وانصب الجانب الثانى على نقد العقل الوظيفي (Functionalist). (المترجم)

ويتبنى ليوتار نفسه نظرة دورية للتاريخ الثقافي، حيث تستمر ما بعد الحداثة والحداثة في التعاقب عبر الزمن في تتابع لا نهائي. ومن ثم فإن ما بعد الحداثة وجدت في الماضي (ويعتبر ليوتار شخصيات مثل رابليه Rabalais ولورانس ستيرن Laurence Sterne^(٥) ضمن شخصيات ما بعد الحداثة) وستوجد ما بعد الحداثة والحداثة مرة أخرى في المستقبل. وإنه من الممكن فقط الزعم أننا نعيش فعلاً في عالم ما بعد حداشي حيث تعبر عن وجودها الاهتمامات الثقافية المتباينة (مثل إعادة تكوين الروايات الكبرى). ومن المؤكد أن المذهب الشكي اتجه إلى أن يسود ثم يبطل ويختفى عبر مجرى التاريخ الفلسفي، وقد تكون الجولة الجديدة مفيدة في تحقيق غرضه المعتاد في استرعاء الانتباه إلى هشاشة بعض المواقف الفلسفية، وأن يكون من الممكن لبرنامج ذي توجه فلسفي أقل سلبية أن يحتل مكانه في المستقبل القريب.

(٥) فوانسوا رابليه (١٤٨٣ - ١٥٥٣) : كاتب فرنسي بدأ حياته راهباً ثم انصرف إلى دراسة الطب والأدب، اتسم بعمق ثقافته ومعرفته الواسعة، بحيث استطاع التعبير عن التيار الإنساني الذي ساد القرن السادس عشر بأكمله. وتميزت كتاباته بنزعة احتجاجية وسخرية فظة، في أحيان كثيرة، من الحرب والكهنوت الكاثوليكي وتعليم القرون الوسطى، سارحاً بين الجد والمزح في كتاباته التي أثرت اللغة الفرنسية.

لورانس ستيرن (١٧١٣ - ١٧٦٨) : روائي بريطاني كان واسع الانتشار في القرن الثامن عشر. جاءت كتاباته مخالفة للمألوف والتقاليد الأدبية السائدة، بحيث يعتبره البعض التجسيد المسبق للرواية الحديثة؛ لما انطوت عليه أعماله من تجديدات تجاوزت العصر الذي عاشه. (الترجم)

الفصل الثانى ما بعد الحداثة والنظرية النقدية والثقافية

أنتونى إيست هوب Antony East Hope

الحداثة وما بعد الحداثة :



لوحة بيكاسو فتيات أفينيون، نحو ١٩٠٧

تعد صورة "فتيات أفينيون" التي استكملها بيكاسو نحو ١٩٠٧ نصا تأسيسيا فى شريعة الحداثة، تصدم المتفرج فى كل مناسبة. وقد أرسى موروث القرن الخامس عشر (فن عصر النهضة خلال ذلك القرن) وهو الشكل السائد فى الفن الغربى، وبدقة، عرفاً يقضى بتمثيل الأشياء فى منظور خطى. وفى عمل بيكاسو فإن وجه الشخص الموجود فى أسفل اليمين والذي يبدو جالسا القرفصاء على نوع من مقعد المرحاض الذى يستخدم فى الاغتسال والقطامة (biclet) رُسم من الأمام وبصورة جانبية فى الوقت نفسه، وهو تأثير يحطم الموروث (كما يفعل فى تشكيل الأجسام بعامة). ويذكر هذا

الوجه وذلك الموجود فى أعلى الجانب الأيمن بالأقنعة الأفريقية، ناقضاً أى معارضة بين أوروبا ("المتحضرة" والعالم "البربرى" خارجها. وبينما مثل الموروث الأساسى المرأة فى صورة سلبية (عادة عارية، وفى وضع الاستلقاء بعامة) والتي تردُّ باحتشام حملقة المشاهد، فإن تلك النسوة (ومن الواضح أنهن بغايا) يحدقن بعيون ترفض الخضوع لأية نظرة مسيطرة أو متحكمة. وتبرز رسوم بيكاسو تأكيداً إيجابياً بأن الماضى يموت، مظهر كاذب، وأنه يتعين العثور على حقيقة جديدة وعلى طرق مختلفة للتصوير والرسم. وتثير الصورة التى رسمها الفنان الأمريكى إريك فيشل Eric Fischl فى ١٩٨٢ عن "قارب الرجل العجوز وكلبه" الواردة أدناه، الكثير من الأسئلة. فهل تصور رحلة للمتعة أو أعقاب كارثة؟



(لوحة إريك فيشل عن قارب العجوز وكلبه ، ١٩٨٢)

فهل يتعين علينا أن نلتفت إلى النصف الأسفل الشمس أو إلى المهاد المظلم، حيث هناك موجة تهدد بغمر السفينة؟ وهل الأشكال العارية من أجل المتعة الجنسية؟ أو من قبيل الفاقة والعوز؟ (وهل المرأة الموجودة في وسط الصورة تأخذ حمام شمس؟ أو هي ميتة؟). وبينما تتناسب الشخصية الموجودة في الركن الأيسر مع إطار اللوحة تماماً فإن أصبعها يقود في مسار حلزوني يشير عرضاً إلى الشخصية الأساسية ثم يتجه إلى اليسار نحو الرجلين اللذين يزحفان وفيما يتعدى الصورة إجمالاً. ولا يمكن التمييز في تصوير فيشل Fischl بين الظاهر والواقعي - فكل خط تساؤلي تلغيه إمكانية أخرى.

وتشير هاتان اللوحتان إلى التعارض بين تأكيدات الحداثة الواثقة الثائرة على المعتقدات والمؤسسات التقليدية وما بعد الحداثة التي تتأسس على ازدواجية (ثنائية الضدين). ولا بد أن توجد عدة أسباب لهذا الضرب من التغيير. وقد يكون أحدها أن الفن يمثل ضرورة ما لكي يتحرك ولذلك فإن الحداثة تركزت لأنه تعين العثور على أمر جديد. ومن المؤكد أن التأثير المراد للحداثة قد تضاعف بمرور الزمن: وفي عام ١٩١٧ فإن مارسيل دوشان Marcel Duchamp (*) أفرغ قاعة العرض الفنية بتقديمه مبولة للرجال من الخزف الصيني تحت عنوان "نافورة"، لكنها عندما عرضت مرة أخرى في معرض للدادية (**) في أواخر الخمسينيات - وكما لاحظ هانز ريشتر Hans Richter في كتابه Dada: Art and Anti- Art - (١٩٦٥) لم يتبق أي أثر للصدمة الأولى.

(*) مارسيل دوشان (١٨٨٧-١٩٦٨) : رسام فرنسي. أحد مؤسسي المدرسة الدادية، اشتهر بتقنية ما يسمى Ready-made. (المترجم)

(*) الدادية: حركة فنية وأدبية انتشرت في سويسرا أولاً ثم امتدت إلى العديد من البلدان الأوروبية وأمريكا وذلك إبان الحرب العالمية الأولى وما بعدها. وتعتبر حركة عديمة هادمة لجميع المعايير الجمالية منتمية إلى ما يسمى Anti-art طورت العديد من الأساليب الفنية مثل التجميع AS-semblage واللصق collage واعتبر مارسيل دوشان من مروجيها في فرنسا. وقد خرجت من أحشائها الحركة السيريالية بانشقاق أندريه بريتون عن هذه الحركة لعدميتها وإنشائها السيريالية. (المترجم)

وأوضحت الحداثة أكثر تجسُّباً أيضاً في الثقافة المضادة التي ساعدت في ستينيات القرن العشرين.

وننسى اليوم بسهولة أن كثرة من البشر في عام ١٩٢٠ أفزعها مستقبل مجهول تستولى فيه الطبقة العاملة على السلطة السياسية (وقد فعلت الثورة السوفيتية القليل لتخفيف وطأة هذه المخاوف)، وقد ارتبطت نزعة الحداثة ارتباطاً قوياً بهذا القلق. وبحلول ستينيات القرن العشرين بات جلياً أن الجماهير أمكن أن تتكيف - لحسن الحظ- في نطاق المؤسسات القائمة، وقد تجلّى هدوء معتدل يشويه الارتياح استطاعت فيه ما بعد الحداثة إعادة تدوير الأفكار والآثار من النزعة الحداثية دون حدوث أي انزعاج جدى.

ما بعد الحداثة : جينكس Jencks

يمكن التمييز بين استخدامات رئيسية ثلاث لمصطلح ما بعد الحداثة، أحدها في مجال تاريخ الفن وفن العمارة، والثاني في نطاق الفلسفة وما يستتبع ذلك من جدل حول ما إذا كانت الحقيقة تحتاج إلى، ويمكن أن يكون لها أساس، والاستخدام الثالث في نطاق أكثر عمومية يتصل بالثقافة المعاصرة. وظهر هذه المصطلح إبان أواخر ستينيات القرن العشرين ليشير إلى روايات جون بارث John Barth (*) و رقص ميرك كومنينجام Merce Cunningham (**) وجاء أول انتشار واسع النطاق مع صدور كتاب Charles Jencks عن The Language of post-Modern Architecture (١٩٧٥) .

وقد أعطى جينكس تطبيقاً محدداً للغاية وموحياً مع ذلك لفكرة ما بعد الحداثة وكان المثل الأعلى الحديث النزعة في المجال المعماري حضرياً ومعماً ودولياً، يرفض

(*) جون بارث: روائي أمريكي مولود في ١٩٢٠، بدأ حياته موسيقياً ثم أصبح أستاذاً للغة الإنجليزية في جامعة نيويورك. يعتبر تلميذاً لكافكا وجويس. تناول في رواياته اقتقاد القيم في العالم، واستحالة اتخاذ قرار عادل، بسلوب ساخر بلا توفير ولا احترام، ومن أشهر رواياته Sat-weed Factor (١٩٦٠). (المترجم)

(**) راقص ومصمم رقصات أمريكي، مولود في ١٩١٩، كون فرقة خاصة للرقص في ١٩٥٣، وأرتاد اتجاهات تجريدية جديدة في مجال الرقص الحديث. (المترجم)

الزخرفة، مستخدماً المواد المعاصرة بطريقة وظيفية ويتمثل بشكل نموذجي في كوب هندسي وعلبة من الصلب، متجانس التكوين من جميع الاتجاهات، ويمكن الاستدلال على الحدود فيما بين الجزء والكل كما أنها يمكن أن تستدل من الكل على الجزء. ويرى جينكس أن ما بعد الحداثة تنشأ حالما تلتقي الحداثة مع التكنولوجيات الجديدة، فينتج خليط تعددي من الأساليب ومعه إحساس مختلف بالفراغ أو الفضاء:

«إن الحيز ما بعد الحداثي محدد تاريخياً، متجذر في الأعراف، غير محدود أو مبهم في تحديد المناطق ولا عقل»
أو تحويلي في علاقة الأجزاء بالكل وغالباً ما تترك الحدود غير واضحة ويمتد الحيز أو الفضاء إلى ما لا نهاية دون حد ظاهر جلي».

ومن هذا العرض يتضح أنه بينما يجري تصميم مبنى الطراز الحديث من حول مركز محوري فإن نظيره من الطراز ما بعد الحديث- ومن خلال استعمال الخطوط القطرية وتعدد الطبقات وأنصاف الأشكال والمحاور المتنقلة- يغدو غير متماثل ولا مركزي. وليس ذلك تماماً هو ما يعبر عنه جينكس؛ لأن اهتمامه هو أن يقدم تحليلاً تفصيلياً لأمثلة من الفن المعماري الحديث، وإنما هي طريقة لإيجاز موقفه الذي يربطه بالنصير الأول المهم لما بعد الحداثة في مجال الفلسفة والثقافة: جان فرانسوا ليوتار.

ليوتار وبيودريار

تناول كتاب ليوتار "أحوال ما بعد الحداثة" - الذي نشره في فرنسا- اتجاهاً غير متوقع بعض الشيء: وضعية العلم في العالم الحديث. وقدم ليوتار في خضم هذا النقاش إعادة نظر جذرية مقلقة للكيفية التي عملت بها المعرفة في الغرب منذ النهضة، انطلاقاً من وجهة النظر القائلة إن العلم أصبح اليوم بالنسبة إلينا وثيق الصلة باللغة:

«المعرفة العلمية نوع من الخطاب. ومن الإنصاف القول إنه بالنسبة إلى السنوات الأربعين الأخيرة فإن التكنولوجيات والعلوم الرئيسية تعين عليها أن تكون ذات علاقة مع اللغة: الفونولوجيا

(علم الأصوات) والنظريات اللغوية، ومشكلات الاتصال والسيبرنطيقا (علم التحكم الآلي) ونظريات الجبر الحديثة والمعلوماتية، الكمبيوتر ولغاته، ومشكلات الترجمة والبحث عن مجالات التوافق فيما بين لغات الكمبيوتر، ومشكلات تخزين المعلومات وبنوك المعلومات، وإرسال المعلومات عن بعد، وإتقان المحطات النهائية الذكية، وعلم المفارقات».

ومع مجيء فترة التصنيع أضحت الحديد والصلب سلعتين، وفي عالم "ما بعد الصناعة" غدت المعرفة نفسها سلعة، ولذلك يشير ليوتار إلى "تحويل المعرفة إلى تجارة" (*). ولا يقتصر الأمر على المعرفة بصيغة المفرد ولكن المعارف ما دامت توجد حالياً منافسة متعددة بين المعارف. ويستتبع ذلك بروز مشكلة "الشرعية"، لأنه كما يسأل ليوتار: "من يقرر ما المعرفة؟".

لقد جرى، عادة، تعريف "المعرفة العلمية" بالتعارض مع الأيديولوجية أو العكس بالعكس. بيد أن هذا، كما يشير ليوتار، يطرح مشكلتين، مما يثير التساؤل عن مدى صحة العلم. وأولاً إذا كانت الأيديولوجية لوناً من ألوان "الخطاب" فكذلك "المعرفة العلمية نوع من الخطاب"، مما يستتبع سؤال "كيف نميز بينهما؟" وثانياً، هناك مشكلة النكوص أو التقهقر اللانهائي، فإذا كان الحصول على الحقيقة العلمية يتم بالدليل والبرهان فإن ليوتار يتساءل: "وما البرهان على أن برهاني حقيقي؟".

ويزعم ليوتار أن المعرفة العلمية لم تمنح نفسها أبداً الصفة الشرعية؛ لأنها اعتمدت دائماً على ما يسميه "المعرفة السردية" لمساندتها. والمعرفة السردية متواضع عليها أو اعتيادية، وهي جزء لا يتجزأ من الثقافة وتتجسد في أشكال من الكفاءة الاجتماعية مثل "الخبرة الحية" التي تعتبر وبشكل نموذجي نوعاً من السرد. وخلافاً للمعرفة العلمية فإن المعرفة السردية تتجاوز معيار الصدق ولا تستلزم أى مشروعية

(*) يستخدم ليوتار هنا مصطلح "المركنلية" إشارة إلى النظرية الاقتصادية التي سادت القرن السابع عشر، ورأت أن التجارة تولد الثروة مما يستدعي تشجيع الصادرات والإقلال من الواردات لتحقيق فائض في الميزان التجاري، فضلاً عن ضرورة انتهاج سياسات تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة واتباع سياسات حمائية صارمة لدعم الاقتصاد الوطني. (المترجم)

أخرى لأنها تضيف على نفسها المشروعية.

وإذا كان هذا هو كل ما تعين على ليوتار قوله فما كان ممكناً أن يغدو الشارح الأساسي لما بعد الحداثة. وقد جاءت النقلة التالية وعاقبتها لتضيف بعض الأهمية على عرضه، لأن ليوتار يزعم أن المعرفة السردية التي اقتضاها العلم قد اتخذت شكلاً أو آخر من نوعي السرد (الرواية) المتريعين على الرئاسة، أو الكبيرين. وقد تكونا من : (١) رواية التحرر والانعقاد، قصة "تحرير الشعب" حيث اعتقد العلم أنه وسيلة ضرورية (يفكر ليوتار بشكل خاص في عقلانية القرن الثامن عشر التي كانت في خدمة الثورتين الكبيرتين، الأمريكية والفرنسية، وهي عقلانية تفسر الخرافة باعتبارها استرقاقاً يمكن للمعرفة أن تحررنا منها). (٢) رواية انتصار العلم كتأمل أو معرفة محضة وأصيلة (وهذه الرواية السردية نشأت مع ثقافة النهضة واستمرت بفضل التنوير وفي أعمال هيجل ووضعية القرن التاسع عشر)، وإن لاحظ ليوتار سيادة هذين النوعين من السرد فقد أضاف بطريقة جافة قائلاً إن الماركسية "تذبذبت بين هذين النموذجين من المشروعية السردية".

وقد ذهب كل هذا الآن... وفي أحوال ما بعد الحداثة فإن "الرواية الكبرى" فقدت مصداقيتها... بغض النظر عما إذا كانت رواية تأملية أو رواية تحرر وانعتاق. وبدلاً من شمول وتوحيد الروايات (السرديات) في مركز الثقافة، وتكوين مركز الثقافة فإن أي "سلسلة هرمي للتعليم" سابقاً قد أفسح المجال حالياً لشبكة متصلة، إن جاز التعبير، مسطحة من مجالات الاستفسار والاستقصاء، وعند هذا الموضع ينزلق ليوتار من الوصف إلى الدفاع والتأييد. فالمعرفة تتكون حالياً من عدم تجانس المعارف المحلية المتنافسة حيث توجد فيها ببساطة "جزر الحتمية". وقد غدت المعارف أدائية [ترمى إلى فعل شيء في مقابل الأسلوب الخبري. المترجم]، ولم يعد يحكمها سؤال "هل هي حقيقية؟" بل "ما جدواها؟" وكل خطاب يحكم عليه بما يسميه ليوتار "التبرير غير المنطقي" (البارالوجي)، مقدرة المعارف المتوازية بدلاً من المعارف المترتبة هرمياً على أن تتقدم بنقلة جديدة، أي إحداث تجديد. ويرحب ليوتار بما يعتبره محصلة

سياسية لهذا الوضع الجديد، أى نهاية النزعة السلطوية المتضمنة فى أى مطلب بالفهم الشمولى للواقع، ويقول: "دعنا نشن حرباً على الكلية والشمول".

وفى هذا السياق فإن ما بعد الحداثة جرى تعريفها بوضوح تام، فهى تميز وضعاً معاصراً صاغه ليوتار، محرّكاً الأوجاع، بقوله: "إن أغلبية البشر فقدت الحنين إلى الرواية المفقودة". وقد يكون من سوء الفهم لتحليل ليوتار الإجابة بأنه ما زالت هناك روايات كبرى وأن تاريخه لكيفية تمهيد عقلانية التنوير السبيل لنزعة الشككية لما بعد الحداثة تعد واحدة من هذه "الروايات". والأمر موضع الخلاف ليس مجرد الوعى والإدراك، بل شدة الاعتقاد والثقة اللذين يفترضهما مفهوم المعرفة السردية، وما قد يكون أكثر ضرراً هو التشكك فيما إذا كان ممكناً أن تفصل أبداً المعرفة السردية عن المعرفة العلمية على النحو الذى يزعمه ليوتار. وقد اختلف مع بعض الكتاب ومنهم جاك دريدا Jacques Derrida الذى قال بلا مواربة فى مقابلة مع فى (1994) Radical Philosophy: "لم أوافق البتة على تلك الإعلانات والتصريحات عن نهاية ضروب الخطاب الكبرى ذات الطابع التحررى والثورى".

ويعد جان بودريار مفكراً أقل جدية والتزاماً بوجه العموم من ليوتار، وغالباً ما تتسم مناقشته لما بعد الحداثة بالاعتراض والطعن نتيجة لكونه استفزازياً وهازلاً. وإذا كان ليوتار يشدد على أنه فى أحوال ما بعد الحداثة لا يمكنك أن تعثر على العلم حقيقة فى الواقع لذلك يميزه عن الأيديولوجيا (ويغدو العلم نفسه خطاباً حيث تسفر محاولته للبرهنة على حقيقته الخاصة به عن نكوص مستمر) فإن بودريار يتصور ما بعد الحداثة بوصفها دورة لا نهاية لها، علامات signs سقط منها أى معنى واقعى، فهى عالم لا توجد فيه غير المحاكاة، ولا شىء غير المحاكاة Simulations.

وفيما مضى (على نحو ما يوضح بودريار) أمكن أن تكون العلامات عوضاً عن الواقع أو يمكن مبادلتهما بالواقع، بمعنى أنها كانت تمثيلاً للواقع. وفى مرحلة تاريخية تالية ارتبطت العلامات بعلامات أخرى تحيل إلى الواقع، والآن، فى مرحلة الثالثة، نظام ما بعد الحداثة، فإن العلامات لا ارتباط لها بالواقع، فالعلامات أصبحت أكثر

واقعية بالفعل من الواقع، فيما يعمده بودريار باسم "ما فوق الواقع" أو إلغاء الواقع hyperreal وعلى سبيل المثال فإنه يزعم، واجدًا متعة في المفارقة، أن ديزنى لاند Disney Land فى الولايات المتحدة توجد كما هى لكى تعطى التأثير بأن بقية أمريكا واقعية. ومرة أخرى، وعلى نحو فاضح، كتب مقالتيْن أثناء حرب الخليج فى ١٩٩٠، مقترحًا أولاً أنها لا يمكن أن تحدث، ثم عقب ذلك أنها لم تحدث. غير أنه ثمة جانب له قوته فى مبالغات بودريار، لأنه يجعلنا نتساءل عما إذا كانت حربًا يخسر فيها أحد الجانبين ٢٠٠٠٠ مقاتل ويخسر الجانب الآخر قرابة ٧٠ مقاتلاً، معظمهم من جانب قواتهم فيما يطلق عليه اسم حوادث "النيران التى تأتى من جانب الحليف" تعد بأى اعتبار تقليدى حرباً حقيقية.

جيمسون Jameson

قد يكون من المفيد عند هذا المنعطف تسجيل مجموعة من الآثار التى ارتبطت بما بعد الحداثة:

- ١- الشك فى وجهة نظر التنوير القائلة إن العقل فى استطاعته الاعتماد على أساس متين لكى يفصل فيما بين الحقيقة والكذب، وهو تراث وثيق الارتباط بالعلم.
- ٢- عدم اليقين إزاء النزعة الإنسانية التقليدية^(٥) وأفكار التقدم.
- ٣- تطور غير مسبوق على الإطلاق فى مجال وسائل الإعلام الجماهيرية Mass media، ولا سيما الوسائل السمعية البصرية (مثل التلفزيون والسينما والإعلانات وما إليه...) منذ ١٩٥٠.

(٥) المقصود هنا الفلسفة الإنسانية التى تؤكد على قيمة الإنسان وقدرته على تحقيق الذات عن طريق العقل، والتى تشمل بوجه عام الثقافة الأوربية التى سادت عصر التنوير ورفضت الإيمان بأية قوة خارقة للطبيعة. (المترجم)

٤- الرضاء المتسع النطاق الذى يلوح أنه وجد ليبقى، معبراً عن نفسه فى النزعة الاستهلاكية.

٥- إضعاف أى إحساس بالسلطة الاجتماعية المركزية لصالح التعددية فى مجال أساليب الحياة والأخلاقيات الاجتماعية المقبولة.

وإذا كان ليوتار وبيوديار بانتماعاتهما الفكرية التى ترجع أصولها إلى نيتشه وجيل ديلوز، قد دافعا عن ما بعد البنيوية فإن الناقد الأمريكى- الهيجلى- الماركسى- فريدريك جيمسون اتخذ موقفاً مدوياً مناهضاً لها. وفى أعقاب نشر كتاب ليوتار، فى وقت كان ينتشر فيه مصطلح ما بعد الحداثة لكن قلة هى التى عرفت ماذا يعنى، نشر جيمسون فى ١٩٨٤ مقالة فى مجلة *New Left Review* عن: "ما بعد الحداثة أو المنطق الثقافى للرأسمالية فى مرحلتها الأخيرة" (وقد غدت لاحقاً عنوان كتاب كامل)، لم يقدم فيها تفسيراً واضحاً لماهية ما بعد الحداثة فحسب، بل شجع أيضاً على إصدار حكم حاسم عليها.

يعتمد جيمسون بلا تردد فى حجته على أساس رواية واحدة كما أوردها أرنتس ماندل A. Mandel فى كتابه *Late Capitalism* (١٩٧٥)، التقسيم إلى فترات زمنية تتوافق فيها قوى الإنتاج مع مرحلة من مراحل التطور الرأسمالى ونمط الإنتاج الثقافى:

بعد ١٨٤٨: الآلات وتوليد الطاقة بالبخار/ رأسمالية السوق/ الواقعية.

من ١٨٩٠: المحركات الكهربائية ومحركات الاحتراق/ رأسمالية احتكارية/ الحداثة.

من ١٩٤٠: الأجهزة الإلكترونية والأجهزة المدارة بالطاقة النووية/ الرأسمالية المتعددة القوميات/ ما بعد الحداثة.

وياستنصاع الأشكال القديمة فإن النمط المعاصر امتد لى يشمل جميع جوانب الحياة إلى درجة أن "الإنتاج الجمالى أضفى اليوم مندمجاً فى الإنتاج السعلى بوجه عام" (ما بعد الحداثة، أو المنطق الثقافى للرأسمالية فى مرحلتها الأخيرة ١٩٩١) ويوضح عرض جيمسون لما بعد الحداثة ما يعتبر النتائج الثقافية لهذا المنطق.

لقد سبق لمارتن هيدجر أن كتب مفحماً إزاء لوحة جوخ "زوج من الأحذية" (١٨٨٧)، والتقط جيمسون هذه الحجة بحماس: فالصورة تكشف حقيقة أحذية الفلاحين وكيف أنها تنتمي إلى عالم العمل والأرض. ويقابلها بصورة Andy Warhal عن أحذية البلاط المسماة Diamond Dust Shoes التي أنتجها فنان بدأ حياته رساماً تجارياً، التي تتواطأ سلبياً، في زعمه، مع النزعة الاستهلاكية التي تصفها. والنتيجة، في أحوال ما بعد الحداثة، فقدان الإحساس بالواقع وبالتالي بروز "نوع جديد من التسطيح، واللامعق، نوع جديد من السطحية بالمعنى الحرفي التام".

إن هذا المحور للواقع من خلال "تحويل الأشياء إلى سلع" له تشعباته عبر الثقافة بأسرها ولا يقتصر على التصوير والرسم والفن المعماري والتنظيم المتصور للحيز والفضاء، بل يشمل أيضاً السينما والرواية والشعر، والنظرية نفسها في واقع الأمر. ويفضي فقدان الواقع التاريخي فيما أصبح يسمى حالياً "مجال التغير الأسلوبى والاستطردائى" نون معيار "إلى إحلال المعارضة محل المحاكاة التهكمية"^(٥).

وبينما كانت المحاكاة التهكمية (الباروديا) تقوم في السابق على أساس تقليد أسلوب آخر بقصد السخرية والتهكم اللاذع (الهجاء) أو على الأقل إصدار حكم عليه، فإن "المعارضة" الحالية تنتج معالم شكلية من أجل الاستمتاع بالاستشهاد بها، في نوع من ممارسة "السخرية الخالية من المعنى". ويتزايد تمثيل الماضي في تجاهله للخصوصية التاريخية ولا يقدم سوى مجرد إحساس ماضوى بالماضى.

ويرى جيمسون أن فقدان الواقع يؤدي إلى اختزال الاستقلال التقليدي للنفس، ما دامت الذات الفردية لم تعد قادرة مع نزعة ما بعد الحداثة على أن تتبين موقعها في مواجهة موضوع خارجي يعول عليه. وإن قصيدة Bob Perelman المسماة "الصين" تكشف بشكل نموذجي عن نمط بناء الجملة وتركيبها غير الكامل جذريا، حيث يتبين

(٥) المعارضة Postiche: محاكاة الأثر الأدبي السابق محاكاة بغيقة. أما المحاكاة التهكمية "Parody" فهي إعادة أداء عمل فني أو أدبي جاد بطريقة ساخرة مثيرة للضحك والدعابة مع مراعاة خصائص الأسلوب الأصلي (راجع د. مجدى وهبة. معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان). (المترجم)

جيمسون فيما وراء ذلك نوعاً من "التشظى الفصامى" (الشيزوفرينى). كما أن فندق Bonarentura فى لوس أنجلوس لا يوفر أى فضاء يمكن للذات أن تعزز فيه حريتها واستقلالها، إذ يطمح إلى أن يكون "فضاءً شاملاً" دون مداخل ومغطى بغلاف خارجى زجاجى يصد ويعكس المدينة فى الخارج، ولا توجد حتى أى مساحة تستطيع أن تقرّر المشى فيها لأن "آلة انتقال" هى التى تحدد انتقالك. إن اغتراب (استلاب) الذات، الذى فرضته نزعة الحداثة (راجع لوحة بيكاسو السابقة) إزاحة فى ثقافة ما بعد الحداثة "تشظى الذات"، ولا توجد عاطفة ولا عمق، لأنه "لم تعد هناك نفس حاضرة لتمارس الشعور".

ومجمل القول إذن، إن شمولية النزعة الاستهلاكية والتحويل إلى سلعة التى تتناسب مع التنوع متعدد القوميات، بما يستأصل أى إدراك للواقع ووعى به لصالح "المعارضة" Pastiche وتكرار نقل النسخ، أثمرت "اختفاء الذات الفردية". وما يبدو مفقوداً حالياً هو أى بعد نقدى للثقافة والتكوين الاجتماعى، الذى قد يتيح القيام بعمل جماعى من أجل التغيير، ويتمثل الخوف فى أننا قد نفوص ونصبح غرقى حالماً تزايد أبدأ صعوبة تصوير الحاضر وعرضه على أنفسنا.

وبالإضافة إلى الأمثلة الكثيرة المتألقة التى قدمها جيمسون فقد استمد معظم توصيفه من عرض بودريار (وبدرجة أقل من ليوتار)، لكنه أضفى عليه تفسيراً مختلفاً جذرياً. وعلى الرغم من أن مدى وحيوية نظريته يجعلانها ذات دلالات موحية للغاية، جملة وتفصيلاً، فإن نظرية ما بعد الحداثة التى يقدمها لا يصعب استجوابها وطرح الأسئلة عليها. وبوصفها نظرية عامة فمن المؤكد أن مصيرها رهن بـ"القوة المنتجة" التى تعترف الماركسية بأنها الأساس الذى تقوم عليه. وقد يلوح من غير الممكن، بعد كل هذه السنوات من الثقافة الإنسانية لمجتمع ما، أن يتطور وينمو ولم تعد توجد فيه نوات فاعلة، ولذلك فإن تأكيد جيمسون هو ببساطة محصلة خيار مشكوك فيه: إما الذات الكاملة أو لا ذات على الإطلاق. وهل نحتاج إلى الإحساس بالشمول لكى ندخل تقييماً نقدياً ومقاوماً؟ أو هل نستطيع تدبر الأمر بما هو أقل من ذلك؟ وكـ

من التحليل يتناسب مع الولايات المتحدة أكثر من أى مكان آخر؟ (وهل كان فى استطاعة جيمسون أن يكتب كما فعل عن ديزنى لاند باريس؟) ومع ذلك فإن جيمسون يعد أبرز نقاد ما بعد الحداثة.

ما بعد الحداثة والواقع: نوريس Norris وإيجلتون Eagleton

كما قد يتوقع المرء من ثقافة تعد فيها التجريبية واستحواذ الواقع وسيطرته قديمى العهد وعميقى الغور فإن الاستجابات البريطانية لما بعد الحداثة قد كانت غير متعاطفة على نسق واحد تقريباً. وقد نشر كريستوفر نوريس كتابين ينتقدها:

(١٩٩٠) What's Wrong with Postmodernism?

(١٩٩٢) The Truth about Postmodernism,

ونشر Ales callinicos وتيرى إيجلتون كل منهما كتاباً.

وفى إحدى مقالات الكتاب الأول المعنونة بـ Lost in the Funhouse اختار نوريس أن يحمل على بودريار لأنه دفع طريقته فى الكتابة إلى أبعد مدى يمكن أن تصل إليه، متلاعباً عن قصد بالبلاغة باعتبارها سلاحاً موجهاً ضد خصوم عقيدة ما بعد الحداثة. ويهاجم بودريار بدءاً؛ لتراجعه عن العقلانية ولاستنباطه "نتائج بعيدة المدى من دلائل محدودة" وتجاهله "الأمارات" (*) التى قد تعقد تشخيصه، وكذلك "عاداته فى القفز باطراد من لعبة لغوية إلى أخرى". غير أن الدافع الأساسى لخصومة نوريس هو إصرار بودريار على أنه فى وضع ما بعد الحداثة، حيث تتسم العلامات بالكثرة والتعدد، لم يعد ممكناً "تمييز الحقيقة truth" أو شتى بدائلها وما ينبو عنها - "العلم" أو "الواقع" أو "الموضوعية" أو "القيمة الاستعمالية" أو "الحاجة" أو ما إلى ذلك- عن

(*) راجع: د. محمد عنانى: المصطلحات الأدبية الحديثة (ص ٩٨) لتوضيح المعانى المختلفة التى ينطوى عليها مصطلح "العلامة" فى نطاق دراسات ما بعد الحداثة المختلفة. (المترجم)

التمثيلات الأيديولوجية التي تطالب على نحو عام وشائع بهذا اللقب". وفى مقابل هذا يطرح نوريس عدة حجج، تشير إحداها إلى مقطع من كتاب بودريار *The Masses* يجرى فيه مقابلة بين الحقيقة والزيف.

بيد أن نوريس يشعر أن هذا التسجيل للنقاط غير كاف، مستطرداً فى اقتراح ما يلى على نحو مختلف:

١- إن إستراتيجية الإقناع عند بودريار لا يمكنها فى حد ذاتها أن تغفل من التعارض بين الحقيقة/ الزيف ما دام لا أحد يصدقه، أى تقبل عرضه لما يشبه العالم الحديث، ما لم يستطع الادعاء بصحته ويأمنه على بيئة من ذلك. ومن ثم يغدو عرضه للوقوع تحت وطأة الحجة الصارعة التي استخدمت فى مواجهة مذهب النسبية منذ زمن أفلاطون ويوجزها نوريس بقوله: "إذا أفلح فى تفويض كل احتكام إلى الحقيقة... فلا يمكن إذن أن يوجد أى أساس لاعتباره على صواب... وإذا لم يوفق... فإنه يحق لنا أيضاً أن نرفض دعواه".

٢- تتجه الكتابات الحديثة فى الفلسفة (يذكر نوريس هيلارى بوتنام - Hilary Putnam وبنالد ديفيدسون - Davidson Donald) إلى إظهار أنه بدلاً من كون الأمر يتعلق بأن لغة معينة أو "خطة مفهومية" تقوم بتشفير إدراكها للحقيقة فإن إسناد المقدرة على الإحالة إلى الواقع إلى لغة ما هو بالفعل "شرط مسبق لمعرفة أى لغة".

٣- وكما زعم يورجن هابرماس Habermas «إن قضايا الحقيقة والعقل السليم يثيرها على نحو لا مفر منه أى خطاب يطرح نفسه من أجل نيل تقدير جاد على نمط التعقيب التشخيصى»، ويقول آخر فإنه يتعين على بودريار أن يستخدم حجة عقلانية ودليلاً مناسباً إذا كان ينبغي إقامة وزن لما يقوله (ومن الجلى أن وجهة نظر نوريس هى أنه ليس كذلك، ولن يكون على هذا النحو ما دام قد بدأ مقالته بأن يحثنا على أن نتغاضى عن بودريار).

إن نوريس تواق لتوديع بودريار وما بعدالحدث، لأنه على حد قوله، إن المقدرة فقط

على معرفة الحقيقة مما يعمل على إبراز التعارض الفعلي بين المعرفة والأيدولوجية هو الذى يجعل ممكناً القيام بنقد سياسى يرمى إلى تحويل الموقف ذاته الذى يصفه كاتب مثل بودريار على نحو معبر تماماً (ومثيراً للمقت، يضيف نوريس).

وفى The Illusions of Posmodernism (١٩٩٦) فإن تيرى إيجلتون، الذى من منظور اشتراكى بوجه عام، يتخذ اتجاهأ أقوى من نوريس عندما يرى أن ما بعد الحداثة، بكل ما تنطوى عليه من نزعة استهلاكية بالغة القوة ونزعتها النسبية والاحتفاء بالتعددية، هى بالذات ما يمكن أن يتوقع المرء بروزه فى وقت كُت فيه مؤقتاً الحركات السياسية الجماهيرية عن النشاط. وما يضيفه عمله إلى الحجج المناهضة لما بعد الحداثة هو رفض الاتجاه إلى الجزم والتعبير عن أراء قطعية على أساس بعض المعارضات الزائفة.

على الرغم من كل حديث نظرية ما بعد الحداثة عن الاختلاف والتعددية والتغاير فإنها كثيراً ما تعمل فى نطاق تعارضات ثنائية متحجرة تماماً، إذ يصطف "الاختلاف" و"التعددية" وما إلى ذلك من مصطلحات مرتبة وعلى نحو بديع على أحد جانبي السياج النظرى بوصفها إيجابية بما لا يحتمل اللبس، ومهما تكن نقائضها (الوحدة، الهوية، الشمولية، الكونية) فإنه يجرى صفها على نحو مهلك فى الجانب الآخر.

لقد أحسن إيجلتون القول متابعاً نوع النقد الذى يكشف عنه هذا، بزعمه مثلاً أن النزعة الثقافية Culturation^(٥) شكل من أشكال الاختزالية reductionism مثل النزعة البيولوجية Biologism، رافضاً بذلك وجود تعارض بين الرأى القائل إنه ما دام الواقع الجسمانى يجرى تفسيره عبر الخطاب فإن الجسم يتكون فقط من الخطاب من ناحية، ومن ناحية أخرى من الاعتقاد البسيط بأن السلوك الإنسانى يحدده

(٥) نظرية أنثربولوجية انتشرت بصفة خاصة فى الولايات المتحدة مؤكدة أولوية الثقافة فى تحديد سلوك النظم الاجتماعية، وتهتم - فى عملية تحليل وتفسير أنماط السلوك - بنظام القيم وأشكال التمثيل ونظام الرموز وما إلى ذلك. (المترجم)

أساساً الجسم. وبحيلة تفكيكية مماثلة يرفض وجود تعارض بين التركيب الاجتماعي والفعاليات الحرة، وبين مناهضة مذهب الجوهرية ومذهب الجوهرية نفسه^(*)، ويواصل تأكيد أنه لا يمكن أن يوجد اختيار ساذج بين «التاريخ بوصفه حكاية مصاغة ومشكلة والتاريخ باعتباره هيولى chaos [المادة اللامتشكلة المفترض أنها سبقت وجود الكون - المترجم] غنية بالألوان ونافضة بالحياة أو (وضع علامة استفهام أساسية في مواجهة ليوتار) وبين الرأي القائل بوجود إما رواية شارحة metanarrative [رواية تتحدث عن نفسها وعن أساليبها السردية - المترجم] وحيدة وإما العديد من الروايات السردية الصغيرة. ومداخلة إيجلتون جادة ولانعة وهزلية في أحيان كثيرة، وإن كان في هذا الكتيب النزالي من غير الواضح بدقة أى نصير لما بعد الحداثة تحت هراوته في أى فترة ما.

دريدا وما بعد الحداثة

ما دام ليوتار يؤكد أنه ما زال من المتاح عدم التصور المعرفى الذى يجد أساساً له فى الحقيقة، فإنه يواجه نوعاً من الارتباك فى إثبات أن روايته للواقع (عدم وجود الروايات "السرديات" الكبرى، إنما يوجد فقط التبرير غير المنطقى أو الاستدلال الزائف Paralogy) صائبة. ولا يصادف جيمسون مثل هذه الصعوبة فى استنكار ثقافة ما بعد الحداثة ما دام يجد أساساً فى حقيقة المادية التاريخية (أو عدم حقيقتها)، كما يتمسك نوريس وإيجلتون بأساس يعولان عليه فى انتقاد ما بعد الحداثة.

وفى الختام، قد يكون من المفيد الإشارة إلى كتابات جاك دريدا؛ لمعرفة رأيه فى هذه القضايا. بما أن العمل التفكيكى الذى بدأه دريدا لنقض وزعزعة التعارض

(*) تقديم الماهية أو الجوهر على الوجود (نقيض الوجودية)؛ بمعنى وجود صفات جوهرية فى كل ما يدرس، وهى واضحة وضوح البديهيات، وأن السياق ليست له أهمية كبيرة. (راجع د. محمد عنانى). (المترجم)

التثنائي الذي ينشد الحفاظ على معنى "الحضور" وما دام "الحضور" (*) بوجه عام قد جرى الشعور به كآثر ضروري في إدراك الحقيقة، فإن دريدا يعتبر على نطاق واسع فيلسوف ما بعد الحداثة (ولهذا انتقده بشدة كاليينيكوس Callinicos في كتابه Against Post Modernism، ١٩٩٠). ومع ذلك، فإن موقف دريدا إزاء ثلاث قضايا حاسمة- فيما يتعلق بالواقع وطبيعة العقل وإمكان النقد السياسي - يبعث على الاطمئنان على نحو مدهل.

دريدا والواقع

لقد اشتهر دريدا في ارتباطه بالزعم الذي سجله في كتابه «عن علم الكتابة» of Grammatology «لا شيء خارج النص» *il n'y a pas de hors-texte* ، وهو شعار كان يمكن لبودريار أن يفتخر بصياغته. ومع ذلك تصعب معرفة ماذا يمكن أن يشبه عالماً إنسانياً لا توجد فيه سوى نصوص، وأن العلامة *Sign* لا علاقة لها البتة بأى شيء فيما عداها. غير أنه لا يتعين علينا حتى إمعان النظر في هذا؛ لأنه إذا تمت قراءة دريدا بتدقيق، كما تلاحظ بالفعل دومنيك لاكابرا Dominick La Capra في *Sounding In Critical Theory* (١٩٨٩) يتضح أن نظريته هي أنه لا يوجد شيء داخل النص كذلك.

داخل/ خارج النص: كيف يمكن للمرء أن يقرر بصفة جوهرية أين ينتهي النص ويبدأ الواقع؟ كيف يستطيع المرء أن يشغل منصباً بحيث يكون في وسعه أن يؤكد انطلاقاً منه في الختام ما هو "نص" وما هو "واقع" (إن الله وحده هو القادر على ذلك). إن الحجة المتعلقة بالمعرفة لا يتعين عليها بالضرورة أن تصعد السلم المتحرك؛ حيث يظن ليوتار أنه السبيل الوحيد إلى الحقيقة بسؤاله، "ما الدليل على أن دليلى حقيقي؟" النص والواقع، ما هو داخل النص وما هو خارجه، يصلان معاً، صفقة شاملة.

(*) يعنى الحضور "Presence" التسليم بوجود النظام خارج نطاق اللغة وإطار عملها بحيث يبرر ما تدعيه من الإحالة إلى الحقائق أو الحقيقة. (د. محمد عناني، مرجع سابق). (المترجم)

دريدا والعقل

إن نوريس نفسه الذى يدين بودريار يوافق على ما يشغل دريدا بوضعه العقل موضع تساؤل، إذ يحاول (وفقاً لكلماته فى دراسته عن دريدا، ١٩٨٧) "أن يتطلب مبرراً لكون الآن معقولاً نفسه" أو بالأحرى فإن دريدا ، كما يوجز نوريس "يعتبر المعقولة فى أشكالها الراهنة (تكنولوجية وغيرها) تكويناً تاريخياً محدداً للغاية لا يمكن أن يلجأ إلى نوع ما من المبرر النهائى". ويهذا القول فإن استعراض نوريس بأكمله يبين (وربما حتى بشطط) أن دريدا يمارس المعقولة فى كتاباته، وأن حججه تستحضر دوماً العقل بكونها متماسكة المعانى ومتسقة وتفصيلية على نحو ملائم. ومن هذا العرض يتضح أن العقل لا يحتاج إلى "مبرر نهائى" فى الواقع لكى تكون له فعاليتها المتوارثة باعتباره خطاباً عقلانياً.

دريدا وفوكوياما

فى ١٩٩٢ نشر فرانسيس فوكوياما كتاباً بعنوان ما بعد حداشى من The End of History and the Last Man وتضمن رسالة ما بعد حداشية مجلطة بأن الديمقراطية الليبرالية والرأسمالية الاستهلاكية عما قريب سوف تستوليان فى نهاية الأمر على العالم قاطبة. وبذلك تستكملان التاريخ الإنسانى وتودعان الوداع الأخير مطالب أى نقد اشتراكى أو راديكالى للنظام الرأسمالى. ولم يجد دريدا مشقة كبيرة، أولاً (فى كتابه Specters of Marx، ١٩٩٤) فى إظهار العدد الضخم من الثغرات وجوانب الإغفال فى رواية فوكوياما لـ"الأخبار السارة" فلا تسير جميع الدول صوب الديمقراطية الليبرالية بشكل حتمى فى رقة ودمائة كما يفترض فوكوياما. فالسوق الحرة لا تنتج بالضرورة حرية سياسية (إى نعم "حربان عالميتان" وأهوال النظام الشمولى). ثانياً إن دريدا يؤكد أن نعمة فوكوياما الإنجيلية تستحضر بدقة "الإيمان المسيحى بالآخرة" وأنه ينزلق باستمرار فيما بين الواقع الفعلى ومثال أعلى، وأنه يفترض نوعاً من التعريف الشامل للطبيعة الإنسانية (الإنسان بصفته إنساناً).

وخلال هذا التقدير المدمر لفوكوياما لم يظهر دريدا أى تحفظ البتة فى شأن التماس الدلائل الواقعية أو دعم قوله بحجة عقلانية، ولم يشعر بأنه غير مؤهل لتأكيد بدائل سياسية إيجابية لنزعة انتصار المشروع الحر لفوكوياما. ويمكن لنا أن نخلص من مثال دريدا إلى ما يلى: إما أنه لا ينتمى إلى ما بعد الحداثة فعلاً وحقاً، وإما أن ما بعد الحداثة ليست تماماً القوة المعاصرة التى لا تقاوم، كما قال بعض أنصارها ونقادها.

الفصل الثالث

ما بعد الحداثة والسياسة

إيان هاميلتون جرانت Iain Hamilton Grant

منذ أن أصابت ما بعد الحداثة كشك بيع الصحف الثقافية جرى دونما انقطاع استجوابها فيما يتصل بمفهومها السياسى. ومع ما قدمته من أفكار عن "جواز تعددية أى شيء" والاحتفاء الجنونى بـ"الاختلاف"، ومع الواقع "الذى لم يعد كما كان عليه من قبل" وفقاً لما قاله بودريار- الذى يعدّه كثيرون "الكاهن الأعظم لما بعد الحداثة"- فما الأساس الذى يتبقى لنهج سياسة ضرورية لمواجهة المظالم البادية والواسعة الانتشار التى ما زالت قائمة فى عالم ما بعد الحداثة الذى نعيش فيه؟ ومن المؤكد أن أى احتمال للتصدى للعنصرية المتوطنة أو أهوال الوحدات العسكرية الصناعية الترفيهية المركبة أو الآلة الأمريكية ذات القدرة الجبارة على القتل فى حرب الخليج ذات البواعث الاقتصادية الجلية أو الاضطهاد الدينى والسياسى أو الدبابات الصينية التى سحقت أجساد الطلبة المحتجين... تكف عنه مقدماً أى حركة تنبذ- مثل نزعة ما بعد الحداثة- المثل العليا الحديثة للحرية والمساواة والحقوق العالمية الشاملة، دون اقتراح أى بدائل.

وتعد "السياسة ذات النزعة ما بعد الحداثيّة"، من نواح كثيرة مشكلة مميزة لتاريخ نزعة ما بعد الحداثة فى العالم الناطق باللغة الإنجليزية، حيث برز هذا المصطلح أول ما برز فى عالم الفن والمعمار. وحالما وصلت ما بعد الحداثة إلى "كتلة حرجة"

ما، أضحى من المتعذر على الاهتمامات الأكاديمية مقاومتها، وتحول المسار الذى اتخذته آنذاك من الفنون إلى السياسة والفلسفة، وبزغ من ذلك شيء عرف على نحو فضفاض باسم "نظرية ما بعد الحداثة". وتكاد شتى العناصر التى انبعثت منها المكونات النظرية لما بعد الحداثة تكون مقصورة، على أية حال، على شذرات من الفلسفة الفرنسية. وتعد إلى حد ما نتيجة لهذا التأمل أو "التجارة الحرة" فى نظريات انفصلت عن سياقاتها التاريخية والسياسية والفلسفية، إلى درجة أن مسألة السياسة ما بعد الحداثية بدت مستعدة إلى حد ما لاستضافة مدى لا نهائى بكل وضوح من المناقشات والمجادلات.

ومن ثم فإنه يمكن طرح سؤالين، أولهما: ما تأثير نزعة ما بعد الحداثة على السياسة فيما يسميه ريتشارد رورتى Richard Rorty الجماعة البورجوازية لشمال الأطلسي؟ ثانيهما: ما السياسات التى تستوحى الفلسفة المستوردة من فرنسا إلى هذه الجماعة متخذة مظهر نظرية ما بعد الحداثة؟ إن إجابة هذين السؤالين ترتبط تماماً بأحد فلاسفة القارة النادرين للغاية الذين تناولوا مباشرة نزعة ما بعد الحداثة. إن كتاب جان فرانسوا ليوتار "أحوال ما بعد الحداثة" يبرز بغتة فى كل مناقشة فعلية تتناول أى جانب من هذه المجادلات، لدرجة أن التبسيطات القصوى التى أدلى بها اكتسبت طابعاً نهائياً بوصفها من مكونات ما بعد الحداثة. ويستحضر هذا النص تاريخاً بأسره وسياسة كاملة، وهو نص جرى نسخه بوجه عام وتكراره لدى جميع المنظرين الأوروبيين الذى يقدمون الأصول المتعلقة بنظرية ما بعد الحداثة.

بيد أنه قبل التعرض مباشرة لهذا التاريخ من الضرورى- بالنظر إلى المصادقية البالغة التى يحظى بها نص ليوتار- النظر فى بعض جوانبه الأساسية إلى جانب ردود الأفعال النقدية عليها. وبينما قد يبدو أن هذا يحد بقدر بالغ من النطاق الكامل للإسهامات المتعلقة بموضوع السياسة ما بعد الحداثية، فإنه سوف يدخلنا فى قلب معظم المناقشات الأساسية فى هذا المجال. ومن "التبسيطات القصوى" التى يعلنها كتاب "أحوال ما بعد الحداثة" ربما كان أعظمها تأثيراً يتعلق بوضعية ما يسميه Meta أو grand narratives وبينما اضطلعت grand narratives - مثل رواية "التنوير"

للتقدم اللانهائى فى مجال المعرفة والحرية أو رواية الماركسية^١ للانعقاد التدريجى للإنسانية العاملة من الأغلال التى قيدتها بها الرأسمالية الصناعية- بدور حاسم فى ربط المعرفة والسياسة بالحدائث ربطاً محكمًا، فإن ما بعد الحدائث أحدثت أزمة ثقة فيهما، وأحد أسباب هذه الأزمة هو نهوض الفلسفة النقدية الذى بدأ، وعلى نحو سائر، مع التنوير. وبينما قصد بها كانط Kant الذى وضع مبادئ الفلسفة النقدية فى نهاية القرن الثامن عشر، تزويد العقل الإنسانى بالوسائل التى تمكنه من الحكم الذاتى، بدلاً من الاعتماد على حكم قدسى ما أو ظواهر أخرى غير معلومة، وتعين على العقل أن يخضع للنقل لى يعرف نفسه وحدوده. بيد أنه مع نهاية القرن التاسع عشر انصب النقد على المكاسب التى حققها التنوير بشق الأنفس، وذلك مع إعلان نيتشه "موت الإله" وأن الحقيقة والأخلاق والمعرفة ما هى إلا مجرد أوهام. كما عمل ماركس على إضعاف صرح التنوير، زاعماً أن سياسته تركزت على المثل العليا للتقدم على حساب التقدم الحقيقى فى الأمور ذات الصلة بالحرية الإنسانية، وأن هذه المثالية قد جاءت انعكاساً مركباً للمثل العليا للطبقات الحاكمة. ومع ذلك فإن الماركسية لم تحقق بعد، فى نهاية القرن العشرين، الحرية التى وعدت بها، بل أنتجت بدلاً من ذلك مجموعة من الأمور الشاذة غير العادية مثل سحق الاحتجاج الشعبى الموجه ضد الحكم السوفيتى فى بودابست فى ١٩٥٦ والأهوال الدموية لجولاك Gulag ستالين.

وبناء على ذلك فإن الصراع التدريجى بين هذه السرديات narratives أضعفها جميعاً، ولذلك يبدو أنه لا يوجد فى نهاية القرن العشرين مرشح لى يخلفها ويتولى جمع معارفنا كلها وأفعالنا وربطها فى خطة تاريخية متماسكة إلى حد ما. وكل ما ترك عبارة عن ميدان أو مجال تتناثر فيه الشذرات التى خلفتها هذه النظريات الكبرى فى حالة تنافس مع بعضها بعضاً ومع منافسين جدد. بيد أن هذا الميدان تحكمه تحالفات جديدة بين التكنولوجيا والرأسمالية، مما يشكل ما أطلق عليه بعض المنظرين اسم مجتمع ما بعد الصناعة. لكن ما القصة الكبرى التى على الرأسمالية أن ترويها؟ وبينما اعتادت أن تروى حكاية التنوير عن أن الحرية المتزايدة إنما تكفلها

على نحو أفضل رأسمالية السوق الحرة التى تعظم فرص الاختيار إلى أقصى حد ممكن، وتقلل إلى أدنى حد تدخل الدولة فى حيوات الأفراد ومجرى حياتهم المهنية، وفى ظل التحالف مع التكنولوجيا فإن الفعالية المكتسبة، مثلاً من استخدام الكمبيوتر، تنسجم مع الدافع إلى الربح بحيث يصبح "الحد الأدنى الداخلى، والحد الأقصى الخارج" هما القاعدة الوحيدة التى تحكم الاهتمامات التجارية والاجتماعية والسياسية على قدم المساواة. وفضلاً عن هذا، وكقاعدة، فإن تبريرها الخاص هو: عندما يتحقق الربح فإن الفعالية تكتسب، وتغدو القاعدة مبررة، مما يقطع الطريق على الالتجاء إلى السرديات narratives الكبرى لإضفاء المشروعية عليها. والحق أن الجانب الآخر لهذه العملة هو أن الحكومات وغيرها من الهيئات المنظمة تضل الطريق إذا افترضت أنها تستطيع السيطرة، عن طريق فرض غايات سياسية، على "حرية" تحركات رأس المال عبر الحدود الوطنية، ولم تعد الحكومات وسياساتها الاقتصادية ترى حكايات تؤثر فى التحركات الفعلية للأموال، ولنفكر ملياً فى الشكاوى غير الملائمة التى أطلقتها حكومة المملكة المتحدة إبان "الأربعاء الأسود" وغير ذلك من النوبات الحديثة للمضاربة فى العملات على النطاق العالمى.

وعلى الرغم من أن "الرأسمالية فى مرحلتها الأخيرة" - باستخدام عبارة المنظر السياسى أرنست ماندل، وروجها فردريك جيمسون - لاعب أساسى فى مجتمعات ما بعد الحداثة أو ما بعد الصناعة، كما لاحظ كثير من النقاد والمنظرين، فإن حضورها فى نص ليوتار غالباً ما يتم تجاهله، وكما سنرى لاحقاً فإنه يشير إلى مسار تطورى لنزعة ما بعد الحداثة مختلف للغاية عما افترضه فى الغالب المحققون بالاختلاف ما بعد الحداثى: فأحوال ما بعد الحداثة هى رواية تاريخية لبقاء الأصلح من "الروايات". وبالعودة إذن إلى المسألة الروائية، ومع الرأسمالية المنتصرة فى خاتمة المطاف فى صراع "الروايات"، فإنه لم تتبق قصة وحيدة لكى توحد الأشياء، وهناك قصص كثيرة تروى مثلما هناك جماعات ترويها، بيد أنه ليس لأى منها أى أولوية ثقافية أو تاريخية أو فلسفية أو سياسية على غيرها. وإنه فى هذا المجال تجد سياسة ما بعد الحداثة

نفسها بتوافق الجميع، ويقال إنه بينما وجدت الوحدة من قبل فإنه لا يوجد الآن غير "الاختلافات". وبينما جرى الأمر على تسخير الإرادة السياسية لشعب ما أو أمة أو ثقافة لنيل أهداف عامة طويلة الأجل، فإن الجماعات المتشظية حالياً تتغمس فى نضالات قصيرة الأجل، ويعد انتشار سياسة الهوية عبر الأعوام العشرين الأخيرة خير دليل على ذلك، بتأكيدهما على الإثنية والطبقة والنوع والمظاهر الجنسية بما يحل محل العقيدة السياسية.

ويرى معتقو هذه الأمور أن الاحتفاء باختلافات مثل هذه الجماعات والهويات يتيح تطوير سياسة ما لم تعد تحتاج - كما فعل مثاليو "الإرادة العامة" للشعب أو المثل الأعلى السياسى للثورة الثقافية - إلى إخضاع أعضائهما لمصالح عقيدة أرثوذكسية وبدلاً من ذلك فإنه يمكن أن تبرز تحالفات سياسية محدودة النطاق لا يمكن التنبؤ بها، تحرص على مراعاة الاختلافات بين الجماعات المكونة لها، وهكذا قد يجد الماركسيون وأنصار الحركة النسائية والخضر والشواذ جنسيا أنفسهم معاً فى ائتلاف رخو فضفاض يختص بقضية واحدة، غير أنهم قد يجدون أنفسهم أيضاً فى خلاف مع قضية أخرى. وفضلاً عن هذا، ومع الثورة التى تتجاوز أجندة المستقبل المنظور يحظى الفعل المباشر والقضايا ذات الركيزة السياسية بأهمية واقعية وأكثر إلحاحاً. المعارضون يشيرون إلى نوعين من النقص والخلل فى هذه النظرة للأحوال السياسية لما بعد الحداثة. أولهما هو: كيف تستطيع ثقافة ما تنظيم نفسها من حول أيديولوجية "أى شىء جائز" ذات الطابع الليبرالى- التعددى دون وجود عضلة سياسية تقويها وتدعمها فى مواجهة أولئك الذين- ويكل بساطة- يختلفون تماماً عنا، والذين يعتبرون الليبرالية الغربية بعامه، والمجتمع البرجوازى شمال الأطلنطى بخاصة، قد أصابه الوهن المرضى وضلت خطاه؟ ولنتأمل، مثلاً، شتى النزعات الأصولية النشطة فى العالم المعاصر، وكيف يستجيب المجتمع البرجوازى لشمال الأطلنطى عندما تنتهك حقوقه الأساسية، كما حدث عندما أصدر آية الله فتوى ضد مؤلف اتهم بالتجديف والكفر؟ وإذا ما تصرف هذا المجتمع على أساس مبادئه الليبرالية الديمقراطية واستمر محتفياً بالاختلاف فكيف الاعتراض على حكم الموت؟

وتستدعى تلك السيناريوهات التمسك بالتزام أساسى لتنفيذ بعض القوانين والحقوق فى مواجهة أولئك المختلفين لدرجة أنهم ينكرون قيمة الاختلاف. والثانى: فإن تركيز جل الاهتمام على القضايا ذات الطابع السياسى الضيق والمحدود micropoliti- cal أو السياسة قصيرة الأجل، ذات القضية الوحيدة، فإن البنى والهياكل السياسية البعيدة المدى، الواقعية بالفعل التى تتحكم فى الحياة اليومية يجرى التغاضى عنها وتترك دون تنفيذ للعن، الذى يحولها بكل بساطة إلى تأييد مقنع للوضع الراهن أو إلى تواطؤ فعلى معه.

وفى الوقت نفسه، وبطبيعة الحال، فإن أبطال الاختلاف فى وسعهم التنويه إلى ماض متصدع ساهد عدم التسامح وقمع غالبية سكان العالم من قبل حفنة ضئيلة من الأفراد البيض الذكور من شمال الأطلنطى نوى ثقافة عالية وأقوياء اقتصادياً. وبدلاً من الاحتفاء بالاختلاف فإن هذا النظام طبق برنامجاً ضخماً للاستعمار والحرمان من الحقوق السياسية والقمع المطلق. ويتيح عالم الاختلافات ما بعد الحدائى إمكانيات للمقهورين لكى يجدوا نصيراً يدعمهم فى النضال ضد القمع. بيد أنه يتبدى هنا فى المقدمة جانب آخر من ما بعد الحدائى، وتاماً مثل الأمة فإن الشعوب أو الأحزاب مقضى على تطلعاتها الشاملة وكذلك فإن المثل الأعلى للذات المتماسكة والمتكاملة، مثل تلك التى يعد بها التحليل النفسى، يصبح موضع شك واشتباه. ومرة أخرى فتلك مشكلة بدأها فى الأصل كانط Kant ، الذى أوجد هوة لا يمكن عبورها بين الذات التى يمكن معرفتها والذات العارفة، وهى ثغرة يجرى سدّها مؤقتاً فقط بقدرتنا على استعمال كلمة "أنا". وشرع نيتشه، متشبهاً بالأساس النحوى لموضوع كانط، فى انتقاد الاعتقاد بوجود ذات متماسكة ومتكاملة بوصفه ثمرة إيمان فى غير موضعه بالقواعد النحوية. وقد جاء فرويد ليتسبب فى إخفاق هذه الفكرة عن طريق استرعاء الانتباه إلى الصراعات بين جوانب النفس، محدداً موضع مختلف أجزاء "شخصياتنا النفسية"، والكتلة اللاواعية التى تظل غير متاحة لنا بصفة دائمة، وهو ما مجّده وأجازته أخيراً ما بعد الحدائى كأنفس متعددة أو انقسامية ، ويلوح أن الاختلاف ما بعد الحدائى يعطى بيد ما يأخذه باليد الأخرى: فلكى يتيح الاختلاف أى طاقات وإمكانات تحررية فلا بد أن ينتهى تاكل النفس بحيث توجد هوية ما يمكن أن تصلح أساساً لسياسة متماثلة موحدة. وقد تم الشعور بحدة بهذه

المعضلات وجرّت مناقشتها بحرارة فى مجالات عديدة، لا سيما الحركة النسائية. ومن جهة ما فإن أنصار ما بعد الحداثة من الحركة النسائية مثل جوديت بتر Judith Butler يزعمون أنه لا توجد هوية جوهرية ولا نفس أساسية ولا مقولة "فئة" أساسية اسمها "المرأة" يمكن أن تصلح لتوحيد أهداف حركة سياسية جماهيرية، وبدلاً من ذلك فإن النفس ونوعها يتحققان فقط من خلال الآراء. بيد أن آخرين يؤيدون الإبقاء على المقولة "الفئة" الأساسية "المرأة"، حيث إنه بدونها ما الغرض الذى يمكن أن تخدمه الحركة النسائية على نحو معقول؟ وإذا صرفنا النظر عن الواقع الأساسى لقمع النساء فإننا نتخلى فى الوقت نفسه عن مسؤولياتنا تجاه المرأة الحقيقية، مما يجعل الحركة النسائية مجرد خدعة أكاديمية.

وبصرف النظر عن التحالف الإشكالى للحركة النسائية مع نظرية ما بعد الحداثة فكيف ينتظم الأنصار الأساسيون فى المناقشات المتعلقة بالسياسة ما بعد الحداثة؟ ولكى يمكن تطوير هذا الجانب الموجز من وضعية ما بعد الحداثة فسوف أستمر فى التركيز على المواقف التى ترتبط برواية ليوتار لما بعد الحداثة، ما دامت أكثرها تأثيراً وما دام قدر مهم قد قيل عن موضوعات هذه المحاولة بأكثر مما أمكن تناوله فى نطاقها. وكما أشير آنفاً فإن نزعة ما بعد الحداثة نتجت عن عصر فكرى فى العالم الناطق بالإنجليزية فى مستهل ثمانينيات القرن العشرين. وتميز مجموعة هال فوستر Hal Foster المسماة "ثقافة ما بعد الحداثة" (١٩٨٣) هذه الفترة الانتقالية خير تمييز. وقد كان عنوانها الأصلى The Anti- Aesthetic غير أن إعادة تسمية هذه المجموعة من المقالات فى ١٩٨٥ التى ضمت كتاباً أكاديميين من الوزن الثقيل، مثل: يورجن هابرماس وإلوارد سعيد وفريدريك جيمسون وجان بودريار، تدل بوضوح على تحول نزعة ما بعد الحداثة فى عالم الفن واتجاهها صوب تناول القضايا الأعم والأوسع نطاقاً. وكان كاتبان قد قاما بغارات مبكرة على هذه الأرض الجديدة التى استمرت تتركز من حولها المناقشات والمجادلات منذ ذلك الحين.

وتشير بوضوح مقالة يورجن هابرماس عن "الحداثة: مشروع لم يكتمل" إلى رفضه لنزعة ما بعد الحداثة. وإذا كانت أى "رواية" من "روايات الحداثة" المتعلقة بالتححرر والاعتناق والتقدم لم تؤت ثمارها وفقاً لما يراه ليوتار وغيره من الفلاسفة

الفرنسيين حديثي العهد، الذين سوف يطلق عليهم هابرماس جميعاً فيما بعد اسم "المحافظين الشباب" فلا يعنى ذلك أنها لن تحقق ذلك أبداً، بل الأحرى أنها لم تتطور تماماً بعد. وإذا شخّص هابرماس المشكلة التي تواجه الحداثة المتأخرة كما يسميها "تنشيط العالم الحى" بفعل التطور الذى شهدته الحداثة، للتجريد والتخصص المتزايدين فى مجالات المعرفة (العلم)، والحياة العلمية (السياسة) والممارسات الفنية فإنه يقترح إعادة تنشيط "المشروع التنويرى" الذى وجه جميع ألوان التقدم صوب النفع الأمثل للجنس البشرى فى مجموعته، ومن ثم فإنه يتعين على مؤيدى هذه الممارسات ذات المنزلة السامية أن يبرزوا هذه التجريدات للعالم الحى.

وتمثل الوسيلة التي يقدر هابرماس أنها تحقق هذا الحدث فى المبادئ التي تحكم "الفعل الاتصالي"، وبما أننى أتحدث إليك فإن ذلك يعنى أننى أوافق ضمناً على أن نتحدث إلى بدورك، وفضلاً عن هذا وما دام الحديث يحل محل، ويعدل الفعل المباشر (لن أتحدث قديماً تماماً وأغير العالم دون التساؤل)، فإننى أوافق ضمناً أيضاً على أن ألتزم بالسعى إلى التوصل إلى اتفاق معك، بدلاً من السعى إلى أن أضرب بأرائك عرض الحائط. ويقول آخر، فإن غرض كل اتصال عقلاني هو التوصل إلى اتفاق على ما ينبغي فعله، ويعدم مراعاة القواعد المتضمنة فى كل فعل اتصالي فإننى أخسر حقى فى المشاركة فى أى حوار. وإن نزعاً ما يعد الحداثة التي تصر على أن هذا المشروع منته، فإنها لا تلتزم ببساطة بقواعد اللعبة، ويكون "الروايات" تشوهت سمعتها ونالها التنشيط لا يعد مبرراً لافتراض أنها تتطلب دوماً أن تكون كذلك. مما يطرح علينا فقط مشكلة علينا أن نبذل جهودنا لإيجاد حل لها.

وفضلاً عن هذا فإن ليوتار الذى ظهر كتابه "أحوال ما بعد الحداثة" فى ١٩٧٩ (وقدمت مقالة هابرماس لأول مرة فى ١٩٨١) فى سرده لرواية كبرى تتعلق بنهاية "الروايات الكبرى" يعرض تناقضاً محورياً فى استعراضه لنزعاً ما بعد الحداثة، فإذا لم تعد توجد أى سداجة فى "الروايات الكبرى" فما هى إذن الأسس التي يمكن أن توجد لتقبل سرد ليوتار؟ وإذا قبلنا هذا السرد بالتالى فلا بد أن يكون -وعلى نحو متناقض إذن- خاطئاً فى شأن وضعية "الروايات الكبرى". وفوق هذا فإن ليوتار، بتقديمه إياه لا بد أن يعتقد هو نفسه أنه يحظى بقدر ما من القابلية للتصديق، لدرجة أنه حتى

ليوتار نفسه يؤمن بأن سرده غير حقيقى.

ومن الطبيعى أن هابرماس بهذه الانتقادات ينزع بالفعل الثقة من تحليل ليوتار المستفيض لكيفية حدوث هذا الوضع بالفعل، وسنعود بعد قليل إلى جذور تشخيص ليوتار لوضعية "الرواية" فى ظل الرأسمالية المنتصرة. وإذا كان ليوتار لا يعتقد فى انهيار "الروايات الكبرى" فبالتالى فإن هابرماس يقر ذلك بوضوح على كل حال، وفيما يتعلق بكل تأكيد "برواية ليوتار. وبالنسبة إلى أنصار ما بعد الحداثة فإن هابرماس لديه إحساس مثالى للغاية بما يحدث فعليا فى مجال الاتصال، ومن المحتم أن الأطراف المعنية تضع جداول أعمال "أجندات" بحيث يمكن الحصول على الموافقة حتى بالتهديد والقمع، أى عن طريق ممارسة القوة.

إن اقتراحات هابرماس لرأب الصدع فى عالم الحياة اليومية الذى نعيش ونعمل فيه جميعاً تتصدع بفعل تأثيرات القوى التى تظل مخدوعة بها، إما الموافقة وإما السكوت. وبالنسبة إلى أنصار ما بعد الحداثة فإن هذا يؤكد فحسب لا شرعية توافق الآراء بوصفه محصلة مثالية، ما دام يُكتسب على حساب قمع المخالفة والاعتراض. ومن ثم فإن الحل الذى قدمه ليوتار لا يتمثل فى عدم قمع، بل بالأحرى تأكيد وحتى تفاقم المخالفة والاعتراض على نحو تجربى، وبدلاً من تقبل المعايير والقواعد المفروضة من أعلى إلى أسفل بفعل ظروف أو مشروع ما، فإن التجريب غير المحدد سوف يخلق قواعد جديدة كلية (وكما سنرى فى "نزعة ما بعد الحداثة والعلم والتكنولوجيا" فإن المعانى الخفية العلمية فى لغة التجربة تعد حاسمة لفهم جوانب نزعة ما بعد الحداثة التى غالباً ما يتم التغاضى عنها).

(*) اشتهرت مدرسة فرانكفورت بنظريتها النقدية، ومن أعلامها هوركيمباينز وإدورفو وماركيز، وقد انتقلت إلى نيويورك إثر صعود النازية، وكان تأثير ماركس وفرويد مهما على كل ما أنتجته. وسعت إلى تحليل أشكال السلطة فى المجتمع الحديث، وفهم مجتمع الجماهير لا سيما فى آثاره الثقافية. وقد استأنفت نشاطها فى ألمانيا عقب الحرب معتبرة أنه ينبغي التفكير فى العالم بعد أوشفينز على نحو مغاير. (المترجم)

وبينما يحتفظ هابرماس- الذى سار على درب مدرسة فرانكفورت^(٥) للبحث الاجتماعى وناسجاً على منوال كرسى أستاذيتها- بقدر من التزام أسلافه تجاه المشروع الماركسى فى موازاة روايته لديمقراطية كانط التنويرية، فهناك خيوط أخرى كثيرة من رد الفعل الماركسى على نزعة ما بعد الحداثة. وامتداداً من فيلكس جاتارى Felix Guattari ورفضه الشيوعى الجديد التام لنزعة ما بعد الحداثة بوصفها ليست فلسفة على الإطلاق... مجرد شيء فى الهواء مثل الشذا والعبير أو ميكروب الأنفلونزا، حتى شانتال موفى Chantal Mouffe وإرنستو لاكلو Ernesto Laclau وما قدماء من هجين بعد ماركس يجمع بين الماركسية وما بعد الحداثة فإن التحليلات الماركسية ربما كانت أكثر الخاسرين من موت "الرواية الكبرى" للعمل الإنسانى المتحرر وتغاضى ما بعد الحداثة عن الظواهر السياسية الواسعة النطاق مثل الاقتصاد أو الثورة. ومن الغريب على الأقل، إذن، أن المنظر والناقد الماركسى ذائع الصيت فردريك جيمسون يبدو إيجابياً إلى حد بعيد فى هذا الصدد. وما يلوح حتى أكثر تناقضاً اشتراكه فى مجموعة كتب فوستر Foster، ويبدو أن كتابه Postmodernism or the Cultural Logic of Late Capitalism (1991) وهو من أضخم الكتب عن ما بعد الحداثة التى كتبت حتى ذلك الحين، إلى جانب كتاب لاكلو وموفى عن Laclau & Mouffe Hegemony and Social Strategy (1985) وهما من أكثر العناوين الماركسية التى يجرى ذكرها بصدد ما بعد الحداثة- يقاومان بعناد الاتجاه الذى يمثلته مجموعة كتب فوستر Foster فى نقلها ما بعد الحداثة من علم الجمال إلى الفلسفة والسياسة، بقدر ما يزالان على نحو حاسم فى نطاق مملكة علم الجمال. بيد أن هذه المفارقة تبدو ظاهرية فقط.

إن عنوان كتاب جيمسون، الذى يشير إلى ما بعد الحداثة بوصفها المنطق الثقافى للرأسمالية فى مرحلتها الأخيرة، يكرر التمييز الماركسى التقليدى بين القاعدة الاقتصادية للمجتمع والبنية الفوقية الثقافية التى تعكس أوضاع هذه القاعدة.

وتعد الفنون والفلسفة من بين ظواهر البنية الفوقية فى مجتمع ما، ومن ثم - كما حدد ماركس فيما يتعلق بالفلسفة - فإن الأفكار السائدة فى المجتمع هى ببساطة أفكار الطبقة الحاكمة. ويعد كتاب جيمسون - بتشديده على أن نزعة ما بعد الحداثة تضرب

بجنورها فى الظواهر الثقافية أو، بقول آخر، يتحدد موقفها فى نطاق ميدان البنية الفوقية- إسهاماً فى المناقشة الممتدة لزمن طويل بصدد المدى الذى يمكن أن تعتبر به الفنون والفلسفة مجرد تعبير بسيط عن التحولات الاقتصادية الأساسية فى القاعدة المجتمعية. ومن ثم فإن "السياسة ما بعد الحداثية" قد تكون تسمية خاطئة، غير أن سياسة الثقافة ما بعد الحداثية يمكن كشفها وتبينها من خلال تحليل المنتج الإنسانى الما بعد الحداثى النظرى والفلسفى والثقافى. إن جيمسون بدلاً من أن يتبنى ببساطة الإستراتيجية المستخدمة كثيراً فى انتقادها لسياستها فإنه يعقد النية على أن يجازف بأنه عن طريق إجراء مثل هذه التحليلات فإن نزعة ما بعد الحداثة تغدو قابلة لى تتناولها النظرية الماركسية وأن تجد مكاناً لها ضمن دوام الديالكتيك الماركسى واستمراريته. ومن ثم يزعم جيمسون، مخالفاً ليوتار، أن عدم تصديق الروايات (السرديات) الكبرى لا يعد موقفاً نهائياً من نزعة ما بعد الحداثة، بل بالأحرى فإن عدم التصديق له جنوره الممتدة فى الظواهر الاقتصادية. وبناء على ذلك فإنه من الموضوعات التى يعود إليها جيمسون باستمرار تلك النوستالجيا السائدة للثقة المفرطة والأمن الاقتصادى لمجتمع أمريكا الشمالية فى خمسينيات القرن العشرين التى تتبدى كثيراً فى الأدب والسينما المعاصرين. ومن ثم فإن انهيار هذه اليوتوبيا الاقتصادية فى ظل حكم الرأسمالية فى مرحلتها الأخيرة هو فى صميم عدم الثقة بـ(السرديات) الروايات السياسية واسعة النطاق مما أثار ما أسماه دانييل بيل Daniel Bell فى ١٩٦٠ "نهاية الأيديولوجيا"، ووجد تعبيره فى كثير من النظريات والفلسفة المعاصرة، لدرجة أن أنصار ما بعد الحداثة تفاخروا بنظريات التشظى التى تحولت لى تغدو تعبيراً عن هذا الوضع أو تحليلاً لهذه التعبيرات.

بيد أن جيمسون لا يظن أن الماركسية فى استطاعتها أن تتجوز من هذه التحولات الاقتصادية والثقافية دون تكييف نظريتها مع البنى الجديدة للقاعدة الاقتصادية التى حققها ما يشير إليه علماء الاجتماع مثل آلان تورين بوصفه "مجتمع ما بعد الصناعة". وبناء على ذلك فإن تحليل ثقافة ما بعد الحداثة يقدم دروساً للماركسية وكذلك التنظير السياسى ما بعد الحداثى، ويادى ذى بدء فإن الفصل التام بين القاعدة الديالكتيكية

والبنية الفوقية لا بد من تعديله لكى تؤخذ بعين الاعتبار الآثار الديالكتيكية للظواهر الثقافية على القاعدة. وفى النهاية يلوح أن الفكرة القائلة إننا نستطيع أن نتناول مباشرة ودون وساطة الواقع الاقتصادى بأن نتفادى بطريقة ما جميع النظريات والفلسفات يلوح أنها فكرة لا يمكن الأخذ بها تماماً مثل أسوأ أنواع المغالاة فى: "الحقائق فقط، يا صاحبة الجلالة: العلمية المفرطة".

ومن الفجوات التى تتبدى فى كتاب جيمسون، والتى يلاحظها صراحة وبأسف شديد، عدم مناقشة روايات الخيال العلمى الحديثة Cyberpunk^(٥) وكما يلاحظ بروك ستيرلنج Bruce Sterling أحد كتاب هذا النوع الأدبى فإن كتابة روايات الخيال العلمى فى عالم اليوم الذى يتسم بطابع تكنولوجياى متقدم تواجه تحدياً جديداً يتمثل فى أن قراء مثل هذه الأعمال نضجوا! بفضل معدل التغير التكنولوجى المتزايد للغاية فى عالم الخيال العلمى. والآن، ومع عدم اكترائه بالمشكلات التى يمثلها هذا الوضع بالنسبة إلى كتاب وقراء روايات الخيال العلمى فإن روايات الخيال العلمى التكنولوجى Cyberpunk تكشف مع هذا عن اهتمام بالظاهرة الفريدة للتطور التكنولوجى الكاسح، ومع ذلك فإن ذلك هو أحد الاهتمامات التى تنفخ الحياة فى بيان ليوتار عن أحوال ما بعد الحداثة وبينما ستجرى مناقشة تفاصيل هذا التطور فيما بعد فى نطاق "ما بعد الحداثة والعلم والتكنولوجيا"، فمن المهم ملاحظة المدى الذى يعد به استعراض ليوتار توسيعاً لنطاق التأكيد الماركسى على وسائل الإنتاج لكى يشمل تحليل التغيرات فى هذا المجال ضمن إطار المجتمعات ما بعد الصناعية أو التى يسودها الكمبيوتر. وكون هذه التكنولوجيا لا ترد على نطاق واسع فى عرض جيمسون يوضح أن إمكانية حصر ما بعد الحداثة فى مجال الثقافة وعلم الجمال وأهية ومهتزة، اهتزازاً يمتزج بإصراره على أن تجريبية ليوتار مجرد دفاع عن الممارسات الطليعية المتضمنة فى نزعة الحداثة الجمالية.

يبد أنه لكى يمكن تطوير هذا الموضوع من الضرورى فى خاتمة المطاف الرجوع إلى ما وعدت به هذه المقالة منذ البداية: الجذور السياسية لما بعد الحداثة عند ليوتار. غير أن الأمر لا يتعلق بليوتار وحده، فالفلاسفة الفرنسيون الذين تم جلبهم إلى العالم

(٥) جنس من روايات الخيال العلمى التى تتصور مجتمع المستقبل عنيماً وكتيباً حيث تتحكم فيه التكنولوجيا المعلوماتية وشبكة الكمبيوتر. (المترجم)

الناطق بالإنجليزية لكي يكونوا ذلك المخلوق الهجين: نظرية ما بعد الحداثة، قد شكلتهم جميعاً، وبدرجات متفاوتة، الأحداث والوقائع الماضية نفسها. ولكي يمكن فهم السبب في هذا فمن الضروري ألا يغرب عن البال المناخ الثقافي الذي ساد فرنسا في أعقاب الحرب. وفيما بين الحربين العالميتين فإن الأسماء التي تبدت في صفحات الجميع سيطرت عليها ثلاثة أسماء يبدأ كل منها بحرف الهاء (Hs) : هيجل وهوسرل وهيدجر، وفي أعقاب الحرب شرع سارتر - الذي بلغت فلسفته الوجودية أوج التعبير الفرنسي لهذا الثلاث المقدس- في محاولة التحرك صوب المصالحة مع الماركسية، معلناً في خاتمة المطاف أنها "الافق الذي لا مهرب منه لجميع ضروب التفكير في القرن العشرين". وعبر هذا عن صعود ما سمي "سادة الشك" إلى القمة الفكرية وهم: ماركس ونييتشه وفرويد. وأحد الأسباب في هذا الوضع، بمعزل عن البحث الذاتي ومراجعة النفس على صعيد ثقافي إلى حد بعيد عقب المشهد المروع لتعاون فرنسا مع النازي في ظل حكم فيشي المشين، تمثل في المحاضرات التي قدمها ألكساندر كيغن^(٥) Alexandre Kjeve في باريس عن فلسفة هيجل. وكان لمحاضراته التي قدمت نزعة ماركسية ذات طابع خاص في قراءة هيجل تأثيرها المحدد على جيل كامل من المفكرين الذين صعدوا إلى ذرى التقديس الشاهقة بوصفهم من أنصار ما بعد الحداثة. ومن ثم أصبحت الماركسية تلك الرواية السردية التي ينبغي أن تضبط وتنظم في مواجهتها جميع النظريات الأخرى، ونتيجة لذلك، فإنه فيما يتعلق بانهياء هذه "الرواية السردية" بصفة خاصة يتعين علينا أن نعمل عليها لكي يمكن فهم الانتقال من باريس المشبعة بالماركسية إلى وقوعها، أي "باريس"، في نزعة ما بعد الحداثة.

لقد شهدت "أحداث" مايو ١٩٦٨ في باريس استعمال الطلبة والعمال المتأريس لسد شوارع قوة اقتصادية أولى حديثة في العالم إلى الحد الذي أصبحت فيه الحكومة على شفير السقوط. وعندما استتكرت النقابات والأحزاب والمثقفون وفضلاء اليسار

(٥) ألكساندر كيغن (١٩٠١-١٩٦٨): فيلسوف فرنسي من أصل روسي، عمل أستاذاً في معهد الدراسات العلمية العليا بباريس، وكان أول من قدم سلسلة محاضرات عن هيجل حتى عام ١٩٣٩ مركزاً على موضوع "فينومينولوجيا الروح". (المترجم)

التمرد الشعبى فى شوارع باريس فى مايو ١٩٦٨، فإن الوعد الماركسى بمستقبل ثورى متحرر من الاستغلال الرأسمالى، وبالتالى مشروعيتها فى وسط اليسار الفكرى بعامة، تبدد وتلاشى. وليوتار، مثلاً، روعته إدانة الحزب الشيوعى الفرنسى لاحتلال حرم الجامعة الباريسية فى ضاحية نانثير من قبل مجموعة من الطلبة الراديكاليين بقيادة دانييل كوهن بنديت، وقد أيدتهم حركة ٢٢ مارس[التي احتفلت بذكرى القبض على قادة الطلبة فى منظمة الاحتجاج على معاداة فيتنام. (المترجم)] ضد الحزب والنقابات والصحافة والسلطات الجامعية والحكومة وأخيراً ضد القمع العنيف لاحتلال الجامعة عندما اقتحمت نانثير الشرطة الفرنسية لمقاومة الشغب والإخلال بالأمن فى مستهل شهر مايو، وحالما استجاب الطلبة بالنزول إلى الشوارع فى صحبة العمال الذين رفضوا سياسة الأجور الحكومية فإن إخفاق الحزب والنقابات فى مساندة الثورة والتواطؤ مع الدولة بمساعدتها على إخمادها باسم العودة إلى "حكومة شعبية"^(٥)، دل بوضوح على خيانة اليسار لوعده الثورى وعمله كجهاز دولة للمراقبة والتحكم. ولهذا السبب استمر ليوتار حتى ثمانينيات القرن العشرين معتبراً مايو ١٩٦٨ حد موسى الذى بتر "الميتارواية" metanarrative الماركسية الضامرة من "ما بعد الحداثة". ومن ثم كان أحد الشعارات التى غطت حوايط باريس أثناء "الأحداث": "أيها الرفاق إن الإنسانية لن تكون سعيدة أبداً حتى يتم تعليق الرأسمالى الأخير فى أحشاء البيروقراطى الأخير".

وقد ناصرت وجهة النظر هذه بشدة الحركة الدولية التى سميت Situationist International (SI)^(٥٥) التى كان منشورها الصادر فى ١٩٦٦ "عن فقر الحياة

(٥) إشارة إلى حكومة الجبهة الشعبية التى تكونت من التحالف بين الشيوعيين والراديكاليين والاشتراكيين، وانتشرت فى عدة بلدان أوروبية وخاصة فى فرنسا فى ١٩٣٦. (المترجم)

(٥٥) حركة فنية وسياسية نشأت فى ١٩٥٧ وتجمعت حول مجلة International Situationist (١٩٥٨ - ١٩٦٩) واستهدفت القيام بنقد راديكالى للمجتمع انطلاقاً من القيم الثقافية التى ينتجها، ودعت إلى ثورة دائمة فى الحياة اليومية ومن أهم الأعمال التى أسفرت عنها : la Soaete de Spectacle من تأليف جى ديوبور Guy Debord (١٩٦٧) وكان لها تأثيرها العام فى أحداث مايو ١٩٦٨، وانطلت هذه الحركة فى ١٩٧٢. (المترجم)

الطلابية" الذى كتب بالتعاون مع نشطاء طلبة ستراسبورج الذين أغضبهم دور الجامعة كحلبة لتدريب مدراء "الفرجة أو العرض المشهدي" دافعاً الدولة إلى القبض على الطلاب ومحاكمتهم وإدانتهم وأن تعترف بالتهديد الواقع على الأمور العادية فى الحياة اليومية فى ظل الرأسمالية من جراء هذه الحركة (SI). واضطلع أنصار هذه الحركة بدور مهم فى "أحداث مايو ١٩٦٨" مشيرين إلى أن إستراتيجياتهم طبقت كما لو أخذت من كتاب تعليمي للحركة، حتى النزول إلى الشوارع كان إستراتيجية أطلقوا عليها اسم "الانسحاق أو الانجراف أو الانحراف" وهى وسيلة لإعادة تخصيص البيئة الحضرية للخيال: "فتحت أحجار الرصيف يقبع الشاطئ!". ولم يقتصر الأمر على أن تجد بعض مكونات هذه الحركة من مفردات لغوية وتحليلات طريقها إلى نصوص ليوتار من أواخر الستينيات حتى أوائل السبعينيات من القرن العشرين، بل إنه من هذا المهاد أيضاً برزت إلى الوجود أطروحات بودريار عن مجتمع الرغبة المحاكية مستوحياً إياها مما جاء فى كتاب جى ديبور Guy Debord عن "مجتمع الفرجة أو العرض المشهدي" The Society of Spectacle من أطروحات تتعلق بإدارة الرغبة وإنتاجها من خلال ما خلفته وسائل الإعلام التى تسيروها الدولة فى فرنسا الديجولية. وبينما النقطة الأساسية فى تحليل ديبور Debord هى أنه فى ظل المجتمع الاحتفالى الاستعراضى إما أن نذعن ونرتضى أن نكون مستهلكين سلبيين للمشاهد المتعلقة بنا ونعيش حياة مغتربة ، وإما أن نكتسح المشهد وجهازه ونتغلب عليه ونصبح منتجين نشطين للثورة، أما بالنسبة إلى بودريار فإن الثورة على المشهد لا يمكن أن تتخذ إلا شكل المشهد، وما لم تفعل فلن يكون فى وسعها على وجه الدقة "أن تحدث"، ولن تسجل فى نطاق المجتمع الاحتفالى الاستعراضى.

وبينما وجدت الدعوة الفورية للثورة التى أثارها ونشنها أنصار الدعوة Situationist تعبيرها الفوري والمباشر أيضاً فى شوارع باريس، فإنها تعارضت مباشرة مع كل من المثال الماركسى للثورة كتطور عضوى من المجتمع الرأسمالى نفسه وتنويعها

التروتسكى الذى يرى أنه يتعين مساعدة البروليتاريا لتدرك مدى شقاؤها ويؤسها من قبل طليعة سياسية وفكرية. ولم تنتج الحرب ولا المصاعب الاقتصادية ثورة ما، غير أن التفاهات الخائفة لمجتمع الوفرة احتوت عليها، وإن الإخفاقات التى أسفر عنها هذان البرنامجان فى إطلاق الثورة من عقالها وازدياد بيروقراطية الماركسية الدولية، كما تجلى ذلك فى الدولية الرابعة^(*)، عجلت بالفعل بإجراء إعادة تقييم على نطاق واسع للماركسية من طرف مجموعات مثل (الاشتراكية أو البربرية Socialisme ou barbarie التى انتمى إليها كل من ليونارد وديبور Debord). وفيما بين ١٩٥٦ و١٩٦٤ واصل ليونارد - الذى كان يعمل أستاذاً فى الجزائر - تحليلاته للنضال الشعبى من أجل نيل استقلال الجزائر والدروس المستفادة من ذلك بالنسبة إلى الماركسية. وكانت الفرضية الأساسية لهذه المجموعة هى أن اكتساب الشيوعية الدولية للطابع البيروقراطى أوضح المدى الذى غدت به جهازا للرأسمالية البيروقراطية ويعد أن بدأت هذه المجموعة تغدو متصلة ومغالية فى التمسك العقائدى والمذهبى، تركها ليونارد لى يلتحق بتنظيم "Workers' Power" حيث ظل منضماً إليه حتى عام ١٩٦٦، وعند هذا الوضع ويعد أن تحرر من الأوهام أصبح نشطاً فى السياسة الطلابية الناشئة ملتحقاً فى خاتمة المطاف بحركة ٢٢ مارس.

وعلى الرغم من أنهم كثيراً ما كانوا على خلاف تام مع بعضهم البعض فإن

(*) الدولية أو الأممية: اسم أطلق على تنظيمات الأحزاب العمالية التى استهدفت توحيد الحركة العمالية فى نطاق اتحاد دولى يستهدف تحويل المجتمعات الرأسمالية إلى مجتمعات اشتراكية. نشأت الدولية الأولى (الرابعة الدولية للعمال) فى لندن ١٨٦٤ وتبنت الأفكار التى طرحها عليها ماركس فى خطابه الافتتاحى، ثم انتقلت إلى نيويورك بسبب الاضطهاد البوليسى وجرى حلها فى ١٨٧٦. وتأسست الدولية الثانية من الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية فى أوروبا فى مؤتمر باريس للاحتفال بالذكرى المئوية للثورة الفرنسية، وجاءت الحرب العالمية الأولى لى تقجر الخلافات بين الأجنحة المختلفة، إلى أن توقف نشاطها عشية الحرب العالمية الثانية. أما الدولية الثالثة (الكومنترن) فقد أنشأها لينين فى ١٩١٩ لتعزيز قضية الثورة العالمية، وخضعت لسيطرة الحزب الشيوعى السوفيتى، وقام ستالين بحلها فى ١٩٤٣. أما الدولية الرابعة فقد ضمت للتنظيمات التروتسكية التى انشقت عن الأحزاب الشيوعية (١٩٣٨) ودعت إلى قيام الثورة العالمية. (المترجم)

الأنصار من حركتي Situationists و Socialisme ou barbarie والطلبة الغاضبين كانوا جميعاً على اقتناع بأن الماركسية لم تعد تحمل خطط الثورة ومشروعاتها. ويقول آخر فإن الماركسية غدت من مخلفات الماضي بالنسبة إلى ليوتار إبان أحداث مايو ١٩٦٨ . فما الذى دفعه إذن إلى أن يتخذ موقفاً حازماً فى مواجهة الماركسية بالنسبة إلى هذه الأحداث؟ وهل من المؤكد فعلياً أن الماركسية اقتربت من النهاية؟ لم يكن الأمر كذلك. وبينما أوضحت الثورة الفورية لمايو ١٩٦٨ عدم قدرة الماركسية على البقاء باعتبارها برنامجاً سياسياً فإن انهيار "الرواية الكبرى الماركسية" - التى كان من المتعين أن تبلغ أوج تركيبها الذى يجمع بين الأطروحة ونقيضها فى الثورة البروليتارية الكبرى التى تنشأ من حضن الرأسمالية ذاتها- لم يفض إلى رفض "التحليل" الماركسى، وإنما مجرد إعادة توجيه لأسئلتها وإعادة تقييم لأهدافها، مثل تلك التى انغمس فيها ليوتار بالفعل منذ ١٩٥٦ . وهكذا إذا ما نظرنا إلى الأسئلة المحورية المطروحة فى كتابه "أحوال ما بعد الحداثة" - ما الشكل الذى يتخذه رأس المال فى مجتمع ما بعد الحداثة؟ كيف تختلف وسائل الإنتاج فى "ما بعد الحداثة" عن التكوينات الاجتماعية السابقة؟ ما الشكل الذى يجب أن تتخذه السياسة التى تستجيب لهذا الوضع؟- فإنها تكشف عن استمرارية أكثر وليس أقل فى ثنايا التوجه السياسى الرئيسى لفكر ليوتار على الجانب الآخر لـ "حد موسى" مايو ١٩٦٨ .

ومن ثم، ما الشكل الذى تتخذه رأسمالية ما بعد الحداثة؟ وكما لوحظ من قبل فإن أحد العناصر الأساسية فى مجتمعات ما بعد الحداثة هو الحلف الجديد المقام من الرأسمالية تبرز منتصرة فى صراع السرديات للحجة التى يقدمها ليوتار عن أن الرأسمالية والتكنولوجيا، وذلك هو ما يوفر المادة الأساسية للحجة التى يقدمها ليوتار عن أن الرأسمالية تبرز منتصرة فى صراع السرديات (النظريات): فالربيع لم يعد فى حاجة إلى أن يكتسب الصفة الشرعية بالرجوع إلى رواية كبرى للإنجاز التدرجى للحرية الفردية عبر السوق، ما دام يجرى تبريره على الفور عن طريق اقتسام معياره الوحيد فى النجاح مع تكنولوجيا أصبحت وسيلة إنتاج المعرفة والمعلومات والقوة. وهكذا، فإن وسيلة الإنتاج التى تضمن القوة والسلطة فى مجتمعات ما بعد الحداثة

تتسم بطابع معلوماتى أكثر منه صناعى. وفى كل مرة، يعظم فيها الكمبيوتر مخرجات المعلومات من الحد الأدنى من المدخلات، وفى كل مرة يجرى فيها توفير الوقت والعمل بتطبيق التكنولوجيا، فإن الرأسمالية تكسب مرة أخرى على الفور. ولا نستطيع أن نتجادل مع الرأسمالية؛ لأنه لم يعد يوجد فى نطاقها أى دور يترك للتبرير الاستطردى. كما لا تتطلب الرأسمالية الدعاية؛ فرأس المال الذى يجاهر باعترافه بمعاودة الدولة وكذلك الاشتراكية يعمل دون ولاءات وبما يتماشى مع قاعدته الوحيدة: تعظيم الفعالية. ومن ثم فإن الأرض الصعبة للواقع السياسى الكلى (الماكرو) لم تترك للعدو، كما رأى كثير من نقاد سياسة ما بعد الحداثة، بل بالأحرى فإن أحوال ما بعد الحداثة نتجت مباشرة من هذه البنى الاجتماعية الجديدة. فما هو الشكل، إذن، الذى ينبغي أن تتخذه سياسة ما بعد الحداثة؟ إن دفاع ليوتار عن التجريب، المذكور آنفاً، يتعين تطبيقه على سياق التنظيم المادى لمجتمعات ما بعد الحداثة. ويتطلب مثل هذا الوضع التجريب، ليس فقط على المستوى الجمالى، كما يزعم جيمسون أن نزعة التجريب عند ليوتار تنخفض إلى هذا المستوى، وكذلك ليس فقط على صعيد الرواية والسردي؛ إنما يقتضى أن تخضع الميديا نفسها الخاصة بالتكنو- رأس المال، التى تحتزن المعرفة والقوة والمعلومات لعملية تجريب راديكالية.

هذا إذن تاريخ أحوال ما بعد الحداثة: فمن ناحية تاريخ تطور رأسمالية إلى التكنو- رأس المال، ومن ناحية أخرى تاريخ وفاة الرواية السردية الكبرى الماركسية، واستجابة للفراغ الذى تركته أعظم ذخيرة مكتملة من الذخائر النقدية. إن التبادل الحر نظرياً وهو سمة لما بعد الحداثة فى العالم الناطق باللغة الإنجليزية قد ضحى، عموماً، بالتاريخ السياسى لفلسفة ما بعد الحداثة الفرنسية فى سبيل نوع من النفعية قصيرة الأجل مستخرجة، على نحو متناقض وبقدر كبير، من تلك المطروحة فى مثل تلك الأعمال. بيد أن الاندفاع نحو الجديد على حساب تأصيله التاريخى يظل نوعاً من التجربة فى أشكال المعرفة والفعل السياسى، وإن الغزوات التى قامت بها ما بعد الحداثة فى ميادين مثل القانون والنظرية السياسية والحركة النسائية تبين بوضوح

مخاطر هذه التجربة، فإذا ما اعتبرت النظرية طقم أدوات يتعين تجميعه بما لا يتفق مع المعنى الأكاديمي للتاريخ إلى حد ما وإنما بما يتماشى على نحو مختلف مع مطالب المهمة القريبة في تناول اليد، ثم سحبها من السرايب العقيمة من المناقشة الأكاديمية يمكن أن تكون له مع ذلك منفعة براجماتية. ومن الطبيعي أن الجهل بالتاريخ، كما لوحظ غالباً، يحكم على الجاهل بأن يكرر ذلك، غير أنه ليس من طبيعة التجربة أن تكون لها نتيجة غير معلومة. وبالإضافة إلى ذلك فإذا كانت أدوات الماضي-الماركسية والمشروع التنويري وليبرالية السوق وما إلى ذلك- قد تم اختيارها واتضح أنها غير كفء أو ناقصة، عندئذ تغدو التجربة مطلوبة. وكما يقول ليوتار إن "ما بعد" ما بعد الحداثة لا يعطى إشارة إلى أنها وصلت إلى النهاية، بل إلى بداية الحداثة. فما الحداثة الجديدة التي ينبغي مع ذلك أن تبزغ من سياسة ما بعد الحداثة؟

الفصل الرابع

ما بعد الحداثة والحركة النسائية (أو إصلاح سياراتنا)

سو ثورنهام Sue Thornham

"ينبغي للحركة النسائية أن تصر على اعتبار نفسها أحد مكونات أو سلالة غير مباشرة لحداثة التنوير، بدلاً من أن تعتبر سمة (أو مجموعة سمات) أكثر إثارة في مشهد اجتماعي ما بعد حداشي".

Sabina Lorbond in T. Docherty, ed., *Postmodernism: A Reader* (1993)

"على الرغم من الافتتان المفهوم بعالم التنوير المنطقي والمنظم (على نحو ظاهر) فإن النظرية النسائية تجد مكانها على نحو ملائم في تربة فلسفة ما بعد الحداثة".

Jane Flax in- Nicholson, ed. *Feminism/Postmodernism* (1990)

يتعين أن يعتبر أي تعريف للحركة النسائية أولاً وقبل كل شيء قوة اجتماعية وسياسية ترمي إلى تغيير علاقات القوة القائمة بين المرأة والرجل. وفقاً لقول Maggie Humm: "يعتمد بروز أفكار الحركة النسائية وسياستها على فهم أن المرأة تنال قدراً أقل من الرجل في جميع المجتمعات التي تقسم الجنسين إلى مجالات ثقافية أو اقتصادية أو سياسية مختلفة" (*Feminisms: A Reader*) (١٩٩٢). ومن ثم فإن التطورات "النظرية" للحركة النسائية، بوصفها حركة ترمي إلى التغيير الاجتماعي ارتبطت بالمطالب الداعية إلى التغيير السياسي، وهكذا تميزت بداية "الموجة الثانية" من

الحركة النسائية، ويستخدم هذا المصطلح عادة اليوم لوصف حركة المرأة بعد ١٩٦٨، بحملات وتجمعات سياسية جديدة، مثل تلك التي نظمت حول تشريعات الإجهاض، والمطالبة بالمساواة القانونية والمالية، وتكافؤ فرص العمل، ونشر أعمال نظرية طموحة مثل كتاب سياسات جنسية Sexual Politics لـ كاتى ميليت Kate Millett ولهجات جنسية Dialectic of Sex من تأليف ش. فايرستون Sh. Firestone وقد نشر كلاهما فى ١٩٧٠ وقد اعتبرا نصين ثوريين، وإن فايرستون بتشديدها على ما تسميه "الحركة النسائية الغربية الرائدة" فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين يتعين اعتبارها فقط الانقضاى الأول الذى قامت به "أهم ثورة فى التاريخ"، ويشترت ميليت بظهور "موجة ثانية من الثورة الجنسية"، ونشدت كلاهما المطالبة بتاريخ نسائى واعتبرتاً الحركة النسائية موقفاً نظرياً مع حركة المرأة بوصفها ممارسة سياسية.

ومن ثم ترى الحركة النسائية أن السياسة والنظرية تعتمد كل منهما على الأخرى. غير أن السياسة النسائية عملت فى مجالات المعرفة والثقافة، وكذلك من خلال الحملات الرامية إلى التغيير الاجتماعى والاقتصادى. وقد اعتبر منظرو الحركة النسائية بدءاً من مارى وولستون كرافت Mary Wollstonecraft^(٥) فصاعداً أن أحد الأسباب الأساسية لقمع المرأة هو التركيب الثقافى للأنوثة التى تجعل المرأة "موضوعات للرغبة ولا يعتد بها" وتضع وجهاً لوجه "مقولة المرأة" مقابل "مقولة الإنسان"، وكما تشدد أنيت كون Annette Kuhn فى قوة الصورة The Power of Image^(٥). ومن البداية اعتبرت الحركة النسائية الأفكار واللغة والصور عنصراً حاسماً فى تشكيل حياة المرأة (والرجل)، كما اعتبرت موضوع كل من التحليل والنشاط هو تركيب المعرفة والمعنى ومختلف أشكال التمثيل، كما اهتمت بالنضال لى تجد صوتاً يمكن أن تعبر من خلاله عن هذه المعارف، ومن أجل تطوير ذات نسائية مستقلة، قادرة على أن تنطق بصوتها

(٥) كاتبة نساء بريطانية من أصول أيرلندية من أشهر مؤلفاتها A Vindication of the Right Woman (١٧٧٧)، دافعت عن تحقيق المساواة فى التعليم بين الرجال والنساء وتحدثت اقتراضات سيادة الرجل. (المترجم)

ضمن ثقافة اختزلتها باستمرار إلى وضعية شئ هو أيضاً جزء من المشروع النسائي. وكما تصف Rosalind Delmar ذلك فإن الحركة النسائية سعت إلى تحويل مركز المرأة من كونها موضوعاً للمعرفة إلى ذات عارفة، ومن حالة الخضوع إلى موضوع عارفة، فى J. Mitchell & A. Oakley, eds. What is Feminism (١٩٨٦) .

وقد يلوح أن كل هذا يحدد موقع الحركة النسائية كفرع من "السرديات التحررية للحدثة التنويرية" وهذا هو بالفعل الموقع الذى يضع الكثير من منظرى الحركة النسائية أنفسهم فيه. وإذا ما اعتاد شكلان رئيسيان من أشكال "السردية المشروعة، كما يرتئى ليوتار" تبرير بحث التنوير عن المعرفة وأهمية البحث العلمى، فإنهما يجدان صدقاً لهما فى النظرية النسائية. فالشكل الأول وهو سردية التحرر والانعقاد، حيث تنشئ المعرفة باعتبارها وسيلة تحرير، يجد صدقاً جلياً من مفهوم "تحرير المرأة". وكما تقول Sabina Lovitond : «من الشاق رؤية كيف يستطيع المرء أن يعتبر نفسه نصير الحركة النسائية ويظل لا مبالياً تجاه الوعد الحديث بإعادة البناء الاجتماعية" (Postmodurggism: A Reader). لكن السردية المشروعة الثانية عند ليوتار، تلك المتعلقة بالعقل التأملى حيث تنشئ المعرفة من أجل ذاتها، تجد أيضاً صداها النسائى فى ممارسة "زيادة الوعى". ومن خلال ارتفاع مستوى الوعى تتحقق زيادة البصيرة بالقوة الذكورية (تنوير نسائى) عبر التحليل الذاتى النسائى الفئوى والرفض المترتب على ذلك لسبل وافتراضات الفهم الأبوى (البطيريكى) المستبطنة (وهو ما يمكن تسميته بالوعى الزائف الأبوى (البطيريكى) وبالتالي فإن المشروع الأولى للحركة النسائية على غرار الماركسية، يربط التحليل النظرى للقهقير بسردية التحرر والانعقاد من خلال التحول الاجتماعى.

وقد كان، إذن هدف الحركة النسائية المبكرة هو مساواة المرأة عبر قبولها فى تلك المجالات التى استبعدت منها وهو ما شمل مجالات التفكير العقلى والخطاب الفكرى. وإذا كانت المرأة قد استبعدت من النظرية السياسية والماركسية والفلسفة والتحليل النفسى وغيرها من الخطابات النظرية المهيمنة، فإن إدراج المرأة ضمن هذه الخطابات سوف يوسع نطاقها وربما يحولها، بينما يمكن فى الوقت نفسه استعمال ما تحتويه

من بصيرة نافذة في إلقاء الأضواء على تجربة المرأة. ولذلك شرعت النظرية النسائية إلى حد كبير في الستينيات ومطلع السبعينيات من القرن العشرين إلى توسيع نطاق النماذج النظرية القائمة وتحولها. غير أنه تبدت عدة مشكلات مع هذا النهج، ففي المقام الأول أضحى جلياً أنه من غير الممكن ببساطة توسيع نطاق هذه النظريات لتشمل المرأة؛ لأن استبعاد المرأة لم يكن إغفالاً عرضياً، بل هو مبدأ هيكلي أساسي في جميع الخطابات الأبوية (البطيركية). وكما أشارت سيمون دي بوفوار في كتابها "الجنس الثاني" (١٩٤٧) إن المرأة في الفكر الغربي مثلت "الآخر" الذي يمكنه أن يؤكد هوية الرجل باعتباره ذاتاً "Self" (*)، كائنًا، مفكرًا عقليًا. وتقول دي بوفوار: "إن مقولة 'الآخر' أساسية تمامًا مثل الوعي نفسه، ما دامت الذات Self لا يمكن تعريفها إلا بمعارضتها لشيء آخر هو غير الذات نفسها". وتضيف أن الرجل خصص لنفسه مقولة "الذات Self" واعتبر المرأة هي "الآخر": فهي العارض، غير الجوهرى فى مقابل ما هو جوهرى وهو الذات Subject (*). وهو المطلق وهي "الآخر".

وفضلاً عن هذا ، فحتى لو أمكن إدراج النساء ضمن هذه الخطابات فإنه يمكن أن يتم فقط من حيث "الماثلة والتشابه الشديد" أى فى نطاق الأطر التى لا يمكن أن تناقش مسألة النساء إلا من زاوية الإنسانية المشتركة ذات المرجع الذكورى (أو ما تسميه Luce Irigaray Hom (m) o- Sexual economy of men) وليس باعتبارهن نساءً على وجه التخصيص وباعتبارهن "ذوات" لهذه المعارف، ولذلك لا تستطيع النساء - أى ككائنات ومفكرات - العمل إلا فى نطاق المراكز المحددة سلفاً، وفى وسعهن

(*) يقول د. محمد عناني في مصطلحاته الأدبية (ص ١٠٧-١٠٨) استعمال لفظ Subject هو فى حقيقة الأمر اختصار للتعبير الأصلى وهو الذات الواعية أو المفكرة، وتعريفه فى المعجم هو النفس Self أو الأنا ego أو الفكر الفرد Cogito فإذا انتقلنا إلى النقد النسائى وجدنا أن النظرية الأولى التى تشكلت فى الستينيات والسبعينيات لا تناسب مفهوم الذات مثل هذا العدا، بل إن بعض قائدات الحركة النسائية وجدن فى مفهوم الذات منطلقاً للهجوم على الأفكار المنحازة للرجل وهو ما يمثل التيار الذى اشتد داخل هذه الحركة... (الذى يعتبر) المشاعر الذاتية والتعبير عن المعتقدات الشخصية والوان الاستجابة الفردية موضوعات جديدة بالتشجيع باعتبارها قوة معارضة للأبوية أى سيطرة الرجل. (المترجم)

الكتابة فقط باعتبارهن بديلاً للرجال. والحق أنه بات جلياً أكثر فأكثر أن الذات العالمية الشاملة للحادثة التنويرية، بعيداً عن كونها غير متحيزة للرجل و"متسامية"، لم تقتصر على الانحياز للرجل فحسب، بل كانت ذات طابع خاص للغاية: غربية، بورجوازية، بيضاء، واتسمت باشتهاء الرجل للجنس الآخر.

وحالما تتخذ هذه الخطوة النظرية، فثمة خطوة أخرى لا محيص عنها: فإذا كان أنصار الحركة النسائية يسعون إلى تكوين امرأة عالمية "جوهريّة" كذات و/أو موضوع بحكم تفكيرها الخاص فعدنذئ ستكون هذه الشخصية متحيزة ومشروطة تاريخياً وذات بعد إقصائي مثل نظيرها الذكر. وبالنظر إلى أصولها فسوف تكون بكل بساطة غربية، بيضاء، بورجوازية، وتتسم بالاشتهاء النسائي للجنس الآخر. ولا تستطيع النظرية النسائية أن تزعم أن كلا من المعرفة والذات تكونتا في نطاق التاريخ والثقافة وأن النظرية النسائية تنطق باسم "امرأة ذات طابع عالمي". وبالأحرى، عليها أن تحتضن "الاختلافات" بين النساء وأن تتقبل وضعية المعرفة/ المعارف المتحيزة. وحالما يحتل الفكر النسائي هذا الوضع أو المركز فإنه يبدو أنه يبتعد عن بدايات التنوير ويشترك في الكثير مع نظرية ما بعد الحداثة وتقدم Barbara Creed، في إنجازها لحجج Craig Owens في "The Discourse of Others" (H. Foster, ed Postmodern Culture 1983) عدة نقاط مقاربة بوضوح فيما بينها.

وتدعى كل من الحركة النسائية وما بعد الحداثة أن السرديات الكبرى أو الرئيسية للتنوير فقدت قوتها التي تضيف عليها المشروعية، وترى أنها لم تقترح فقط وتقدم ادعاءات بوصفها قابلة للتطبيق عالمياً ثبت بالفعل أنها صالحة فحسب بالنسبة إلى رجال نوى ثقافة وطبقة وجنس من نوع معين، فإن المثل العليا التي دعمت هذه الادعاءات - بالموضوعية والعقل والذات المستقلة- كانت أيضاً متحيزة وعرضية. كما تزعم أن أشكال التمثيل والتعبير الغربية- سواء أكانت في الفن أم نظرياً- هي ثمرة امتلاك القوة لا الحقيقة. وكما يشير Owens فإن المرأة حظيت بصور (واستعارات) لا حصر لها عبر الثقافة الغربية، في صورة رمز لشيء آخر غالباً- الطبيعة، الحقيقة، الأسمى، الجنس- غير أنها نادراً ما رأت أن صورها التعبيرية والتمثيلية الخاصة بها تضيف عليها المشروعية.

ويزعم أن النظم التمثيلية في الغرب أقرت فقط "رؤية واحدة- تلك المتعلقة بالذات الذكورية القادرة على التكوين والتأسيس". وينتقد كلاهما النزعة الثنائية أى التفكير عن طريق التعارضات، حيث إنه يتعين دوماً الحط من قيمة أحد طرفي المعارضة. وقد رأينا فى مناقشة عمل دى بوفوار كيف كان هذا النقد أساسياً بالنسبة إلى التفكير النسائى. ويصر كلاهما، بدلاً من ذلك، على "الاختلاف وعدم القابلية للقياس والدخول تحت الحصر"، وأخيراً، يسعى كلاهما إلى سد الثغرة بين النظرية والممارسة والتطبيق، بين موضوع النظرية/ المعرفة وهدفها. والمرأة بطبيعة الحال، هى ذات الحركة النسائية وموضوعها، وقد قيل إن إحساس المرأة بذاتها يتسم بنوع من "الارتباط العلقى" أكبر بكثير من الرجل.

وعوضاً عن المرأة أو الرجل "الجوهري" "العالمى الشامل" فإن الحركة النسائية وما بعد الحداثة تطرحان إذن على حد قول Jane Flax "نظرة شكية عميقة الغور فيما يتعلق بالمطالب العالمية (أو المعممة) فيما يتصل بالوجود والطبيعة وقوى العقل والتقدم والعلم واللغة والذات (Gender as a Social Problem American Studies / Self Subject) (١٩٨١) غير أن التحالف الذى تشكل على هذا النحو لم يكن سهلاً لأن الحركة النسائية، كما أشرت، هى ذاتها "رواية (سرديّة) تحرر وانعتاق" ومطالبها السياسية جاءت باسم مجموعة اجتماعية، النساء اللاتى رأين أن لهن وحدة مصالح أساسية ويتمتعن بذوات أنثوية متجسدة، حيث تختلف بالضرورة هويتهن وتجاربهن (أو الصدق فى التجارب) عن تلك الخاصة بالرجال. وكما اقترحت Sarah Harding إذا ما استعضنا عن مفهوم "المرأة" بمفهوم "أولف مؤلفة من النساء اللاتى يعشن فى مجتمعات تاريخية معقدة ذات تكوين طبقى وعرقى وثقافى"، H. Crawley and S. Himmelweit, eds. Knowing Wowe (١٩٩٢) كما يقترح بعض المنظرين، ويتعبّر آخر إذا ما استبعدنا النوع (أو الاختلاف الجنسى) كمبدأ تنظيمى مركزى- فكيف يمكن لممارسة نسائية سياسية أن تغدو ممكنة بعد؟ وإذا ما أضحى الاختلاف الجنسى مصطلحاً واحداً فقط للاختلاف، وتعبيراً غير تكوينى بصفة أساسية لهويتنا فعندئذ كيف يمكن تفضيله؟ ومن المؤكد لكى يمكن تفضيله فإنه يصبح وفقاً لتعبير Christine Di Stefano "مجرد قصة أخرى شمولية

ينبغي تفكيكها ومعارضتها باسم اختلاف لا يخدم سيداً موحداً من الناحية النظرية (Feminism/ Postmodernism) .

إن الحركة النسائية بربط مصيرها بنزعة ما بعد الحداثة، ألا يجوز إذن أن تكون متواطئة مع استئصالها، متقبلة وفاة الميتا رواية *Meta narratives* للتحرر عند حد ما زال فيه تحرر المرأة وانعتاقها بعبيدين عن الاكتمال؟ وينقسم أنصار الحركة النسائية على نحو مفهوم في الإجابة عن هذا السؤال. ويشدد البعض مثل Sabina Lovibond على أن الحركة النسائية يجب ألا تغريها جاذبية ما بعد الحداثة، لأنه إذا ما تبرأت الحركة النسائية من دافع "التنوير" فإنها تفقد كل إمكانية للفعل السياسي والاجتماعي. ويتخذ آخرون اتجاهاً مغايراً تماماً زاعمين أن انتقادات التنوير التي أعدتها النظرية النسائية لا بد أن تجعلها نوعاً من فلسفة ما بعد الحداثة وهكذا تزعم Jane Flax، مثلاً، أن النظريات النسائية "مثل الأشكال الأخرى لما بعد الحداثة. ينبغي أن تشجعنا على تحمل وتفسير ازدواجية (ثنائية الضدين) والالتباس والتعددية، وكذلك كشف جذور احتياجاتنا لقرص النظام والتركيب، ولا يهم كيف يمكن أن تكون هذه الاحتياجات تحكمية واستبدادية (Feminism/ Postmodernism). وبهذه الحجة فإن ما بعد الحداثة تعد نوعاً من الترياق العلاجي للنزعة العالمية للحركة النسائية، وبأسلوب مشابه فإن Nancy Fraser و Linda Nicholson على الرغم من رفضهما تشاؤمية ليوتار الفلسفية، فإنهما ترغبان في تبني نقده للميتا رواية *metanarrative* من أجل نقد اجتماعي نسائي، وترى أن نظرية نسائية كهذه يمكن أن تتحاشى تحليل الأسباب الأساسية لقهر المرأة، مركزة بدلاً من ذلك على تجلياتها المحددة ذات الطابع التاريخي والثقافي، كما أنها يمكن أن لا تستعيض عن التصورات الوجدانية للمرأة والهوية الانثوية بالتصورات "التعددية" والمكونة على نحو معقد للهوية الاجتماعية، التي تعامل النوع أو الجنس بوصفه فرعاً آخر من بين فروع أخرى تهتم أيضاً بالطبقة والعرق والإثنية والسن والتوجه الجنسي. وتخلصان، في استعارة نسائية تماماً، إلى أن نظرية كهذه "يمكن أن تشبه تطريزاً مكوناً من خيوط متعددة الألوان أكثر مما تشبه نسيجاً مكوناً من لون واحد" (Feminism/ Postmodernism) .

ويمكن أن نجد مثلاً آخر لمثل هذا النقد المناهض لأنصار "النزعة الجوهرية" anti-essentialist^(*) في العمل الذي قدمته Judit Butler، من منطلق سحاقي، حيث ذهبت إلى مدى أبعد بكثير من Flax أو Frases و Nicholson، بزعمها أن مقولة النوع (الجنس) نفسها عبارة عن "تخيل منظم" وظيفته أن يفرض اشتهااء الجنس الآخر الإلزامي (فكل فرد إما أن يكون ذكراً أو أنثى، الجنس الآخر يكمل/ يجتذب). وترى أن "النوع" gender : "ضرب من انتحال الشخصية والتقريب... إلا أنه... صنف من التقليد والمحاكاة لا أصل له". وبعد ظهور العودة إلى الطبيعة التي تصاحب هوية "النوع" المشتبه الجنس الآخر هو مجرد تأثير الأداء المحاكى المتكرر، بيد أن ما يجري تقليده هو "مثل أعلى وهمي خادع المظهر لهوية اشتهااء الآخر". ولا يوجد كنه أو جوهر للذكورة أو الأنوثة التي تشتهى الجنس الآخر يسبق قيامه بهذين الدورين، فنحن نكوّن المثل الأعلى لهذا الجوهر "عبر" الأداء الذي نقوم به D. fnss, ed. Inside/ Out (١٩٩١)، ونحن نكوّن له لكي يكون خدمة ثنائية اشتهااء الجنس الآخر المنظمة. ومن ثم فإن النوع gender مثل مقولات المعرفة الأخرى هو ثمرة لا للحقيقة بل للقوة أو السلطة المعبر عنها في الخطاب. وفضلاً عن هذا، فإن اشتهااء الجنس الآخر بوصفه نسخة من مثل أعلى متوهم أو متخيل يفشل دائماً في الاقتراب من مثله الأعلى، وبذلك فهو محكوم عليه بنوع من التكرار الملزم، مهدد على الدوام بالفشل ومعرض دوماً للانقطاع عن ذلك الذي تم استبعاده أثناء الأداء والنوع، من وجهة النظر هذه، هو أداء يشيّد ذلك الذي يطالب بتوضيحه، ولذلك ينبغي لأنصار الحركة النسائية، بدلاً من الإصرار على الالتصاق بها أن يحتفوا بانحلالها إلى أشكال من التقارب والالتقاء مع هوية النوع ومختلف أشكال "تنافر النوع/ الجنس" (Butler, Feminisms/ Postmodernism)، والتخلي عنها يبشر بإمكانية اتخاذ مواقف مدركة ذاتياً جديدة ومركبة وتبني سياسة

(*) النظرية التي تقدم الجوهر أو الماهية على الوجود، أي نقيض الوجودية. (المترجم)

انتلافية لا تفترض مقدماً ما هو المحتوى الذى ستكون عليه "النساء" Butler, Gender Trauble (١٩٩٠)). .

بيد أن ثمة أنصاراً آخرين للحركة النسائية، مع أنهم لا ييغون العودة إلى مفهوم وحدوى للمرأة، فهم أكثر شكا بكثير من بتلر Butler فى شأن الإمكانات التحويلية لحركة نسائية تحتضن ما بعد الحداثة. ويشير هؤلاء المنظرون إلى عدة مشكلات كبرى تواجه هذا التحالف المتصور. أولاً هناك اتجاه مُنطَرى ما بعد الحداثة من الذكور عندما يناقشون الحركة النسائية أو يحاولون، كما يفعل مثلاً Craig Owens، إدخال الحركة النسائية فى مناقشة ما بعد الحداثة، فإنهم يفعلون ذلك عن طريق عرض الحركة النسائية بوصفها- على حد قول أوينز- "مثالاً لفكر ما بعد الحداثة"، أى أن نزعة ما بعد الحداثة تعتبر نفسها- عندما تنظر فى الحركة النسائية على أية حال- المقولة الشاملة الجامعة، حيث تعد الحركة النسائية أحد الأمثلة عليها. ثانياً، إن معاملة "النوع" gender بوصفه فقط 'جديلة واحدة وثيقة الصلة من بين جدائل أخرى'، كما قد ترغب Nicholson و Fraser، أو مجرد 'تخيل منظم' كما تقترح بتلر، سيجعل السياسة التى تركز على هيئة من الأنصار أو على موضوع محدد- النساء- مستحيلة، وإن الاستراتيجية التى تقترحها جوديت بتلر، مثلاً، تتعلق بما نسميه 'المحاكاة الساخرة' (Parody) للنوع التى يؤدى فيها، "النوع" على نحو مصطنع وبطريقة تهكمية ساخرة، فى حفلة تنكرية تقوم بعملية هدم وتخريب لأنها تسترعى الانتباه إلى عدم هوية الجنس وإلى مظاهر الجنس (من حيث الذكورة والأنوثة) وإلى الأشكال العديدة للمظاهر الجنسية التى يمكن أن تسجل على أجسادنا. وكما توضح تانيا مودليسكى Tania Modleski فإن ذلك يعد حلاً ذا طابع فردي للغاية لمشكلة قهر المرأة ويخاطر ليس إلا بدعم البنية الثنائية التى يسعى إلى هدمها. والمحاكاة الساخرة Parody، تعتمد، فى خاتمة المطاف، على استقرار ما يجرى تقليده من أجل اكتساب القوة النقدية. ولذلك يصعب تصور "السياسة الانتلافية" التى تدافع عنها بتلر بوصفها أكثر من انتلاف فى صراع بدلاً من كونها استراتيجية للتغيير.

وثمة مشكلة ثالثة ملازمة لاعتناق الحركة النسائية نزعة ما بعد الحداثة، كما توضح Meaghan Morris هي أنه على الرغم من أننا يمكن أن نتقبل وجود أزمة في "السرديات (الروايات) المشروعة" للحداثة، فليس هناك أى مبرر لكى نفترض - لأنها ببساطة سميت "السرديات السيادية" - أن هذا الوضع سوف يفيد المرأة أو السود أو الشواذ جنسياً أو الحركات الأخرى القائمة على الاختلاف. ولعله قد يعنى تفتت جميع الحجج الباعثة على أى نوع من التدخل، أو كما تضعه Donna Haraway فى *Simians, Cyborgs and Women* (١٩٩١) "سبب آخر لترك ممارسات الاعتماد على النفس النسائية القديمة لإصلاح سياراتنا. وهى مجرد نصوص على أية حال، ولذا فلندع الأولاد يعيدونها". ويمكن أن تعنى أيضاً، كما ترى Morris: "حالة من حب القتال الدائم، حيث تكون "القوة فوق الحق" *The Pirate's Financee* (١٩٨٨) . وبدون وجود حجج للتغيير فإن السلطة تخضع للقوى. وتحملنا هذه النقطة الأخيرة إلى حجة أخرى: إن ما بعد الحداثة نفسها يمكن أن تكون "خطاباً سيادياً" جديداً، يتعامل مع التحديات التى تفرضها الحركة النسائية عن طريق محاولة الإدماج، مثلاً عرض على الحركة النسائية أن تتضمنها مناقشة ما بعد الحداثة بوصفها "مثالاً" لفكر ما بعد الحداثة.

وكون أن نزعة ما بعد الحداثة سعت إلى أن تتعامل مع النقد النسائى بتقديم نفسها كخطاب إيطارى للحركة النسائية موضوع تعرض له عدد من منظرى الحركة النسائية. وأشاروا إلى أن المناقشة ما بعد الحداثة مع النزعة الحداثية، أو التفكيكية، قد جرت على نحو مطلق تقريباً فى نطاق، وعن طريق المقومات نفسها كما كان الأمر من قبل (البيض، وأثرياء المجتمع الغربى المصنّع)، وهى مكونات، إذ حققت بالفعل عصرها التنويرى، يسعدها حالياً إخضاع هذا الموروث للتمحيص النقدى. وهى مناقشة لا بد أن يجرى فيها تهميش (أو إعادة تهميش) إسهام الحركة النسائية، على الرغم من الاعتراف بأنها أحد العوامل (حتى الرئيسية) فى زعزعة مفهوم الحداثة عن "الذات" العالمية الشاملة؛ ولذا فإن الأبطال الأساسيين يوجدون (كما يحدث دائماً) فى مكان آخر. وأفصحت Nancy Hartsock عن الشكوك النسائية لهذه النقلة، إذ تتساءل:

لماذا فى هذه الأونة بالذات التى بدأت الكثيرات منا- اللاتى التزمّن الصمت- فى طلب الحق فى تحديد هويتنا والتصرف كذوات وليس كموضوعات للتاريخ، فى ذلك الوقت تماماً يصبح مفهوم "وضعية الخضوع" إشكالياً؟ (Feminism/ Postmodernism)، وترى أنه ليس عرضاً أنه فى اللحظة ذاتها، عندما بدأ أولئك الذين استبعدوا من قبل فى القيام بالتنظير والمطالبة بالتغيير السياسى على السواء، برز هناك عدم اليقين فيما يتعلق بما إذا كان ممكناً تنظير العالم وما إذا كان ممكناً إحراز التقدم، بل حتى ما إذا كان مرغوباً فيه، كمثّل أعلى شمولى. وبالنسبة إلى Hartsock، إذن، فإن الانتقالات الفكرية لما بعد الحداثة تشكل فقط النبرة الأخيرة فى صوت "الخطاب السىادى"، كما لو كانت تحاول التعامل مع التغير الاجتماعى والتحديات النظرية التى واجهت نهاية القرن العشرين.

ويستحق نوعان آخران من الشك النسائى التعرض لهما هنا، وينصبان على الطريقة التى يتيح بها ما يسمى "النوع- الشك" ما بعد الحداثى الانزلاق بيسر إلى ما تسميه Susan Bordo "توهم (فانتازيا) أن يصبح تعددياً- حلم الأشكال التجسيدية العديدة غير المتناهية، التى تسمح للمرأة أن يثب من مكان لمكان ومن نفس لنفس" (المرجع السابق). وهذا الوضع له جانبان، الأول: هو أن كون المرء فى كل مكان مماثل تقريباً لكونه فى لا مكان، وبعبارة أخرى فإن ما بعد الحداثة تقدم لمنظريها الذكور ببساطة رواية أخرى للانفصال المجرد من الجسد الذى وسم الوضع الناطق باسم التنوير. أما الجانب الثانى: فإن ما "يصبح تعددياً" يمكن أيضاً أن يعنى "أن يصبح امرأة" أو يحتل المركز النسائى. وهكذا فإن منظري ما بعد الحداثة الذكور، كما توضح Alice Jardine و Barbara Creed و Tania Modleski، قد اتجهوا إلى أن يطابقوا- على غرار المفكرين الأوائل- بين مركز "الغيرية" والأنوية وكذلك إلى أن يسعوا إلى شغل. وبهذه الوسيلة، كما تحدد Tania Modleski فإن "السلطة الذكورية... تعمل على محو الذاتية الأنثوية عن طريق شغل موقع الأنوثة" (Feminism Without Women)، ويجرى محو اتصالات المادية للنساء نوات الجسد، وتستطرد قائلة: إنه بالنسبة إلى المرأة لى تشد شغل المركز ما بعد الحداثى، كما يفعل أنصار الحركة النسائية ما بعد الحداثية،

فإن ذلك يستوجب اهتماماً نسائياً بالغاً. وتزعم أن نوع التحرر من الجسد، الذي أنتجته الحركة النسائية "المناهضة للجمهورية" هو نوع من الترف لا يتاح إلا لأكثر النساء ثراءً وتمتعاً بالامتيازات وأولئك فقط اللاتي لديهن إحساس بالهوية يمكن لهن التلاعب بأنهن لا يملكن ذلك.

وكيف يمكن إذن للنظرية النسائية أن تتمسك باعتقاد في "المرأة" وتحترم الاختلاف والتنوع الثقافي؟ أو كما تحدد Rosi Braidotti في *Nomadic Subjects* (١٩٩٤)، "عن طريق أى نوع من الترابطات والخطوات الجانبية ومسالك الهروب يمكن إنتاج معرفة نسائية دون تثبيتها في معيارية جديدة؟، إن محاولات الإجابة عن هذا السؤال- ولكي تغوص في حطام الثقافة الغربية بدلاً من تنحيها جانباً، على حد قول Alice Jardine - قد أثمرت ضرباً من التفكير النسائي الأكثر إثارة عبر العقد الماضي. وقدّمت إجابة ممكنة من قبل أولئك الذين اصطلح على تسميتهم بمنظري "وجهة النظر" النسائية. وقد استخدم هؤلاء المفكرون- ولغايات نسائية- الرؤية الماركسية التي ترى أن من يشغلون مراكز هامشية أو خاضعة في المجتمع لا ينتجون معارف مغايرة لأولئك الذين يشغلون مراكز متميزة فحسب، بل إنهم ينتجون أيضاً أوصافاً وحكايات أقل تشويهاً وأقل عقلنة وأقل تعميماً على نحو زائف. وتقدم Nancy Hartsock الحجة لهذا النهج، قائلة: "نحن نحتاج إلى تفكيك نحن الزائفة التي أستخدمها في تعددها وتنوعها الحقيقيين. ومن واقع هذا التعدد الحقيقي أشيد عرضاً للعالم كما يرى من الهوامش، عرضاً يمكن أن يكشف زيف الرؤية من أعلى ويستطيع أن يغير الهوامش وكذلك المركز" (Feminism/ Postmodernism). وترى أن المهمة تتمثل في تطوير عرض للعالم يتناول هذه الرؤى البديلة، لا كما ينظر إليها من المركز وليس كمعارف هدامة أو خاضعة، بل أن تعتبر بدلاً من ذلك أساسية وقادرة على تشكيل عالم مختلف. وهو نهج تبنته أيضاً نصيرات الحركة النسائية السوداء مثل Patricia Hill Collins التي تدافع عما تسميه إبستيمولوجيا نسائية ذات مركزية إفريقية أو إبستيمولوجيا المرأة السوداء. وترى أن المرأة الإفريقية - الأمريكية، على غرار الجماعات الأخرى التي تحتل مرتبة أدنى أو التابعة، لم تطور تفسيرات متميزة لما تتعرض له من قهر وقمع فحسب، بل فعلت ذلك عن طريق تكوين أشكال بديلة من المعرفة. وتستطرد قائلة إن الأشكال

المحددة للقهر السياسى والاقتصادى للمرأة السوداء وطبيعة مقاومتها الجماعية لهذا القهر إنما يعنى أن المرأة الإفريقية - الأمريكية، كجماعة، تعيش تجربة عالم مختلف عن عالم غير السود والإناث وتسفر هذه التجربة المتميزة بدورها عن وعى نسانى أسود من حول هذه التجربة، وراث فكرى نسانى أسود. وفى وسع هذه "الرؤى الملتزمة"، وفقاً لتعبير Hartsack، إذن أن تمهد السبيل للاعتراف بعموم الناس وتوفر الأدوات البدء فى تشكيل عرض للعالم يعترف بحقائق الأعراق والنوع وكذلك الطبقات (المرجع السابق).

بيد أنه ثمة مشكلات تتعلق بهذا التفسير الحرفى بالأحرى لما قد تعنيه "سياسة الموقع" Adrienne Rich, Blood and Poetry (١٩٨٦)). ويمكن أن تصبح بالغة التبسيط واختزالية (ومن المحتم أن تنتج هذه المجموعة من التجارب ذلك النمط من الوعى). ويصعب معرفة أية مجموعة من التجارب مكونة لجماعة معينة ونمط إنتاج المعرفة. وهى تؤكد على تجربة ربما قد يكون من الأكثر ملاءمة التشديد على سبل تفسير تلك التجربة. وأخيراً فإن الاحتكام إلى السمات المشتركة للتجربة يمكن أن يتجاهل الاختلافات بين النساء وفى نطاقهن. وعمل Collins، مثلاً، يفترض باستمرار أن جميع النساء السود هن أمريكيات، مؤكدة فى "التكوين الاجتماعى للفكر النسائى الأسود" مثلاً، على أن الحياة المعيشية لامرأة إفريقية أمريكية يعد شرطاً أساسياً ضرورياً لإنتاج فكر نسانى أسود B. Gyu- Sheftall, ed Words of Fire (١٩٩٥)) وأن جميع النساء الإفريقيات- الأمريكيات يتخذن موقفاً مشتركاً. ومن الناحية الأخرى وحالما نسمح بتعدد اتخاذ المراكز فى نطاق "وجهة النظر" فإن مفهوم السمات المشتركة للتجربة- ومن ثم وجهة النظر المتميزة- ضمن إطار الجماعات المقهورة يمكن أن يغنو ضائعاً مفقوداً.

ويعد مفهوم "المعارف الموقعية أو الموضعية" الذى طورته منظرات من مثيلات Rosi Braidotti و Donna Haraway إجابة أكثر تعقيداً عن سؤالى: كيف "تتصور بأية حال مراعاة التنوع الثقافى دون الوقوع فى النسبية أو اليأس السياسى؟" وفقاً لكلمات Braidotti فى Nomadic Subjects، بيد أن "الموقف أو الموضع" المتصور هنا ليس مسألة بسيطة وهو فى المقام الأول وضع يشدد على الطبيعة المتجسدة للذات

الأنثوية وبالتالي المختلفة جنسياً، ولكن التجسيد هنا لا يعنى فى هذا السياق "النزعة الجهرية" التى جرى تعريفها بوصفها منطوية على جوهر متوحد متناغم للهوية الأنثوية فيما يتجاوز التغيير التاريخى والثقافى، أما الذات الأنثوية ذات الكيان المتجسد المتصورة هنا فهى على العكس ذات "رحالة" باستعمال مصطلحات بريادوتى. وذلك يعنى أنها "موضع يضم مجموعة متعددة ومعقدة، واحتمال أن تكون متناقضة من التجارب يجرى تحديدها وفقاً لمتغيرات متداخلة ومتشابكة مثل الطبقة والعرق والسن وأسلوب الحياة والأفضلية الجنسية وغيرها". وتذهب هارواى إلى مدى أبعد بقولها: فى المجتمع المعاصر المتقدم تكنولوجيا فإن التجسيد النسائى يعنى "منبت الأوراق فى نباتات الحقول، والانعطافات فى التوجهات والمسئولية فيما يتعلق بالاختلاف فى مجالات المعنى المادية والرمزية" (Simians, Cyborgs, and Women). وما تحاول القيام به هاتان المفكرتان فى هذه الصياغات المعقدة بالأحرى هو التشديد على أن الذات الأنثوية ذات كيان متجسد، وأنه لا يمكن فصل تفكير النساء ومعرفتهن عن تجاربهن المعيشية، وإن هذا الإلحاح لا يعنى أن الحركة النسائية لا تعترف بالاختلافات فيما بين النساء وفى داخل كل امرأة. وترى بريادوتى أنه فى داخل كل منا هناك تفاعل بين مختلف مستويات التجربة، ولذلك فإن هوياتنا، على الرغم من تجديد موضعها وموقعها، غير ثابتة ولكنها "رحالة جوابية". وتلك المعارف الموضوعية أو الموقعية - وهى "معارف متحيزة، ويمكن تحديد موقعها، ونقدية" كما تصفها هارواى- هى التى تسمح بتعريف جديد للموضوعية (الموضوعية بوصفها متحيزة، معرفة موضوعية) وكذلك بإمكان قيام انتلافات سياسية جديدة.

لكن هذا لا زال يبقى على الصعوبة المتمثلة فى كيفية ربط "الاختلافات داخل كل امرأة" بالممارسة السياسية التى تقتضى التوسط فى "الاختلافات فيما بين" كل امرأة طبقاً لكلمات بريادوتى. لأنه من الصعب- على أسوأ الفروض- رؤية كيف يمكن توحيد النساء من حول الصياغات المقتبسة فيما سبق. وإجابة عن ذلك تقدم بريادوتى "الخيالات السياسية" وتقدم هارواى "الأساطير المؤسسية" كوسيلة للفهم الإطارى.

وقدّمت هذه "الصور الملمة بالموضوع سياسياً" (بريادوتى)، أو "مظاهر الأمل والرغبة" (Patricia Clough, Feminist Thought (١٩٩٤)) كوسيلة لمنح سلطة للإحساس المشترك بالهوية وكذلك النضال من أجل القضاء على القهر. وترى بريادوتى أن "الخيالات السياسية" يمكن أن تكون أكثر فعالية فى هذا الوقت من الأنساق النظرية. والصورة التى تقدمها بريادوتى هى شكل "الرجال" (البدوى) الذى لا يعد منفياً (لا وطن له وبدون جذور راسخة) ولا مهاجراً (مشرداً عن وطنه ومعلقاً بين القديم والجديد)، وبدلاً من ذلك فإن هذا الرجال (البدوى) المتموضع وإن كان قابلاً للحركة والتنقل يستخدم وعياً نقدياً لكى ينمى "فن عدم الولاء للحضارة" وبذلك يقاوم احتواءه من قبل الثقافة المضيفة أما "الخيال السياسى" عند "هاراواى" فهو أكثر تحدياً: كائن أو شكل سيبرنيطيقى Cyborg^(٥) فهو هجين من الجسم والآلة "نوع من الذات الشخصية والجماعية لما بعد حداثة، المفككة والمعاد تجميعها" (Feminism/ Post-modernism). والكائن السيبرنيطيقى، كشكل هجين، يشوش ويطمس مقولتى الإنسان والآلة ومعه الثنائيات الغربية الأخرى: الذات/ الآخر، العقل/ الجسد، الطبيعة/ الثقافة، الذكر/ الأنثى، المتحضر/ البدائى، الحقيقة/ المظهر، الكل/ الجزء، الوكيل/ الوسيلة، الصانع/ المصنوع، التشيط/ السلبي، الصواب/ الخطأ، الحقيقة/ الوهم، الشامل/ الجزئى، الله/ الإنسان. وهو متجسد لكنه غير موحد، ونظراً لكونه شكلاً حدوده مطموسة ومتجدد بدلاً من إعادة الميلاد، فلا يمكن تفسيره بالرجوع إلى الروايات التقليدية للهوية. وهو محدد محلياً وموصول كونياً، وتذكرنا هاراواى أن الاتصال الشبكي Net Working وهو ممارسة نسائية وكذلك إستراتيجية للشركات متعددة الجنسية، وسيلة للبقاء "فى الدياسبورا" (المرجع السابق).

بيد أنه يمكن الاعتراض على أن منظرات مثل بريادوتى وهاراواى يحاولن الجمع بين النقيضين: التحديد الموضعى والمكانى، والتعددية فى نطاق ما بعد الحداثة وخارجها. وكما يمكن اتهامهما بالاستعاضة عن رواية التحرر الموجهة إلى تغيير العالم الحقيقى بفانتازيا يوتوبية تنزلق أفكارها عن "التجسيد" والوضعية" إلى أقصى درجة.

(٥) اختصاراً لمصطلح: Cybernetic Organism. (المترجم)

وتحتج Susan Bordo، مثلاً في نقدها صورة Haraway عن Cyborg قائلة: "ما نوع الجسد الذى يتمتع بالحرية فى تغيير شكله وموقعه حسب إرادته، ويمكنه أن يصبح أى شخص ويسافر إلى أى مكان؟ وإذا كان الجسد استعارة لتحديد موضعنا فى الزمان والمكان ومن ثم محدودية المعرفة والإدراك البشريين، فالجسد ما بعد الحدائى إذن لا يعد جسداً البتة" (المرجع السابق). وبالنسبة إلى بورديو فإن هذا النوع من الاستجابة لما تسميه Sandra Harding فى Knowing Women لتقلبات الأوضاع المعاصرة للمقولات التحليلية النسائية سوف يترك التفكير النسائى مقطوعاً عن مصدر الإمكانيات التغييرية للحركة النسائية (Feminism/ Postmodernism). وقدمت تانيا مودليسكى Tania Modleski (Feminism Without Women) هجوماً مماثلاً، إذ ترى أنه سوف يتركنا مع "حركة نسائية دون نساء". ومع ذلك فإن العضلة التى تبرزها هؤلاء المنظرات هى نفسها أننا فى مرحلة (عملية لا نهاية لها) "تحديد المقولة وتكوينها" وما دام الأمر هكذا، كما تلاحظ هارواى فإنه يصعب الصعود عندما تتمسك بكلا جانبي القطب، فى وقت متزامن أو على نحو بديل (Simians, Cyborg and Women) وإن "الخيالات السياسية المختلفة المقدمة من المنظرات النسائيات يمكن أن تعتبر وسيلة للتوصل إلى مصطلحات جديدة يمكن أن ترسّى نظرية لطريقة صاعدة. كما يعترفن بالخطر القائم نفسه: فتنظرية ما بعد الحدائة الذكورية سوف تكرر ببساطة حركة السابقين من منظرى الحدائة بوضع أيديهن على الخصائص الأنثوية بوصفها أحد مواقفها المتعددة الممكنة، وفى الوقت نفسه تمحو، وتفرض الصمت على عمل النساء وحياتهن. والمهمة التى يتعين التصدى لها إذن وفقاً لما قالته Meaghan Morris فى The Pirate Fiancee تتمثل فى "استخدام العمل النسائى لصياغة مناقشات ما بعد الحدائة، وليس العكس".

الفصل الخامس

ما بعد الحداثة وأساليب الحياة (أو : أنت ما تشتريه)

نجيل واطسون Nigel Watson

فى مستهل تسعينيات القرن العشرين سألت Independent an Sunday : لماذا تستحسن Fergie باتمان Batman و Ross Perot و Vimto ومازدا والمبنى الجديد M16 (مبنى جهاز الاستخبارات البريطانية)؟ وجاءت الإجابة بأن هؤلاء الأفراد وتلك المنتجات يجرى تصنيفها تحت اسم ما بعد الحداثة. وقال جميع الذين تم استجوابهم إنهم يشعرون بنوع من الخجل والارتباك فى شأن الماضى وأنه يكون مفهوماً تماماً فقط إذا ما عبر عن شعور تهكمى بالهزل والمزاح. وفيلم Batman مثلاً يتلاعب بالإشارات إلى الكتب الفكاهية، بينما جاءت سيارة مازدا Mx5 لى تعيد إنتاج سيارة الرياضة الإنجليزية فى ستينيات القرن العشرين. وقد عرفت هذه السمة فى أسلوب وتصميم ما بعد الحداثة بوصفها ارتجاعية (أو الرجوع إلى الماضى) Retro وإن إلقاء نظرة سريعة إلى كتالوجات السلع الاستهلاكية سوف يوضح المدى الذى أضحى به هذا الاتجاه جزءاً من الحياة اليومية، بالإضافة إلى أجهزة التلفزيون والراديو ومعدات الحمام وأثاثه فكلها تستوحى رغبتنا فى إعادة خلق نمط ماض متخيل.

وتكون الصورة العامة لكل من Fergie و Ross Perot مفهومة بالرجوع إلى الماضى لا المستقبل. ولأن Fergie تستوحى من عصر سابق من التدهور الملكى ولأن Ross Perot تستهويه ما يسمى بالقيم الضائعة لأمريكا السابقة فإن جون ماجور (رئيس وزراء

بريطانيا السابق) حاول إثارة جاذبية مماثلة فى المملكة المتحدة بالإشارة إلى إنجلترا ذات الجعة الدافئة، والعانسات راكبات الدراجات فى ذهابهن إلى الكنيسة فى أمسيات الصيف المنعشة. كما رأى أن Ross Perat يمثل سمة أخرى لما بعد الحداثة من حيث إنه السياسى الوحيد الذى نشأ دون جذور ممتدة فى التراث الحزبى، ويمكن أن يقال الشئ نفسه عن حزب الاستفتاء للسير جيمس جولد سميث فى الانتخابات العامة التى جرت فى المملكة المتحدة فى ١٩٩٧، الذى لم تكن له سوى سياسة واحدة، والذى زعم أنه سوف يحل نفسه إذا ما تحقق هدفه.

يقال إن سياسة ما بعد الحداثة تدور أكثر فأكثر حول قضايا تتخبط فى حملات معينة تتجمع فيها جماعات كانت متناثرة من قبل ثم تنحل بعد ذلك. وذلك هو ما يسمى بالائتلاف قوس قزح لثمانينيات القرن العشرين، وأفضل ما تمثلها الاحتجاجات التى اندلعت ضد صادرات الحيوانات الحية التى توحدت فيها المسنات من حزب التورى (المحافظين) والاكاديميون الليبراليون ورحالة العصر الجديد فى مواجهة الظلم المترتب على إرسال الحيوانات لتلقى حتفها على بعد آلاف الأميال محشورة فى أماكن ضيقة تستخدم لنقل الحيوانات. ويتعلق هذا الجانب من أحوال ما بعد الحداثة فى صميمه بالتحلل الطبقات التقليدية والتجمعات ذات المقام الاجتماعى. وتعد الآن القيم والولاءات ذات طابع انتقالى ولم تعد تتركز فى الولاء القديم للعلاقات القائمة على الإنتاج، ويعتبر الأسلوب الاستعارى وتحلل التراث بعضاً - فقط - من السمات التى تميز ما بعد الحداثة، وسوف نتعرض للمزيد منها فى هذه المقالة.

وبالإضافة إلى ذلك فإن Independent on Sunday ذهبت إلى سؤال عدد من المشاهير عما إذا كان فى استطاعتهم تجديد الطابع الدقيق للفكرة وكان معظمهم متشككاً أو انصرف عن الإجابة بزعم أن البعض حاول الإجابة. وقال رئيس إدارة الفنون والموسيقى فى الإذاعة البريطانية BBC : "ما بعد الحداثة هى بالأحرى طريقة لبقة أو غير متعمقة للقول بالمرنة؛ كما أن المراتب الهرمية لم تعد كما كانت عليه من قبل، وفى وسعك أن تمزج وتلائم بين مراتب هرمية مختلفة للثقافة". وقد كان شجاعاً

لأن أحد أشهر الكتاب الذين يتم الاستشهاد بهم واقتباسهم بصدد ما بعد الحداثة والثقافة - وهو جان بودريار - رفض الدعوة وأجاب بهذه الطريقة: "لا أستطيع أن أشرحها ولن أشرحها، وما بعد الحداثة لا تعني شيئاً بالنسبة إلى". ولا يشغل بالي هذا المصطلح. لقد استفتدني كثيراً للغاية نزعة ما بعد الحداثة Postmodernism. وكل ما سأقوله هو أن الحداثة المتأخرة Post modern يمكن أن تكون ما بعد الحداثة Post-modern.

ومن المؤكد حقا أننا حالما اقتربنا من تسعينيات القرن العشرين ما زال هناك الكثير من الالتباس والجدل فيما يتصل بالمفهوم، ورأى بعض الفلاسفة مثل Christopher Norris أن هذا المصطلح لا يتجاوز قليلاً كونه طريقة كسولاً لتجميع بعض سمات الثقافة المعاصرة وضمها معاً بالإضافة إلى استيعاب بعض جوانب الفكر القارى، "ورأوا أنها ليست إلا فترة مؤقتة ضئيلة الأهمية نسبياً فى فهمنا للتجربة المعاصرة. بيد أنه لا يمكن دحض أن نزعة ما بعد الحداثة لها تأثيرها البالغ عبر نطاق من مجالات الفكر، انطلاقاً من الجغرافيا وصولاً إلى النظرية الأدبية والسينما والهندسة المعمارية، وأنها بالنسبة إلى كثير من الكتاب وفرت طريقة مرضية لتفسير التغيرات المهمة فى طبيعة التجربة الاجتماعية عبر الأربعين سنة الماضية أو نحو ذلك.

ما بعد الحداثة والهوية وأسلوب الحياة

على الرغم من أن البعض يرى أن ما بعد الحداثة ما زالت مصطلحاً ملتبساً خالياً من الدلالة، فقد جرى استعمالها لفترة طويلة كافية لكى تحقق على أقل تقدير قواماً أساسياً يرسخ تحديد تعريف لها. ويرى معظم المعلقين أنه تتوفر مجموعة من السمات التى تميز الثقافة المعاصرة والتى إذا ما اتخذت معاً يمكن أن يطلق عليها اسم ما بعد الحداثة ولعل أهمها بالنسبة إلى هذا الفصل هو الاقتراح القائل إن تجارب حياتنا تمد جذورها فى العمليات الاستهلاكية لا الإنتاجية. وربما أمكن توضيح ذلك بالتفكير فى

تلك المناطق التي هيمنت عليها الصناعة الثقيلة في المملكة المتحدة. وبالنسبة إلى معظم القاطنين في هذه المناطق العمالية الضخمة فإن المستقبل كانت تحده العلاقة مع العمل ومع إنتاج الفحم مثلاً أو السفن أو القطن، وكان السكان من عمال المناجم أو بناء السفن أو من عمال المصانع، وارتبط أساس الحياة الاجتماعية لهؤلاء الرجال والنساء بعلاقتهم بالعملية الإنتاجية، وتأصلت هوياتهم الشخصية والجماعية والثقافية في المنطقة المحيطة بموقع العمل وفي قيم الصناعة التي عملوا فيها.

وشهدت السنوات الثلاثون الأخيرة تغيراً جذرياً في طبيعة هذه العلاقة، وجرى تطوير الأراضي التي أوت المصانع والمناجم لكي تتحول إلى مناطق تجارية للتسوق خارج المدن مثل Metro Center في Gateshead أو Meadow Hall في Sheffield، بينما تحولت الأراضي بالقرب من الأنهار إلى أحواض لاستقبال سفن الاستمتاع وقضاء وقت الفراغ ومتنزهات متخصصة لموضوعات معينة ومتاحف للتراث. والحق أن متاحف التراث، مثل ذلك الموجود في Beamish شمال شرق إنجلترا، يعد مثلاً يُلخص عملية ما بعد الحداثة، حيث يعاد خلق ماضٍ بشكل حنيني وتشوقي بوصفه شكلاً لواقع بديل. وقد استخدم عمال المناجم السابقون لكي يعلموا بقيتنا عن التعدين في وقت لم يعيشوا فيه، بينما اختفت تماماً الحاجة إلى التعدين "الحقيقي". وندفع أموالنا ونتسلى باستهلاك تجارب وخبرات غير جديدة second-hand سبق أن شكلت أساس حياة اجتماعية. وقد أصبحنا بقدر مهم سياحاً نسعى إلى مشاهدة ثقافتنا الخاصة بنا. ولم يعد يوم الأحد (العطلة الأسبوعية) يمثل رحلة إلى الكنيسة، بل يخصص بالآخرى لزيارة الكاتدرائيات الاستهلاكية. وقد عدت مراكز التسوق والمشتريات مواقع أساسية لقضاء وقت الفراغ ويكفي القيام بالرحلة حتى نون الشراء.

ولم نعد نتوافق مع تقاليد الثقافات المهنية القديمة، واخترنا بدلاً من ذلك أسلوب حياة، وقد استخدم هذا المصطلح - وهو ليس جديداً في حد ذاته من قبل ثقافة الإعلان وتصميم الأزياء في ثمانينيات القرن العشرين - للرمز إلى الفردية والتعبير الذاتي، وهو ما كان حجر الزاوية في ثورة السوق الحرة في ذلك العقد. وإن حقبة الاستهلاك

الجماهيرى بتأكيدهما على التماثل والتشابه قد حل محلها اختيار لا نهائى بشكل واضح وتشكيلة من السلع الاستهلاكية التى تستهدف قطاعات معينة من السوق. ومع أنه من المهم تذكر أن بعض الأفراد فى المجتمعات المتقدمة وكثير غيرهم عبر العالم بأسره يجرى استبعادهم من هذه العملية، فمن المهم أيضاً فهم أن تكوين الهوية عبر حياة السلع الاستهلاكية عملية اختيارية. والمشاركون منا فيها ليسوا مجرد ضحايا الموضة وإنما نتوق إلى، ونرغب بنشاط فى الالتحاق بالفرص والإمكانات المتاحة للتعبير الذاتى والإظهار والإبراز التى توفرها اختيارات مراكز التسويق والمشتريات. والحق إننا يمكن أن نستخدم كأزواج ميسورين نوى دخل مزدوج دون أطفال أو عصاميين طموحين سنئى السمعة، غير أننا نفضل التوحد مع أسلوب يمثل جيداً الطريقة التى نرغب فى أن نرى بها. وأصبحت القوة الآن تعتبر المقدرة على الإنفاق لإيجاد تعبير عن أسلوب حياة مرغوب فيه.

وربما تتمثل أهم مجالات نمو الأسواق الاستهلاكية فى أزياء وموضات الرجال وكماليات أسلوب الحياة. وقد استخدم الجسد الذكورى أكثر فأكثر فى الإعلانات ليس ببساطة كمقدرة وظيفية كما كان فى خمسينيات القرن العشرين، بل كوسيلة زخرفية أيضاً. ولم يعد الرجال يصورون فقط كمستشارين خبراء للنساء فى المسائل التقنية مثل اختيار غسالة الملابس، بل إنهم يشغلون المركز المأمول للأسلوب الإعلانى. ويؤكد كبار السن وكذلك الشباب هويتهم حالياً من خلال عملية استهلاك تتم عن وعى وانتقاء للملابس وأسلوب تصفيف الشعر وتزيين الجسد. وبدءاً من إعلان ليفيس Levis الشهير الذى يصور Nick Kamen فى المغسلة ومروراً بالمجلات المخصصة لآخر الحيل والابتكارات التكنولوجية الجديدة أضحى الرجال يحتلون بؤرة عملية التحول الاستهلاكى حيث تتجاوز الصورة بل تتفوق على المنفعة. وحتى إذا كان الرجل الجديد فى ثمانينيات القرن العشرين قد أضحى "رجل" التسعينيات فى ذلك القرن فإن تكوين الهوية الذكورية هو الآن عملية متكلفة مصطنعة وهائلة وذات طابع جنسى على نحو لا مفر منه، لم تكن متخيلة فى العقود التى أشار إليها بحنين جون ماجور.

كما يغدو الجسد محوراً لتكوين الهوية بطريقة أكثر ديمومة وجدية، ويجرى الإعلان على نطاق واسع عن إمكان تغيير شكل وبنية أجسادنا البدنية من خلال الجراحة التجميلية فى مجالات الموضة والأناقة والتجميل ومن الممكن إعادة تشكيل الأنف وإزالة التجاعيد وإجراء جراحة لتجميل الوجه وشفط الدهون وتقليل حجم الصدر أو زيادة هذا الحجم. ويمكن أن يعتبر الجسد فى حد ذاته سلعة استهلاكية، وتلك عملية فى المتناول ويجرى ترويجها بالنسبة إلى النساء والرجال. ولا يكفى فى عالم تنافسى أن تكون عادياً، ويجرى حثنا جميعاً على أن نقرب أكثر من المثل الأعلى للكمال الجسدى الشاب لكى نضفى على أنفسنا قيمة سوقية مضافة.

لقد نمت صناعة ضخمة على نطاق العالم بأسره مخصصة لمساعدتنا فى تحمل مسئولياتنا للحفاظ على أجسادنا. وغدا الجسد موفور الصحة مقترناً بمظهره، ومن الممكن أن تشتري عدداً كبيراً مذهباً من المنتجات والخدمات التى تستثير وتستغل أهمية القيم الثقافية للشباب والجمال. وفى هذا السياق، فإن الشباب والجمال يتماشيان مع القوام النحيل المشوق وتكوين العضلات واللياقة البدنية، ويتمثل أحد أشكال التطرف فى هذا المضمار فى الاستحسان الشعبى المتزايد لبناء الجسم body building (تقوية الجسم بالرياضة) للرجال والنساء على السواء، والنتيجة الطبيعية لهذا هى أن الجسد الهرم يغدو مصدرراً للقلق، والجسد البدين غير المرغوب مصدر عار وسخرية، وعلى الرغم من محاصرتنا بالرسائل المروجة للصحة التى تشجعنا على ممارسة الرياضة وأكل الطعام "السليم الملائم" فإن دافعنا إلى بلوغ اللياقة يرتبط بالرغبة فى الجاذبية الظاهرية وكذلك بالأبعاد الحمائية للارتقاء بالصحة.

وليس مصادفة أن إدارة أساليب حياتنا تحتل قلب عملية الترويج للصحة. ويجرى حثنا على الاعتقاد بأن وقت فراغنا ينبغى تكريسه لأوجه النشاط التى تعزز إمكانية أن نعيش عمراً أطول ونعمر فى صحة جيدة. ومن المهم أن تكون قادراً على أن تظهر وتبرز الارتباط بموقف لائق ومناسب وكذلك على الاشتراك فيه بالفعل. وإن امتلاك دراجة جبلية وشورت لاصق بالجسم (Lycra) يضمن فوراً على الشخص المظهر

الخارجى المنشود، شريطة أن يكون ممكناً بطبيعة الحال إخفاء النتوءات المنفرة، قبيحة المنظر. وبالمثل، فإن تناول الأطعمة قليلة الدسم والمنتجات الأخرى المقبولة والتي تشمل اتباع نظام خاص فى التغذية (حمية) يوفر ضماناً بعدم التعرض للمخاطر والحفاظ على جسد ملائم حتى ولو جرى تناولها بالإضافة إلى، وليس بدلاً عن المواد الغذائية الممنوعة والمحظورة. ويمتد تشظى ما بعد الحداثة إلى عادات اتباع نظام خاص فى التغذية يمكن فى نطاقها الاعتقاد فى رسائل متناقضة واتباعها فى آن واحد.

ويلوح كما لو أن جهود الصناعة الإعلانبة موجهة بكاملها صوب خلق احتياجات زائفة فى داخلنا جميعاً، لكن إحدى القوى العظمى للعملية الاستهلاكية تتمثل فى قدرتها على أن تسخر وتوجه احتياجاتنا الحقيقية، حتى ولو كانت السلع والخدمات المعروضة للبيع كثيرة فى معظم الأحيان، بحيث لا نتركنا نشعر بالإحباط وعدم تحقيق رغباتنا. ومن المؤكد تماماً تقريباً أن الجنس البشرى رغب دوماً فى المزيد من الصحة والجمال والإشباع الجنسى وطول العمر. بيد أن القضية تتمثل فيما إذا كانت هذه الأمور تنشأ حالياً على حساب جوانب أخرى فى الحياة أكثر أهمية وجوهرية كما أنه من المهم إمعان النظر فيما يحدث للمستبعدين فى عالم مكرس لتقييم المظهر الخارجى. وهو ما سوف نعود إليه فى الخاتمة.

بضع نقاط نظرية ضرورية

تبرز من المناقشة السابقة إحدى السمات التى تشدد عليها ما بعد الحداثة وهى أولوية الأسلوب والمظهر على المضمون، وتكوين أسلوب حياة شخصى من خلال استهلاك للخدمات الاستهلاكية لا يهتم كثيراً بمدى فائدة السلعة، ويهتم أكثر بالانطباع والصورة التى نودها والطريقة التى تتبدى بها هذه السلعة لدى الآخرين. وتسرى هذه الحجة أيضاً على التسلية والترفيه وعلى الفنون كذلك. ولاحظ كثير من المعلقين فقدان التمايز بين الفن الرفيع والثقافة الشعبية؛ بسبب عدم اليقين الذى يكتنف المعايير

الراسخة التي لا لبس فيها للحكم على قيمة الأشكال الثقافية. وتلك نقطة صعبة، لكن من غير الممكن وبصفة أساسية من منظور ما بعد الحداثة تأكيد أن شكسبير أفضل من Coronation Street، ومن المؤكد أن هناك بعض الكتاب الذين يرون أن هذه المقارنة تبدو سخيفة؛ لأنهم ما زالوا يؤمنون بالمقاييس التقليدية التي يحكم بها على جودة العمل الأدبي وقيمتها، وهم يعارضون أى هجوم على هذه المعايير القياسية بمناقشة أكاديمية قاسية ومعادية.

وهناك صلة مهمة هنا بإحدى الخصائص الأساسية لمعظم فكر ما بعد الحداثة. وقد ميز كل المفكرين الأساسيين موضوعاً دالاً مشتركاً تمثل في النزعة الشكية التي اتسم بها القرن العشرون فيما يتصل باليقينيات الكبرى التي سادت من قبل التاريخ والمجتمع. فلم نعد نقبل بون تساؤل المزاعم بعالمية المعرفة والحقيقة التي روجت لها "الروايات الكبرى" التي نظمت ثقافتنا وامتد ذلك إلى الدين وتقدم "الحداثة" وتقدم العلم والنظريات السياسية المطلقة مثل الماركسية.

وليس من اليسير يوماً فهم مغزى هذه الأفكار المجردة بالنسبة إلى الحياة اليومية، لكن ما هو حقاً موضع تساؤل ما إذا كان ممكناً بعد قبول الحقيقة المطلقة؟ وكثيراً ما نسمع فى التلفزيون والإذاعة عن حدوث انهيار فى مجتمع ما بسبب تدهور القيم المشتركة وانحطاطها. ويتحدث السياسيون من الأحزاب الرئيسية فى المملكة المتحدة عن الاحتياج إلى إعادة إرساء جوهر مشترك من المعتقدات لكى يمكن إعادة التآلف إلى المجتمع. ولا يعنى هذا شيئاً من منظور ما بعد الحداثة؛ لأن السياسيين يبنون مزاعمهم على اعتقاد خاطئ بالحقائق الشاملة أو "الروايات الشارحة-metanarratives" على حد قول مفكرى ما بعد الحداثة. لقد جرى تحدى تفوق الفكر الغربى طوال القرن العشرين بأكمله، ولا سيما مع انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية، والافتراض الصريح بأن ثقافتها وأفكارها عبرت عن التقدم الحضارى لم يعد مقبولاً. ومن الشائع كثيراً فى الوقت الراهن افتراض أننا لا نستطيع القول إن مجتمعاً ما أو ثقافة ما أفضل من غيرهما.

كما يشير مفكرو ما بعد الحداثة إلى تشظى التجربة وضغط الزمن والمكان، وهو ما يحدد قسماً نهاية القرن العشرين. ومن المقبول الآن أن التغيرات في بنية الشركات متعددة الجنسيات قد أقضت إلى عولة الإنتاج؛ فالسيارات مثلاً يمكن تجميعها حالياً في المملكة المتحدة باستخدام أجزاء مصنعة في مصانع توجد في العالم أجمع. وقد تطورت الاتصالات ونظم النقل بحيث تسمح بإقامة صلات بين البلدان بسرعة كبرى. وإن المؤسسات المالية الأوروبية قادرة على نقل بياناتها إلكترونياً لكي يمكن معالجتها أثناء الليل في شبه القارة الهندية، وتغدو في اليوم التالي جاهزة لإعادتها من أجل ممارسة العمل التجارى. وتتيح لنا الإنترنت مشاهدة الأحداث في وقتها الحقيقى في الجانب الآخر من العالم دون أن نتحرك من منازلنا.

وبينما كانت الأسرة الإنجليزية منذ أربعين عاماً مضت تستطيع قضاء العطلة في إحدى المقاطعات الإنجليزية فإنه مما لا يلفت النظر حالياً السفر إلى فلوريدا أو منطقة الكاريبي أو الشرق الأقصى. ومن الممكن تماماً لمحبي المغامرة استكشاف جبال الهملايا أو القارة القطبية الشمالية. وأى زيارة للسوبر ماركت تتيح الفرصة لشراء أغذية قد تكون مزروعة في الجانب الآخر من العالم، وربما منذ يومين فقط. وتحترق الشوارع الرئيسية في المملكة المتحدة على مطاعم ومحلات الوجبات المنقولة (Take Aways) من مطابخ جميع القارات. وتعنى كل هذه التغيرات العملية في الفرص المتاحة لنا لاختبار العالم وتجربته أننا نقدر عن وعى وإدراك على ضغط الزمن والفضاء المكانى حتى بالمقارنة مع منتصف القرن العشرين.

وسوف ننظر في الجزء التالى في متضمنات هذه الأفكار بالنسبة إلى تجربتنا مع وقت الفراغ والتسلية والترفيه، لكننا نحتاج قبل ذلك إلى أن نلتفت بإيجاز إلى أفكار أحد منظرى ما بعد الحداثة: جان بودريار.

ربما يكون اسم بودريار قد ارتبط أكثر من غيره من الكتاب بالمتضمنات الثقافية لما بعد الحداثة، وتنطوي كتاباته المبكرة على نقد ماركسى جديد للاستهلاك في المجتمعات الرأسمالية، بيد أنه انتقد لاحقاً أى نظريات- مثل التحليل النفسى أو الماركسية أو البنيوية- تركز على البحث عن الحقيقة الأساسية أو الجوهر فيما هو

تحت المظهر الخارجى. لقد تأثر تأثراً بالغاً بالموروث الذى أطلق عليه فى الفلسفة الفرنسية اسم علم العلامات أو الإشارات (السيمولوجيا). وقد قاده ذلك إلى الطريقة التى نفهم بها العلامات (signs) والرموز فى ثقافتنا، والسيمولوجيا هى علم نظم العلامات الذى يشمل اللغة والشفرات الاجتماعية والمرئية.

والمرتکز الأساسى لهذا الموروث هو أننا نفهم العالم وندرك معناه عن طريق ربط العلامات والرموز بالأشياء أو الأفكار التى تسمى "المحال إليه" referent. وحدد بودريار أربع مراحل فى الطريقة التى ترتبط بها العلامات مع المحال إليه وأطلق على هذه العلاقة اسم المحاكاة (Simulation). ومن الممكن توضيح ذلك بالنسبة إلى إبداع الصور، فبينما كانت الصور فى العصور الوسطى مجرد انعكاس مباشر للواقع، فإن الصور فى عصر النهضة أصبحت الفرد والعمل الإبداعى لفنان واحد، ومن ثم تحررت العلامة وغدت عرضة للتأويل أو التفسير الفنى، وما هو أكثر أهمية أنها غدت غرضة فريدة ولا يمكن إعادة إنتاجها بالشكل نفسه فهناك فقط (مونا ليزا) واحدة لا غير.

ثم أشار إلى الثورة الصناعية وبرز عمليات الإنتاج التى تتيح صناعة عدد لا نهائى من نفس النسخ المصنوعة بيد الإنسان. وفيما يتعلق بالصور فإن آلة التصوير (الكاميرا) تقدم أفضل مثال فى هذا الصدد. ولا يوجد أصل للصورة التى يجرى تصويرها على الرغم من أنها تشير إلى واقع خارجى. وأخيراً فإنه يرى أننا دخلنا مع بدء ما بعد الحداثة فى حقبة (فرط الواقعية) أو المغالاة فيها (hyperreality) حيث ترمز العلامات إلى نفسها فقط. والعلامات هى الواقع وأصبح التخيل والواقعى ملتبسين، وهو ما يمكن أن يتضح بعدد صور الفيديو (بوب) pop video حيث يصعب تحديد الزمان والمكان وحيث يمتزج خليط من الأساليب والإحالات معاً بطريقة مازحة مداعبة لكن دون أن نعتمد على معرفتنا بالفنانين السابقين، ومن ثم فإنه يمكن مشاهدة أفلام الفيديو الموجزة هذه والتى تعد على عجل دون أى نظام معين على القنوات الموسيقية مثل MTV. وتعد الإحالات المازحة إلى الأساليب الموسيقية السابقة مثل Rolling Stones أو Kinks محور النجاح الذى حققته فرق مثل Blur و Ocean Colour Scene بينما تمزج فرق مثل Kula Shaker و Apache Indian بين خليط إلكترونى من الأساليب

الثقافية والموسيقية تشمل الأساليب الآسيوية والأوروبية والأفروكاريبية. وبالمثل فإنه في سعيها وراء هوية صحية فإن دراجة اللياقة أو آلة التجديف المنزلى تحتل مكانة خاصة بها. وتعتمد مثل هذه المعينات على فهمنا للإجراءات الفعلية للتجديف أو ركوب الدراجات، لكن استخدامها تطور إلى أن أصبح نشاطاً مستقلاً له واقعه الخاص به. وثمة مبدأ أساسى فى تفكير ما بعد الحداثة يحتل محور هذه المجموعة من الملاحظات. فلم تعد الصور وتلك المصنوعات الثقافية تحيل إلى حقيقة واقعية واحدة، بل أصبحت بدلاً من ذلك حقائق واقعية عن جدارة واستحقاق.

ما بعد الحداثة والمدن ووقت الفراغ

لقد قيل سابقاً إنه ثمة قسمة أخرى من قسّمات تحليل ما بعد الحداثة تتمثل فى الزعم بأنه قد حدث انفصال فى التمييز بين فن النخبة والثقافة الشعبية. وليست هذه الملاحظة جديدة ؛ فعلى مدى الأعوام الستين الماضية أعرب نقّاد ثقافة الجماهير عن قلقهم من أن الثقافة الرفيعة يمكن تقويضها بسبب الاستغلال التجارى لذوق الجماهير. ومع ذلك فإن الخلاف الرئيسى بين أولئك الكتاب الأوائل ونقاد ما بعد الحداثة المعاصرين هو أن هؤلاء الأخيرين يحتفون بهذه التطورات. وأحد المزايم الأساسية التى قدمها الكتاب المتفائلون بصدد تغييرات ما بعد الحداثة يتعلق بتحقيق الديمقراطية واللاطبقة على الأرجح، وتلك مسألة سوف تشكل محور القسم الختامى، بيد أننا نتعرض الآن لتأثير ما بعد الحداثة على وقت الفراغ والفضاء الحضريّ الذى نعيش ونعمل فى إطاره.

وقد كان منطلق معظم المناقشات التى تعرض لقضايا ما بعد الحداثة فى القرن العشرين هو فن المعمار، لدرجة أنه اقترح بأن الانتقال من الحداثة إلى حقبة ما بعد الحداثة يمكن تحديده بالساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر ١٥ يوليو ١٩٧٢م. وذلك هو الوقت الذى نُسِف فيه النموذج الحائز على جائزة الإسكان الحديث - تطوير

مسكن Pruitt - Igoe فى St Iovis (*) لأنه اعتبر غير مناسب للسكن الإنسانى حتى بالنسبة إلى أولئك الذين يحصلون على دخل منخفض. وقد تميز المعمار الحديث بمبادئ المهندسين المعماريين من أمثال لوكوربوزييه Le Corbusies (**) الذى بلغ أوج تأثيره فى ستينيات القرن العشرين- على الرغم من أن أفكاره حكمها نموذج الأدوار السكنية المرتفعة التى سيطرت على المدن فى ستينيات القرن العشرين.

وقد رفض المهندسون المعماريون الحداثيون- على غرار الحداثيين من الكتاب والرسامين كل فى مجاله الخاص به- كل الأشكال السابقة وأصروا على ضرورة الاستعاضة عن الأشكال التقليدية والكلاسيكية بمبان تقوم على المبادئ العقلانية والعالمية، مما يعنى من الناحية العملية التأكيد على التصميم الوظيفى الواضح عادة باستخدام الخرسانة والزجاج. وأصبح المبنى خارجاً عن سياقه ومتسماً بطابع عام عالمى. وجرى تسوية سطح قلب المدن لكى تحل محله عبر العالم بأسره مبان متشابهة. وذلك هو الميتارواية metanarrative للحداثة.

وعلى النقيض فإن مبانى ما بعد الحداثة والمناظر الحضرية تميزت بحساسية للسياق واصطناع مدرك لذاته حيث تمتزج معاً مختلف الأساليب والإحالات إلى مختلف الفترات التاريخية بطريقة ساخرة وانتقائية. وهناك تركيز متميز على المظهر يتفوق على الجوهر والعرض. يحتوى على مزج متعمد بين القسمات المحلية والكلاسيكية كجزء من العملية التى تتساوى فيها قيمة الثقافة الشعبية وثقافة النخبة.

وفى معظم مدننا فإن الشوارع المرصوفة التى شاعت فى الستينيات من القرن العشرين قد أعيدت إلى وضعها السابق مع تزيينها بمصابيح من الزجاج الليفى مستعيدة أو مستنسخة مصابيح الغاز، فى محاولة لإثارة الماضى.

(*) مدينة وميناء فى شرق ميسورى تقع على نهر الميسيسى ، وسوف يتناول الفصل السابع هذا الموضوع

بتفصيل مستفيض - (المترجم)

(**) لوكوربوزييه (١٨٨٧ - ١٩٦٥) : مهندس معمارى فرنسى ومخطط مدن رائد فى أسلوبه الدولى ، مطوراً نظريات عن الوظيفية واستخدام مواد جديدة وتقنيات صناعية ، مستخدماً الوحدات القياسية السكنية ذات الحجم الموحد . (المترجم)

وفى اتجاه قريب من ذلك نجد أن منطقة المترو فى Gateshead (شمال شرق إنجلترا) توجد بها أسواق تجارية جرى تنظيمها لى ترمز إلى فترة تاريخية معينة أو طريقة حياة أو غير ذلك، بحيث تزودنا بتجربة محاكية تتطوى على خليط متنوع. ومن الممكن فى قرية من قرى البحر المتوسط أن نأكل مكرونة فى مطعم إيطالى أو حباراً (نوع من الرخويات البحرية) فى حانة (بار) تقدم الطبق الإسبانى الشهى المسمى Tapas على جانبين متقابلين فى المركز التجارى (mall) الذى يتقاسم المصاييح الكهربائية المتلاكنة نفسها التى ترمى إلى تذكيرنا بتلك الليالى الصيفية الحارة المشتهاة. وإذا ما استحوزت عليك هذه المشاعر فإن وكالات السفر فى أفضل وضع لاستكمال هذه التجربة. وعلى الناصية نستطيع أن ندخل إلى عالم ديكنز^(*) حيث نجد الشوارع المرصوفة بالحصى ومصاييح الشوارع والمحلات ذات النوافذ الصغيرة من الألواح الزجاجية، كما يمكننا تناول وجبة بعد الظهيرة المكونة من الحلويات والشاى، أو أن نشترى حلوى النعناع. وقد أشار كثير من الكتاب ومنهم بورديار إلى المنتزهات ذات الموضوع الواحد مثل ديزنى لاند، مثالا على قضاء تسلية وترفيه ما بعد الحداثة، بيد أنه يتعين علينا أن ننقل إليها. وفى مراكز التسوق التجارى (mall) التى تنطوى على موضوعات معينة يتوفر لنا إبداع مازح لحقائق أو وقائع بديلة تقدم إلينا بوصفها جزءاً من تجربة التسوق التجارى اليومية.

وتميز القرن العشرون بسمة فريدة تمثلت فى انتشار وتكاثر وسائل الاتصال الإلكترونية التى ملأت عالمنا بخليط من الصور والأصوات لم تكن متخيلة منذ مائة عام مضت. ويعنى مجرد وجود هذا القدر البالغ من المعلومات المتنافسة أن مدى اتساع انتباهنا قد أصبح قصيراً، وجرى تقويض إمكانية السرد المتواصل. وبدلاً من ذلك فإننا نمزج بين الأساليب والأنواع ونلائم بينها مما يخلق مزيجاً انتقائياً من التجارب قصيرة الأجل. وهو ما يمثله العدد المتزايد من قنوات التلفزيون عبر العالم، ويمكن التجول بين أرجائها جميعاً باستخدام جهاز التحكم عن بعد (Remote Control) وقد أضحى التلفزيون مثيلاً للمجلة حيث نستطيع بمجرد نقرة خفيفة الانتقال من صفحة لأخرى، ونتطلع فقط فى

(*) الروانى الإنجليزى الشهير. (المترجم)

معظم الأحيان إلى الصور وفي أحيان أخرى نستوعب جزءاً من برنامج ما، لكن من النادر أن نستكمل مشاهدة برنامج بكامله أو قراءة مقالة من بدايتها إلى نهايتها.

وقد أصبحت أبعاد عدم الاستمرار هذه بارزة في تطور الأقراص المدمجة (سى دى روم) الخاصة بالكمبيوتر. وبينما يمكن تعطيل التدفق الذى يحتذى النمط الأفقى (الخطى) فى التلفزيون، فإن البرامج مع ذلك أنتجت لكى تشاهد من بدايتها إلى نهايتها. وحتى جهاز تسجيل الفيديو يتيح فقط طريقة لتغيير التجربة الزمنية التى تظل مع ذلك محتزنة النمط الأفقى (الخطى) فى الأساس. وتتيح لنا المواد المرجعية المرتكزة على الأقراص المدمجة (سى دى روم) مثل Encarta أو Cinemania إمكانية القيام بمجموعة صلات وتوصيلات لا نهائية بما يخلق الأنماط والمشاهد المتتابعة التى نريدها دون التقيد بالحجج أو القصص المعدة من قبل. وتلك تجربة ما بعد حداثة حقاً، حيث يجرى الفصل بين الزمن والفوضى ويتحكم المشاهد فى عملية السرد وفى حينه دائماً.

وثمة عدد من الأمثلة الحديثة لبرامج التلفزيون التى قيل إنها تعكس ثقافة ما بعد الحداثة. وربما كان مسلسل Twin Peaks من أكثر ما يتم الاستشهاد به فى غالب الأحيان، مثل أفلام David Lynch السينمائية، وهو يتسم بانقطاع العلاقات الزمنية والمكانية وعناصر من المحاكاة الساخرة (parody) والتقليد. واشتهرت هذه المسلسلة بتركيزها الكامل على جريمة قتل وقعت قبل بدء الأحداث، ويجرى الحديث عنها والإشارة إلى بعض عناصرها تلميحاً باستخدام الفلاش باك، لكن لم يتم أبداً وصف الجريمة نفسها. وقد اختار Lynch، بدلاً من ذلك، فى فيلمه كشف الأحداث التى ارتكزت عليها المسلسلة، ولكن بعد انتهاء عرضها فقط. وهناك جدال يتعلق بما إذا كان الفيلم له كيانه المستقل أو ما إذا كان قد اعتمد فى معناه وتماسكه على المعرفة بالمسلسلة التلفزيونية. ومن المؤكد أن برامج التلفزيون ستكون أغنى إذا ما جرى تنوع المسلسلات والأساليب التلفزيونية الأخرى، لدرجة أنه قيل إن البرامج تتعلق بالتلفزيون بوصفه وسيلة قدر تعلقها بمدار القصة، وهو ما يضرب به المثل على تأكيد ما بعد الحداثة على الظاهر واللعب والحركة.

ويمكن تقديم العديد من الأمثلة الأخرى التى توضح المدى الذى يُمكن من رؤية خصائص ما بعد الحداثة فى السينما والتلفزيون والإعلانات. فافلام Quentin Tarantino، خاصة، Pulp Fiction، والإعلانات التلفزيونية مثل حملات بيرة Guinness تنطوى كلها على العناصر التى جرت مناقشتها حتى الآن فى هذا الفصل. ومن الجلى أنه يوجد تحول جوهري فى مجال التمثيل وفى الطريقة التى تُعرض بها علينا العلامات والرموز. ولم يعد من الناحية الجوهرية أن نكون سانجين فى فهم ثقافتنا. فهى تتميز بأكثر مما كانت من قبل بسخرية فطنة ذكية تميز بوضوح الاختلاف بين الحداثة وما بعد الحداثة.

خاتمة

لقد درست هذه المقالة بإيجاز موضوعين أساسيين مرتبطين. أولهما المدى الذى تحدده أنشطتنا كمستهلكين هوياتنا فى العالم المعاصر، والثانى هو أثر ما بعد الحداثة على حياتنا اليومية. وقد ميزت المناقشة على نحو خاص التحول من الجوهر إلى الأسلوب، ورأت أن يقينيات حقبة الحداثة ورواياته الشارحة (ميتارواية-metanarratives) لم يعد لها الدوام.

وإذا كان القول الماثور الأساسى لما بعد الحداثة، كما قيل هو: "أنا أشتري وأتسوق فأنا موجود"، فإننا فى حاجة إلى أن نتأمل السؤال الذى يتعلق بما يحدث لأولئك الذين لا يسعهم التسوق ومن ثم يجرى استبعادهم من أساس الهوية الاجتماعية، وذلك أمر له أهميته الخاصة لأن المبادئ القديمة لدولة الرفاهية يجرى تحديثها من قبل القيم الجديدة للنزعة الاستهلاكية. وفى هذا العالم الجديد فإن المعاشات والرعاية الصحية والدعم الاجتماعى كل ذلك ينتقل من مسئولية الدولة إلى المسئولية الفردية. ومن منظور مآدى النزعة، فإن قدرتنا على استهلاك هذه الخدمات تكون ما هو أكثر من هويتنا، إنها تؤثر على الأساس المادى للحياة اليومية.

وقد أوضح نقاد منظور ما بعد الحداثة أنه يمكن أن يفضى إلى تأكيد يفتقر إلى أبسط المبادئ الأخلاقية للإشباع الشخصى والفردى على حساب مسئوليتنا تجاه

الآخرين، ويرى بعض الكتاب أن هذا يمثل اقتصاد السوق الرأسمالية فى أقصى مداه المنطقى. ويرى آخرون أن أفكار ما بعد الحداثة تتسم بطابع ديمقراطى، وجرى الزعم بأن نوبان الحواجز الطبقيّة القديمة وحصون ثقافة النخبة يتيح لنا جميعاً المزيد من الفرص والإمكانات للمشاركة الاجتماعيّة الكاملة.

وأود أن أختتم هذا الفصل باقتباس من Zygmunt Bauman وفى كتابته الأخيرة سبر غور التوتر بين التسليم بحقيقة التغير ما بعد الحداثى والاعتراف بأنه أفضى إلى استبعاد كثيرين من جزء كامل ونشط فى المجتمع. وأخذ هذا الاقتباس من كتابه (الحرية) الذى نشر فى عام ١٩٨٨ :

«إن الحرية الفردية عند معظم أعضاء المجتمع المعاصر، فيما لو أتاحت، تأخذ شكل الحرية الاستهلاكية بكل خصائصها السانعة الممتعة والأقل قبولاً واستساغة. وحالما تهتم الحرية الاستهلاكية بالاهتمامات الفردية والتكامل الاجتماعي وإعادة الإنتاج النظامية (والحرية الاستهلاكية تعتنى وتهتم بكل هذه العناصر الثلاثة)، فإن الضغط القهرى للبيروقراطية السياسية يمكن أن تخف وطأته وإن التوتر السياسى الماضى للأفكار والممارسات الثقافية ينزع فتيله وتخف حدته، ويمكن أن تتطور دون اضطراب ويهدوء أساليب الحياة السياسية ووجهات النظر الأخلاقية والجمالية. وتتمثل المفارقة بطبيعة الحال فى أن هذه الحرية فى التعبير لا تخضع إطلاقاً للنظام أو تنظيمه السياسى لكى يتحكم فيه أولئك الذين يحدد حياتهم. ولا تتداخل الحرية الاستهلاكية أو التعبيرية مع ما هو سياسى طالما ظلتا غير فعاليتين من الناحية السياسية».

الفصل السادس

ما بعد الحداثة والعلم والتكنولوجيا

إيان هاملتون جرانث Iain Hamilton Grant

يبدو أن مجال العلم والتكنولوجيا هو أقل المجالات احتمالاً التي يمكن أن نتوقع فيها اكتشاف علامات الحياة فيما بعد الحداثة، وحتى خطوط التغذية من العلم إلى الثقافة التي يبدو أنها أكثر ملاءمة لمناخ ما بعد الحداثة، مثل عدم اليقين ذائع الصيت للفيزياء الكمية، لا تنبع من السرديات، بل من الطبيعة. وإذا كانت ما بعد الحداثة مجرد مسألة ثقافية، كما اعتبرها فريدريك جيمسون، فإن العلوم باقتصارها على قراءة كتاب الطبيعة لم تتأثر على وجه اليقين بأى "ضياغ للحقيقة" فيما بعد الحداثة- فلم تفقد البتة وجهتها في الطرق المسدودة ومتاهات مكتبة بابل. ويتأكد ما بعد الحداثة، مع هيدجر، أنه "حيثما تتوقف الكلمات وتنقطع فلا يمكن أن يوجد شيء" وأنه فيما وراء العلامات المستقلة عن المتحدثين، وفيما يتجاوز النص أو السرد أو الخطاب لا يوجد شيء، ويصعب اعتبار انزلاق الصفائح التكتونية (المتأثرة بحركة قشرة الأرض)، والزلازل، كنصوص أو خطابات قائمة بذاتها. وهكذا، مع هدم السرد ما بعد الحداثي، الذي ما زال يترنخ تحت ثقل انهياره، فهل يستطيع العلم أن يتدخل لكى يبين- بدقة رياضية- لماذا لم تكن القصص بديلاً على الإطلاق عن الصيغ والتجارب فيما يتعلق بالواقع؟ والطبيعة كما حدد فرانسيس بيكون في فجر العلم الحديث لا تسلم أسرارها إلى تعاويز الشعراء ومجادلات الفلاسفة في الكتب، ويجب على العلوم التجريبية أن تنزعها

من الطبيعة. وفضلاً عن هذا، ومع "إمبراطورية علامات" ما بعد الحداثة تاركة الواقع ضحية جريمة كاملة تماماً، كما يقول جان بودريار، لدرجة أن جثته تختفى، فإن العلم والتكنولوجيا يسرعان بدخول المسرح: وماذا يكون الأمر لو كانت الجريمة ثانوية، والحقيقة فى مكان آخر؟

ومع كل هذه الأسس للشك فى فكرة علم ما بعد الحداثة نفسها، فمن المذهل أن تجد الكثير من العلم ينطوى حالياً تحت وهج تمحيص ما بعد الحداثة، وثمة ثلاثة جوانب من العلم برزت على نحو خاص إزاء تساؤل ما بعد الحداثة. أولها دراسة العلم بوصفه ظاهرة ما بعد حداثة، والثانى كيف جرى التفاوض بشأن الحداثة والعلم داخل الجماعة العلمية؟ وأخيراً نظريات العلم ما بعد الحداثى نفسها. وفضلاً عن هذا فإن التكنولوجيا كما سوف تتبدى أكثر فأكثر، والتي أصبح يعتمد عليها العلم الحديث على نحو متزايد، هى أيضاً أحد العوامل الحاسمة فى هذه المعادلة.

ويدون الفرجار (البرجل) والمطبعة والميكروسكوب والكمبيوتر ومسارح الجسيمات، فإن فصولاً كاملة من كتاب الطبيعة كانت ستظل غير مقروءة، وبالتالي فإن التكنولوجيا لم تبرز فقط بحيث تتيح دراسة الطبيعة "قالة التعذيب التى وضعت عليها الطبيعة لكى تمكن من معرفة أسرارها هى التى أتاحت انتزاعها عنوة"، وفقاً لعبارة فرانسيس بيكون الرهيبة، وقد غدت الوظائف والأشكال المتغيرة للتكنولوجيا فى عالم ما بعد الحداثة يتعذر فصلها حتى عن الأشكال التى يتخذها العلم المعاصر، مما يحمل بعض المؤرخين على اعتبار التكنولوجيا نفسها عملية تطويرية، وبعض العلماء على ترك الحياة الطبيعية خلفه من أجل "العلوم الاصطناعية (الصناعية)" - الذكاء الصناعى - الحياة الاصطناعية. وهذه العلوم إن تبعدنا أبداً عن قصص الخيال العلمى (الرواية المستقبلية) من ناحية، أو عن المحاكاة ما بعد الحداثية. وبالنظر إلى هذا التقارب غير المتوقع بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية فإن التكنولوجيا تبرز، وعلى نحو ساخر، باعتبارها أحد المكونات الحيوية التى تدفع وتشكل ثقافة ما بعد الحداثة نفسها.

ومن ثم فإنه يتعين أولاً دراسة العلم بوصفه ظاهرة ما بعد حداثة. ومنذ كتاب Thomas Kuhn عن *The Structure of Scientific Revolution* (١٩٦٢) انفتح مجال العلم الطبيعي أمام دراسة العلوم الاجتماعية وإذ يزعم كون Kuhn أن تاريخ العلم يبين وجود حلقات غير متصلة من الصدوع والانقطاعات والانطلاقات الجذرية (يسميتها "التحولات في النموذج")^(٥) وهي عبارة حظيت بشهرة معينة في نواتج ما بعد الحداثة بدلاً من التراكمات المعرفية التدريجية المتواصلة في خط واحد، فإنه يزيل الغموض بالفعل عن العلم بوصفه "السعى غير المغرض من أجل التوصل إلى الحقائق" وأوضح أن الأجندة العلمية حددتها تنازعات الكليات الجامعية والصفوف التمويلية والجماعات المماثلة، وكذلك المشاكل النظرية والنتائج التجريبية ويمكن أن لا يمكن أن يكون العلم هو دراسة الطبيعة، لكنه بالضرورة أيضاً ثقافة يتعين دراستها مثل أى ثقافة أخرى.

ومن الطبيعي أن وصف كون Kuhn للعلم باعتباره ثقافة واجه تحدياً، فالفلاسفة والعلماء الغاضبون اصطفوا لإيجاد ثغرات في فرضياته. وتحدى البعض التضمينات الثقافية لأفكاره، مؤكدين أنه منذ ممارسة العلم في نطاق ثقافة ما قد يكون من السخف القول إن الأمر كان في غاية السهولة.

ويمنأى عن هذا البعد الثقافي هناك أيضاً المشكلة الشائكة المتعلقة بالطبيعة، التي كرس لها العلم بنجاح كبير مسيرته الخصبة، وبينما يمكن أن يظهر العلم من الناحية النظرية أو من حيث الاستبتيان بمظهر كُوني (نسبة إلى كون Kuhn) فإن العمل المختبري قدم تجربة مختلفة للغاية وذات طابع عملي محدد، وبالتالي فإنه من الممكن دراسة العلم بوصفه ثقافة، غير أن العلم نفسه يدرس الطبيعة، وبعبارة عن هذه

(٥) "Paradigm Shift" يترجمها د. محمد عناني في "المصطلحات بالتحولات المعرفية أو التحولات في النماذج المعرفية" وأول من قدم هذا المصطلح كون ويعنى به النظرية التي تساعد على البحث ولكنها تضع قيوداً عليه، لأنها تتطلب إدراج نتائج البحث في إطار النموذج (مرجع سابق ص ٦٩). (المترجم)

الخلافات الأنجلوأمريكية برز ما أصبح يعرف بدراسات العلم. وفى المملكة المتحدة مثلاً تشكلت جماعات كرست جهودها للدراسة السوسيولوجية للعلم فى جامعتى إدنبره ويات Bath (جنوب غرب إنجلترا) بينما بدأت مجلة Redical Science فى الصدور فى منتصف سبعينيات القرن العشرين. ونزعت هذه الجماعات إلى دراسة تاريخ وسوسيولوجيا برامج عملية وتكنولوجية معينة، مثل تطور نظم توجيه الصواريخ أو سياسة اختبار حاصل الذكاء (IQ) ، حيث طرحت أسئلة تنصب على تمويل المعرفة العلمية وأيديولوجيتها وسياستها. ومع تمتع المعرفة العلمية بمكانة رفيعة، ويكون دراسات العلم غدت ماركسية التوجه عموماً؛ بدأ التركيز على الدور الذى يضطلع به العلم فى التكوين الاجتماعى للمسائل الأعم. وعلى سبيل المثال، ومع أنه ربما يكون من الصعب أن ينظر إلى "الحياة" كما يدرسها علماء الكيمياء الحيوية باعتبار أن لها أية آثار اجتماعية كبرى، فإن القضايا التى تكتنف الإجهاض تحتكم دوماً إلى "الحقائق" العلمية بصدد السن التى يعتبر فيها الجنين مدرجاً على نحو مستقل، مما يحدد بالفعل الميدان الذى يتم فيه الاحتجاج على هذه القضايا، والأنوار التى يقوم بها المحتجون فى نطاق ذلك. ولا يفعل ذلك فقط "العلم المنجز" (العلم ككيان من الحقائق)، وبالتالي له تضمينات اجتماعية بالغة، إنما يفعل ذلك أيضاً العلم فى مجال النشاط العلمى، مما يحمل علماء اجتماع العلم على اعتبار حياة المختبر مرتكزة على التكوين العلمى للحقائق (ما هى الجماعات وفى أية ظروف وبأية وسائل قامت بأى اكتشاف؟)، وكذلك البناء الأيديولوجى لهذه الحقائق (كيف تؤثر المواقف المتعلقة بالطبقة والنوع فى الممارسة العلمية؟ وما الدور الذى يقوم به العلم فى بناء الثقافات؟) وإذا كانت الاستجابة الأولى لكون Kuhn هى بالتالى تجنيد العلم فإن الاستجابة الثانية ركزت على العلم بوصفه "قوة" للمشاركة الاجتماعية، وشرعت فى استعراض انحيازاته بصدد الطبقة والنوع.

والحق أن دراسات العلم النسائية أثمرت بعضاً من أكثر الأعمال الوثيقة الصلة من منظور ما بعد الحداثة والعلوم والتكنولوجيا وتقدم المعالجة الطبية للولادة مثلاً مبكراً للطريقة التى يضع بها العلم الطبى (علم التوليد) وتكنولوجيا المستشفيات (السريـر،

والرباط، وجفت الجراحة) المرأة فى حالة الولادة كجسد سلبى يمارس فيه الطب عمله. وبالتالي لم تعد عملية الولادة عملاً نسائياً على وجه الحصر، فالمرأة تستلزم تدخل طيبا لكى تنجب الطفل، ولذلك يجب أن تخضع للنظام الطبى بوصفه الشريك المسيطر أو الفاعل فى عملية الولادة. وبدأت قضايا مثل التكوين النوعى (كم عدد الطبيبات؟) وتوزيع القوى العاملة الطبية (كم عدد المرضين الرجال؟) تجاوز التواطؤ بين المشاركة الطبية للنساء والتمثيل الاجتماعى للنساء: فالنساء سلبيات بينما العلم والرجال نشطاء حتى فى مجال الولادة، وبالتالي فإن دراسة هذه الأوضاع تعد حاسمة فى فهم العلاقة بين العلم والمفاهيم الأنثوية الاجتماعية السائدة وكذلك الأنوار الاجتماعية التى تضطلع بها النساء.

وقد أدت هذه الاهتمامات فى خاتمة المطاف إلى طرح سؤال: "لن العلم؟ ولن المعرفة؟ وماذا يكون إذا لم يكن العلم ذكوريا؟ من الناحية الإحصائية ببساطة (يعتمد على نسب الرجال إلى النساء العاملين فى المجال) بل أيضاً ذكوريا من الناحية الإبيستيمولوجية: هل الطريقة التى تنتج بها المعرفة العلمية تعكس، بعيداً عن حقائق الطبيعة العالمية، مجرد النتائج التى تسفر عنها التجربة الذكورية الجزئية وبالتالي التاريخية والثقافية؟ ودعوة فرانسيس بيكون المذكورة آنفاً إلى "وضع الطبيعة على آلة تعذيب (مُخلَّعة) لكى يمكن إجبارها حتى تسلم بأسرارها" التى توزع بوضوح أدوار النوع فيما بين الطبيعة كموضوع سلبى علمى والعلم كذات ذكورية نشطة ومدركة يبدو أنها تقدم التبرير لهذا الاتجاه النقدي. وفى أعقاب الكثير من دراسات العلم وتأثيره على الحياة والأنوار الاجتماعية للنساء الواقعيات إلى جانب دوره فى تكوين الأنوثة الاجتماعى فإن دراسات العلم الأنثوية التى تمثلت فى أعمال كل من Sandra Haroding و Ludmilla Jordanova و Donna Haraway بدأت تنتقل إلى ما أصبح يعرف بدراسات علم ما بعد الحداثة.

وعلى حين غرة تحول العلم من كونه ممارسة عملية ومجموعة حقائق غير معرضة للشك ليست فى متناول الدرس من قبل العلوم الاجتماعية أو النقد الثقافى فأصبح

ظاهرة أيديولوجية ذات طابع اجتماعي قابلة للفحص التاريخي والسوسيولوجي، وكان ذلك في المقام الأول، وأصبح ثانياً تصاً مكوناً من تمثيلات representations شكلت، بغض النظر عن وضعيتها الحقيقية، مجموعة واحدة في نطاق شبكة أعم من التمثيلات والخطابات discourses التي تكوّن المفاهيم والصور السائدة عن المرأة والحيوانات والآلات. ولم يكن يفي بالغرض استهداف أمثلة محلية للواقع الاقتصادي أو الحي للتدخل العلمي، وبالأحرى فإن الخطابات والتمثيلات التي أنتجها العلم أو حتى خطابات العلم نفسها التي تخلد منزلته وسلطته الضخمة، لا بد أن تخضع للفحص والتمحيص. وإذا كانت هذه السلطة قد تبدت في خطاب أحد مكوناته هو الالتجاء إلى "الطبيعة" أو "الواقع" فلا يسع العلم النقدي أن يكف عن إظهار أن الطبيعة شيء آخر مختلف عن العلم الذي يمثلها.

إن الخطابات التي أضفت على العلم سلطته ومكانته قد تعين أيضاً تحديها على صعيد الخطاب ذاته، وبالتالي فإنه لم يمكن فقط تفكيك الخطاب العلمي لكي يكشف عن عدم اتساقه وتناقضه الداخلي، بل أمكن إنتاج خطابات أخرى أيضاً حيث أمكن للتحدي الذي تنطوي عليه أن تتعاظم بشكل قوى. وتاماً مثل الدراسات النسائية المبكرة عن التمثيلات representations الأدبية للمرأة، فإن الصورة المزوجة للأهمية القائمة على قاعدة التمثال أو "المرأة الميتة" Femme Fatale المكبلة بالمرض والبنى والغامضة الميالة إلى تدمير الرجال؛ خلقت الواقع الاجتماعي الذي جرى طبقاً له تصنيف النساء، وكذلك أيضاً بالنسبة إلى دراسات العلم النسائي لما بعد الحداثة فإن الأسطورة لا تنفصم عن حقيقة العلم. وهكذا خلصت هاراواي Haraway في مقالة معنونة "A Manifesto for Cyborgs"^(*) إلى أنه لما كان دائماً السلبى يخالف النشاط فإن الموضوعات العلمية والحيوانات والآلات شكلت شبكة غير مستقرة من التحالفات غير المحقة بين العناصر الفاعلة البشرية وغير البشرية على السواء.

(*) Cyborg اختصار لكلمتي organism و cybernetic وتستخدم في وصف الكائن الذي نصفه إنسان ونصف آلة، ولأى نجاحاً في أفلام مثل Terminator. (المترجم)

وبدلاً من أن تتوقف هاراواى Haraway فى جهودها النقدى عن حد البنى والهيكل الأيديولوجية والخيالية والأسطورية التى تسكن الخطاب العلمى (على الرغم من أن هذا هو على وجه الدقة ما تفعله فى دراستها الملحمية عن تطور علم "الرئيسيات"، أعلى مراتب الحيوانات الثديية Primatology) . فى Primate Visions (١٩٨٩) فإنها وافقت على أن العلم بوصفه ميثولوجيا كان أحد المكونات الرئيسية لموقفه الحقيقى وأن قصص الخيال العلمى شكلت مورداً رئيسياً لتوسعه. ولذلك تلاحظ على نحو جدير بالذكر أن "الحقيقة" هى مجرد الزمن الماضى للخيال، وكلاهما مشتق من الفعل "يصنع" أو "يختلق". تضيف هاراواى جزءاً من سياسة قصص الخيال العلمى السيبرنيطيقى Cyberpunk على المثل الأعلى السيبرنيطيقى للبيولوجيا والتكنولوجيا المتحدتين فى نطاق نموذج علمى واحد. وطبقاً لذلك فإنها تقدم، من الظواهر الاجتماعية والطبيعية التى "أخضعناها" الميثولوجيا العلمية، ميثولوجيا سيبرنيطيقية حيث تكون "الطبيعة" محتالة وتمثل ذنباً مأكراً وحيث تنصهر معاً النساء والآلات، مما يؤنث المثل الأعلى السيبرنيطيقى من داخل خطابات العلم نفسها، بينما يجرى فى الوقت نفسه رفض تمثيلات النساء التى تؤكد السلبية وتجعل التكنولوجيا أمراً ذكورياً. وهكذا تختم هاراواى بيان "الكائن السيبرنيطيقى" بجملة متألقة:

"أفضل بالأحرى أن أكون كائنًا سيبرنيطيقياً عن أن أكون إلهة".

وإذا تركنا جانباً هذا المزيج الغريب من الصور والمصاهرات الثقافية، قد يلوح أن الكائن السيبرنيطيقى Cyborg يظل صورة فقط ويشبه مينيرفا Minerva^(١) تنبثق كاملة التكوين من رأس زيوس (كبير آلهة اليونان) الحالم.

ومن المؤكد أن اختراع هذه الشخصيات لا يمكن فى حد ذاته أن يكون له أى تأثير يتجاوز المجال الهامشى لهواة قصص الخيال العلمى، بيد أن الكائن السيبرنيطيقى، كفاعل "غير إنسانى" لا يمكن اختصاره إلى مجرد صورة؛ والحق أن العلم والتكنولوجيا

(١) إلهة الحكمة والمعرفة والفنون والحرب عند الرومان. (المترجم)

يتقدمان أكثر فاكثراً مما يخلق على نحو طبيعي "غير البشر" نوى طابع مصطنع: الآلات فائقة السرعة (nanomachines) ، الروبوت والاستتساخ. بينما رد الفعل ما بعد الحداثي يمكن أن يتساعل بدوره، "أه، لكن لا يمكن لأى شيء، حتى ولا العلم أن يفلت من مملكة العلامات، وجميع الثقافات قاتلت في هذا المجال، في عالم مروي على نحو لا مفر منه وليس "طبيعياً" والعلم جزء من الثقافة في خاتمة المطاف". وتظل هارواي حذرة من المطالبة بأن تكون "الطبيعة" مختزلة إلى "رواية سردية" أو العلم إلى علامات. وبالأحرى فمن المهم عندها وعند غيرها من دارسي العلم ما بعد الحداثي عدم القيام بهذا الاختزال، بل على الأصح اعتبار "الأنواع الهجينة" حلقة الصلة بين القضايا العلمية والثقافية والسياسية دون ربط الحقيقة بالخطاب. وقد أصبح الهجين والشبكة التي تكون فيه نقطة التقاء بمثابة الوسيلة المفهومية الحاسمة في تنظيم دراسات العلم في مجال ما بعد الحداثة. وبدلاً من أن تكون إما رواية سردية أو طبيعية، وإما أن تكون واقعية أو محاكية مقلدة فإن دراسات العلم ما بعد الحداثي مثل دراسات هارواي أو Michel Serres أو Bruno Latour انهضت في تأكيد نهج "هجين" وجامع لشبكة الأحداث والمشكلات والاختراعات والتكنولوجيات والقصص الخيالية وضروب المحاكاة والأفكار التي ميزت على نحو أكثر ملاسة الدور الاجتماعي للعلم. ويقدم الاتجاه النازع إلى الطبيعة والمنسجم معها في الدراسات المبكرة للعلم والمنعطف "السردى الطابع والنزعة" في النهج التفكيكية الأحدث صوراً سيئة للعلم. ولذلك فإن الكائن السيبرنيطي Cyborg عند هارواي يجمع بين هجين "الطبيعة- الثقافة" للعالم المتقدم علمياً وتكنولوجيا ونقدياً، وصعود "العناصر الفاعلة غير البشرية" في العالم المعاصر.

ويتلام مفهوم الهجين والشبكة مع الخيال ما بعد الحداثي. وبدون ماهية وهوية جوهريتين، فإن ما بعد الحداثيين يتكونون من هجين من المؤثرات الثقافية والهويات العرقية والجنسية والأحداث التاريخية والذكريات الواقعية (ذكرياتي) والمتخيلة (ذكرياتي من السينما). وفضلاً عن ذلك فإن فكرة Deleuze و Guattari عن نوعين من البنية التنظيمية، أحدهما عمودي، منفصل ومن أعلى إلى أسفل و"شجري الشكل" أو "شبيه بالشجرة"، والآخر أفقي ومتعدد الصلات ومن أسفل إلى أعلى وممتد في الأرض

بما يشبه الساق الجذرى فى بعض النباتات- "الريزوم"^(*) يمزج بسهولة صورة ملائمة للعلاقات المفهومية لما بعد الحداثة، حيث تنتشر الصلات وتتعدد بدلاً من أن تكون مقيدة بالتسلسل الهرمى التراتبى المفروض وغير المرن، وباستخدام منهجيات مستخدمة فى الرياضيات والطبيعة وبحوث الذكاء الصناعى (ومن نواح عديدة فإن هذا التوافق بين الطبيعة والثقافة هو أحد الجوانب الفاتنة فى عمل Guattari و Dieuze). وحتى الآن فإن الذهاب إلى مدى أبعد والحث على طرح سؤال "قصة الخيال العلمى أو الواقع الاجتماعى" أى الشبكات وفقاً لجان فرانسوا ليوتار قد أصبح أحد أكثر العوامل الفاعلة غير البشرية أهمية، بل النهائية فى إنتاج عالم ما بعد الحداثة، وحتى اقتراح أن "ما بعد الحداثة" لا يشير إلى أنه يأتى عقب الحداثة بل إلى "الوظيفة" التى تربط فيما بين الذات والموضوع فى المجتمعات التى يحكمها الكمبيوتر.

وبينما نستطيع الآن أن نرى كيف تصبح دراسات العلم بسهولة قابلة لعملية ما بعد الحداثة فيظل من المشكوك فيه إلى أى مدى يمكن اعتبار العلم ما بعد حدائى. وربما توجد طريقتان للتفكير فى علم ما بعد الحداثة، أولاً العلم الذى يكشف عن بعض القسّمات المرتبطة على نحو مشترك مع ما بعد الحداثة، وثانياً العلم الذى يطلق على نفسه اسم ما بعد الحداثة، وكثير من العلم الحديث يدعو إلى الوصف باعتباره ما بعد حدائى، وحتى ليوتار فى "أحوال ما بعد الحداثة" يرفع Rone Thom و Benait Mandelbrot إلى مرتبة القداسة بوصفهما من ممارسى علم ما بعد الحداثة. ويبدو توم بصفته خاصة ما بعد حدائى فى أبحاثه "الهجينة" فى الرياضيات والعلم والأنثروبولوجيا والسيميوطيقا (علم العلامات) ونحن نعلم أننا على درب ما بعد الحداثة عندما نقرأ أن "العلماء سحرة"! وفى الوقت نفسه فإن النماذج Fractals^(**) التى قدمها Mandelbrot

(*) Rhizome - الجذمور: الساق الجذرى هو الدرة التى تمثل ساقاً غنية 'بالأبعاد' والعلاقات رغم وجودها تحت التربة ويعيش عليها كثير من الكائنات الحية، ولذلك فهو يمثل جوهر 'الربط' بين أنواع مختلفة من العلامات وأنواع شتى من النظم غير العلامية (راجع محمد عنانى - مرجع سابق). (المترجم)

(**) نظرية جديدة فى المجال الرياضى والهندسى اتضحت معالمها فى بحث ماندلبرو (١٩٧٥) المعنون : Objects Fractals: Forme, Hasard et Dimension ثم امتد تأثيرها إلى مجالات علمية عديدة وتصف الأشكال والنماذج المعقدة غير المنتظمة التى تكرر ذاتها فى جزئياتها فيما يعرف Self-Similar Object بحيث تأتى الجزئيات ماثلة للشكل الكلى وذلك على خلاف الأشكال الهندسية الإقليدية: المربع والدائرة وما إلى. وتقدم الطبيعة أمثلة على ذلك مثل فروع الأشجار المتشعبة وتشعبات القصبة الهوائية وتفرعات شبكات المياه والسلاسل الجبلية وميكانيكا السوائل (الحركة البرونية). (المترجم)

قد أصبحت أيقونة للعمليات الهولوية Chaotic التي يلوح أنها مناسبة كثيراً لكى توجز أشكال التجزئة اللانهائية لما بعد الحداثة، مع الرياضيات التى تفرق الآن إستراتيجية تقريب المثل الأعلى والأشكال غير المتغيرة لعالم إقليدس من هندسة التغير اللانهائى والتنوع. وإذا كانت الهندسة فى ظل Mandelbrot تعود إلى الأرض فعندئذ ما علينا إلا إثبات أن الأرض، التى اعتقد من قبل أنها مسطحة (قبل العصر الحديث) ثم كروية (العصر الحديث) هى الآن نموذج هندسى Fractal ولا متناه وبذلك يثبت ما بعد حداثتها بالبرهان. ومع ذلك، فإن عدم إمكانية أن تكون هذه هى "الحقيقة" هى التى تجعلها ما بعد حداثية، وعلى الأصح فإن الفكرة المتناقضة بحدّة "للطبيعة ما بعد الحديثة" وحتى متابعة هذه المفارقة عن طريق نظرية الكارثة والهندسة^(*) Fractal هى التى تحدد أهدافها بوصفها "ما بعد حداثية".

بيد أنه حتى بين العلماء هناك من يدافع عن اتجاه ما بعد الحداثة. وعلى الرغم من أن ليوتار قد سك هذا المصطلح فى ١٩٧٩، فإن العلم ما بعد الحداثى ظهر بهذا السياق المتشدد فى العنوان الفرعى لكتاب "The Return to Cosmology" الذى قدمه عالم الكون Stephen Toulmin فى ١٩٨٢. بيد أن ما يشير إليه فى كتابه يمكن التعرف عليه بوصفه ما بعد الحداثة بدرجة من عمل Mandelbrot و Thom المذكور أنفاً. وكما رأينا فعلاً عند مناقشة هارواى فإن العلم الحديث وممارسيه وفلاسفته قد رسموا صورة للعالم تهيمن عليها نوات نشطة سعياً وراء معرفة أشياء وموضوعات سلبية فى الأساس فى هذا العالم. وعلاوة على ذلك، كان على الطبيعة أن تفتح عنوة لحماقة العالم النافذة، كما يمكن أن يرى من جميع الروايات الساردة للبطولة العلمية التى تملأ صفحات الحكايات الشعبية للاكتشافات العلمية الكبرى. ومن ثم فإن العلم الحديث "يشيئ" الطبيعة، معتبراً إياها شيئاً يتشكل إرادياً لتحقيق أغراض النوات الفاعلة

(*) نظرية رياضية ترى أن بعض التغيرات الجيولوجية الكبرى فى تاريخ الأرض حدثت بفعل كوارث وليس بمقتضى عمليات تطور تدريجى. (المترجم)

وبهذا الانقسام الثنائي القطبية طرح العلم نفسه المشكلة المستعصية على الحل لسد الفجوة بين المعرفة المزعومة للذات والتكوين الفعلى للموضوع ذاته.

وبينما يلوح أن هذا التوصيف بالغ التجريد وميتافيزيقى، فإنه يحتل بؤرة الاهتمام عندما يمعن النظر فى الموضوعية التى تكتنف مثلاً المناقشات فى مجال علم الرئيسيات (أعلى مراتب الحيوانات الثديية). وعقب رحلات Jame Goodall التى حظيت بشهرة إعلانية واسعة فى مجال دراسة الرئيسيات الكبرى، انفجرت فضيحة عندما كشف الستار عن أنها حلت مشكلة إجراء "أول اتصال" مع مجموعة من الشمبانزى بإلقاء الطعام إليها. وزعم الطاعنون فى ذلك أن هذا أفسد دراستها ما دامت قد أفسدت العادات، حيث تدخلت بطريقة غير مقبولة لتغيير الظروف التى بموجبها ارتبطت بها الشمبانزى، مما أثار الشكوك فى الطابع اللاحق لسلوكها.

وبطبيعة الحال فقد واجه آخرون هذه المشكلة وقد افترض الفيلسوف ويلارد فان أورمان كوين Willard Van Orman Quine^(*) الوضع التالى الذى سماه "الترجمة الراديكالية"، مفترضاً أنك حين تكون عالم أنثربولوجيا تزود ثقافة لم تكتشف حتى الآن، وتريد أن تفهم لغتها، وبما أنك لم تسمع أبداً بما يتجاوز هذه الثقافة؛ فلن تكون لديك المقدرة على الاستمرار، فكيف تبدأ إذن فى تجميع قاموس؟ ويتعين على عالم الأنثربولوجيا وفقاً لإجابة Quine أن يفترض أن أعضاء الثقافة الأخرى نظموا عالمهم اللغوى على نحو لا يختلف، فى جميع الجوانب الأساسية، عما فعلنا ونتيجة لهذا الافتراض الذى أطلق عليه اسم "مبدأ الإحسان التأويلى" فإن الموضوعية تغدو لا معنى لها. ولا تغدو الثقافة قيد الدراسة موضوعاً بقدر ما هى مجموعة نوات يتعين فهم أفعالهم من خلال النشاط العلمى، لكن ما الأسس المتوفرة لنا، خلاف البراجماتية

(*) كوين المولود فى عام ١٩٠٨ فىلوسوف وعالم منطق أمريكى، يعتبر ممثلاً للوضعية الجديدة الأمريكية، متأثراً بالوضعية لدرسة فيينا، منتقداً الواقعية الجديدة، متجهاً نحو ما يسمى بالمذهب الاسمى Mimal-ism الذى يرى أن الأعيان لا وجود لها إلا بأسمائها (النظرية الاسمية اللغوية). وهو أقرب ما يكون إلى الدراسة المنهجية للغة التى يتكلمها الناس وتتصورها القويوات (علم اللغة). (المترجم)

المحضة لكي نعد ما أسماه Quine الافتراضات "الخيرية"؟ وعلى سبيل المثال فقد تساءل دائماً عالم الأنثروبولوجيا كلود ليفي شتراوس Levi Strauss عن كيفية إمكان أن نتجنب، عند دراسة الثقافات الأخرى، تلويث العينات أو الأمثلة بالتحيز المستورد المتعلق بثقافة العالم الدار. وحتى وجود العالم يغير الوضع على نحو مهم لا رجوع فيه، عن طريق إيجاد "تباينات واختلافات" بينما لا توجد، فارضاً على الثقافة أن تواجه دخلياً جديداً وبذلك يتعين عليها أن توائم علاقاتها معه. وكان الحل الذي قدمه ليفي شتراوس هو عدم محاولة التقليل من شأن الاتصال أو إخفاء حضوره، والافتراض أن الاختلاف كان تافهاً، لكن يجب محاولة الاستغراق في الثقافة الأخرى والتلاؤم، كما عبر عن نفسه، مع "اللغة المنطوقة بأساطيرها".

وإذا كانت هذه السيناريوهات تثير إشكالية الموضوعية من وجهة نظر مجردة فإن عالمة الحيوان Dian Fosse^(*) التي سارت على خطى Goodall قد طرحت المشكلة في تركيز أخلاقي صارخ وكانت موضوعية Fosse يكتنفها الشك لدرجة أنه جرى تداول روايات عن احتمال إقامتها "علاقات غير طبيعية" مع غوريلا. وتفاقت الأمور واشتد غضبها عندما اصطاد الصيادون الغوريلا المفضلة لديها وقطعوا رأسها، مما دفعها إلى اقتفاء أثر الصيادين بدورها، لكي تصبح ضحيتهم القادمة وفي مثل هذه الظروف فإن المسألة لا تتعلق بكيفية الحفاظ على الموضوعية العلمية الملزمة والتجرد، بل كيف يمكن أن يكون هذا التجرد مرضياً. وقد وعى العلم ما بعد الحداثي، طبقاً لما يراه Tolmin هذا الدرس: فالطبيعة ليست موضوعاً، أو شيئاً يواجهنا يتعين علينا إخضاعه لكي نتمكن من معرفته، وبدلاً من ذلك أصبح العلم ما بعد الحداثي جزءاً من "الحوار الجديد للإنسان مع الطبيعة" كما يحدد منظرو التعقيد من أمثال Labelle وIlya Prigogine وStengers وبعد قرون من إخضاعها للتعذيب فإن الذات العارفة تقرر أن الطبيعة من

(*) عالمة حيوان بريطانية مولودة في ١٩٣٤، اهتمت بإجراء دراسات مهمة ومعقدة عن الشمبانزي في تنزانيا وخاصة في منطقة بحيرة تنجانيقا. (المترجم)

الأفضل تصويرها كشريك محاور. وعلى غرار "المحادثة البرجوازية لشمال الأطلنطي" المستمرة عند Richard Rorty فإن العلم ما بعد الحدائى اكتشف أنه حتى دون الحرص على الصفاء فإن النظام الحديث للحقيقة والموضوعية "من المفيد التحدث معه".

بيد أن المعانى الإضافية التأويلية لهذه الرواية للعلم ما بعد الحدائى تحدد معالها بوصفه ما بعد حدائى بدرجة أقل مما قد يعترف كثير من الفلاسفة وعلماء "النظرية النقدية". وعلى نحو متناقض فإنه يلوح أن العلم ما بعد الحدائى قد تعلم فحسب دروس النقد التأويلى "لجوهر العلم الحديث" الذى اضطلع به مارتن هيدجر، الذى بالغ فى الاستقطاب بين شدة الولوج بإصغاء الطابع الرياضى على الموضوعات والأشياء العادية الهامدة والإصغاء على نحو غير كاف إلى كينونة الطبيعة، وإلى كيف تكون الطبيعة. ويرى هيدجر أن العلم الحديث فرض صورة على الطبيعة، بدلاً من أن تميظ اللثام عنها وتكتشفها، حجبها مرة أخرى، بحيث إن "عصر صورة العالم" هيمن على كل إجراءات العلم الحديث واكتشافاته بيد أن هيدجر الذى لا يعد حدثاً فريماً يعتبر معادياً لما بعد الحدائى وليس من أنصارها. وكذلك فإن التحول "الاستطاردى" لجعل الطبيعة شريكاً فى الحوار وإزى دفاع يورجن هابرماس عن "مشروع الحدائى غير المكتمل" فى مواجهة التنصل ما بعد الحدائى من مثلها العليا.

ومع ذلك، ومرة أخرى فإن "صورة العالم" عند هيدجر ترجعنا إلى قضية ما إذا كان العلم يدرس الطبيعة أو التمثيلات لها أو الجوهر أو العلامات. وربما كان من المثير للدهشة أن تناول اتجاهات الأمارات والتمثيلات والمحاكاة هو الذى يقود حالياً معظم ما بعد الحدائى التى يمكن تمييزها بشكل أكبر فى المجالات العلمية، وأن العلوم الاصطناعية شنت بالفعل هجوماً مزدوجاً على العلم الحديث لإيثاره الطبيعة على التمثيلات من ناحية، والتحليل على التركيب والتوليف Synthesis من الناحية الأخرى. ومن الناحية الأولى فإن أبحاث الذكاء الصناعى (AI) كانت دائماً مهتمة ببرمجة وظائف الفهم باعتبارها مفتاحاً للذكاء أقل من اهتمامها بمحاكاة الذكاء. وهكذا فإن "اختبار

تورنج^(*) (Turing) [اختبار الذكاء بالكمبيوتر - المترجم] بالنسبة إلى آلة تورنج التي أطلق عليها اسم مخترعها، يضع شخصاً في حجرة مقسمة إلى جزأين حيث تعطى التعليمات، عن طريق آلة كاتبة، للانخراط في محادثات من وراء الحائط. وتجتاز الآلة اختبار الذكاء إذا انخدع الشخص معتقداً أن الآلة التي تحدث هي شخص آخر وهنا الطبيعة أو جوهر الذكاء الإنساني أقل أهمية من مظهره: فالسلوك بذكاء أو ما يبدو كذلك يعد كافياً وكما يقول ليوتار عن معرفة ما بعد الحداثة بعامّة، لم يعد الهدف هو الحقيقة، بل الأداء والإنجاز. ونحن لا نحتاج إلى معرفة ما هو الذكاء حقاً وإنما كيفية حفره فقط، ومن الطبيعي أن الذكاء الصناعي يطرح كذلك أسئلة تتعلق بطبيعة الذكاء الإنساني، وهي أسئلة أسفرت، للسخرية، عن آلات تشكل الذكاء الإنساني بدلاً من أن تسفر عن الإنسان الذي يقدم "البرنامج" لذكاء الآلة وفضلاً عن هذا فإن الطريقة التي تعلم بها الآلات في أبحاث الذكاء الصناعي تنقسم وفقاً لتعبير ديلوز وجاتاري، بما يمكن وصفه بالساق الجذري^(**) أكثر مما تكون شبيهة بالشجرة، فالتعلم يقيم ارتباطات وصلات بين الأشياء بدلاً من الغوص في الشيء لاستخراج أكبر قدر ممكن من المعلومات، وفي مجال الذكاء الصناعي فإن هذا النهج يسمى لذلك بالارتباطية أو الترابطية، ومعدات الكمبيوتر hardware التي تعلم من خلال هذه الوسائل تسمى "الشبكة العصبية"، التي تستأصل الفرق بين الخلية العصبية (Neuron) الاصطناعية والحقيقية. وبدلاً من صورة الكمبيوتر الفائق الشبه بالجرة مثل IAL 9000 من فيلم ٢٠٠١: أوديسا الفضاء التي يجب برمجتها بذكاء قبل الاضطلاع بوظائف الذكاء فإن الشبكات العصبية تشكل شبكات شبيهة بامتداد الساق الجذري من الكمبيوترات التي تتفاعل مع بعضها البعض، ومن خلال هذا التفاعل تحول البيانات العشوائية إلى

(*) تجريد رياضي لجهاز بشكل يماثل عمل الحاسب. وتورنج (١٩١٢ - ١٩٥٤): عالم رياضي بريطاني طور المفهوم النظري للكمبيوتر، بحيث مثل الخطوة الأساسية في تطوير أولى الحاسبات الإلكترونية. كما تقسم ويحت مجالات الذكاء الصناعي. (المترجم)
(**) راجع الهامش الأول في ص ١٠٩ (المترجم)

نماذج ظاهرة، وبذلك يتم التعلم بالفعل. وقد أصبحت "العقول السيبرنيطيقية" لقصص الخيال العلمى فى خمسينيات القرن العشرين واقعاً محاكياً لعلم القرن العشرين.

بيد أنه ربما كان أوضح جميع علوم ما بعد الحداثة هو الحياة الاصطناعية (AI) التى تستغنى عن الطبيعة أجمع، وتدرس بدلاً من ذلك الأفعال والتطورات المحاكية لمخلوقات مكونة من عناصر ضوئية فى بيئة الكمبيوتر ومن المؤكد فى خاتمة المطاف أن العلم يدرس العلامات والتمثيلات بدلاً من الطبيعة. بيد أنه، مرة أخرى، فإن الفرق بين الواقعى والاصطناعى هو الذى جرى القضاء عليه، وهكذا فإن Thomas S. Ray عالم البيولوجيا التطورية والباحث فى الحياة الاصطناعية حمل هذا العلم الظاهرى مزيداً من التناقض، معلناً فى المؤتمر الدولى الرابع لهذا الفرع العلمى الجديد الذى انعقد فى ١٩٩٤ أن عمليات الحياة المتتالية التى تدرس فى نطاق الحياة الاصطناعية ليست اصطناعية بل طبيعية، وأن أشكال الحياة الناتجة لا "تحيا" إلا فى بيئة اصطناعية وهكذا فإن الحياة الاصطناعية تؤقلم ما هو اصطناعى وتجعل محاكاة الحياة لا يمكن تمييزها عن المقابل لها فى الحياة الحقيقية ومن ناحية ما، فإن Ray وغيره من الباحثين فى مجال الحياة الاصطناعية محقون تماماً: فأى تعريف حالى للحياة، والحركة الذاتية، والتغذية والإفراز، والنمو والتناسل- يمكن أن يستبعد هؤلاء الدخلاء الاصطناعيين من العالم الطبيعى للبيولوجيا التطورية حتى لو كانت الحياة موضع التساؤل قائمة على السليكون بدلاً من الكربون؟ ومن هذا القبيل من يمكنه القول إن الذكاء الصناعى لن يسفر عن بروز أنواع جديدة اصطناعية فى الكرة الأرضية. ويمكن لمؤرخى المستقبل لهذه الأنواع أن يتطلعوا إلى الوراء، كما يرى Manuel de Landa، إلى العصر الذى كان فيه البشر يقومون بتجميع الآلات وتركيبها بوصفه عصرًا كانت تحتاج فيه الآلات إلى مجرد أعضائها التناسلية وأنه يتعين على البشر مساعدتها بوصفهم قائمين بالتلقيح فى مرحلة معينة من تطورها. وقصص الخيال العلمى مليئة بكل تأكيد بهذه الأنواع الآلية الناشئة- ولنتأمل مثلاً Skynet الكمبيوتر المركزى فى Terminator، أو Terminator نفسه، حيث تطور من خلال تدخل علماء التلقيح- ولكن لنتذكر إيضاح

هاراواي للاستمرارية الزمنية التي تحول الخيال إلى حقيقة، وهذا لا يشجع الرأي القائل إن تلك الأنوع ليست على مقربة منا أو بالأحرى إنها تنتظر أن تهبط علينا في المستقبل القريب.

ومع العلوم التي تتعامل مع ما هو اصطناعي فإننا نجد قيام صلة مهمة بين العلم والتكنولوجيا فيما بعد الحداثة: فالحياة الاصطناعية يتعذر تحقيقها دون البيئة التكنولوجية التي "تربى" فيها مخلوقاتنا. وكما في المحاكاة العلمية فالأمر كذلك في النهج ما بعد الحداثي. وطور جان بودريار، مثلاً نظريته عن المحاكاة Simulacra على أساس عمل وسائل الإعلام (الميديا) وكيفية سيرها، (فمجتمع الفرجة أو العرض المشهدي) لا يفضل أن ينفصل عن التكنولوجيا التي تدعمه. ومع المحاكاة فإن الأشياء اكتسبت بعض التعقيد ليس على صعيد النظرية فحسب، بل أيضاً الواقع التكنولوجي، وأضحى من المستحيل، كما كان الأمر من قبل، معارضة الواقعي بالاصطناعي. ويشير Bruce Sterling مؤلف قصص الخيال العلمي Cyberpunk إلى أن التسويق الواقعي لقصص الخيال العلمي يتحقق في مجتمع قصص الخيال العلمي الذي نعيش فيه. وبالتالي عندما يتغاضى فريدريك جيمسون عن أي مناقشة لقصص الخيال العلمي Cyberpunk في كتابه الهائل "ما بعد الحداثة أو المنطق الثقافي للرأسمالية في مرحلتها الأخيرة" (١٩٩١)، فإنه لم يغفل فقط أحد المكونات الحاسمة في ثقافة ما بعد الحداثة، وإنما هو أيضاً يحيط هذه الثقافة بسياج بعيداً عن التطور التكنولوجي الداري الذي نشهده جميعاً في صعود المجتمع الذي يسيطر عليه الكمبيوتر، إن إغفال التكنولوجيا هو الذي يتيح لجيمسون تكوين صورة لنزعة ما بعد الحداثة تظل مقتصرة على الظاهرة الثقافية، فهي مجرد عاكسة بدلاً من كونها حاتة على التغيرات الاقتصادية والتكنولوجية في البنى الاجتماعية، بيد أنه في هذا السياق التكنولوجي على وجه الدقة حيث قام ليوتار في كتابه الشهير عن أحوال ما بعد الحداثة بوضع مصطلح "علم ما بعد الحداثة". ولكي نرى ماذا يعنى العلم ما بعد الحداثي في هذا السياق يتعين علينا أن ننظر في الخلفية التكنولوجية التي انبثق منها بوصفه ممارسة ما بعد حداثية متميزة.

إن الوضع ما بعد الحداثي هو الوضع الذي انهارت فيه مصداقية "السرديات (النظريات) الكبرى". ولم يوجد في مكانها سوى "ألعاب لغوية" متميزة، والقواعد

التي تحكمها "غير قابلة للقياس" أو غير متناسبة فيما بين بعضها البعض. وتعني فرضية "اللا قياسية"^(*) المستمدة من وصف Thoms Kuhn من عدم وجود "قاسم مشترك" بين مختلف "النماذج" العلمية، أى أنه لا توجد مجموعة واحدة من القواعد يجب أن تؤدي بمقتضاها جميع الألعاب اللغوية. وبالنسبة إلى ليونار كما هو الأمر بالنسبة إلى هابرماس فإن اللغة، على أية حال، تظل هي الطريقة التي يتشكل بها "الرباط الاجتماعي" ويدوم، ولذلك فإن النتائج المترتبة على عدم القابلية للقياس تحدث نتائج اجتماعية وسياسية هائلة، تؤثر على الطريقة التي ترتبط بها مختلف الجماعات التي يتكون منها أى مجتمع لكي تشكل مجتمعا واحداً. وكما حدد لودفيج فيتجنشتاين^(**) Ludwig Wittgenstein فإن الألعاب اللغوية ليست مجرد تبادل السلوك اللفظي، بل هي مرتبطة ارتباطاً لا انفصام فيه بأشكال الحياة. ولذلك فإن العلم أحد ألعاب اللغة، أحد أشكال الحياة من بين أشكال أخرى مثل التسوق أو السياسة أو الفلسفة أو العمل.

بيد أنه في أواخر القرن العشرين احتل العلم مكانة حاسمة في تكوين أحوال ما بعد الحداثة، ولا يرجع ذلك إلى محتوى الأفكار العلمية بقدر ما يرجع إلى المركز الاقتصادي القوي الذي يتمتع به في ظل رأسمالية أصبحت مقترنة بالتقدم التكنولوجي. ولم يعد مهتماً بالسعى لمعرفة حقيقة الطبيعة ما دام بقاؤه الاقتصادي مرتبطاً بإنتاج تكنولوجيات جديدة: فالعلم لا يمكنه أن يرغب فحسب في أن يعرف، بل يجب أن ينجز أو يقوم بعمل ما. وبذلك فإن "التكنو- علم" هو الأداة الأساسية لتطور الرأسمالية في مجتمعات ما بعد الحداثة. وبطبيعة الحال، فإنه بقدر ما تطورت

(*) incommensurability مصطلح مأخوذ من المجال الرياضي ويسمى الأعداد أو الكميات الصماء غير المتقاسة، فلا يوجد بينها قاسم مشترك إلا العدد واحد(١) وانتقل إلى المجال اللغوي بما يعنى أن اللغات لا قاسم بينها. (المترجم)

(**) كان لودفيج فيتجنشتاين (١٨٨٩-١٩٥١) الفيلسوف البريطاني المولود في النمسا، والذي اهتم بدراسة اللغة في علاقتها بالعالم، هو أول من استخدم مصطلح الألعاب اللغوية بوصفها وسيلة لاستخدام علامات أبسط من العلامات المستخدمة في علاقات اللغة اليومية، وزعم أن هذه هي أشكال اللغة التي يستخدمها الأطفال للمرة الأولى، كما أنها الأشكال الأولية للغة أو الكلمات. (المترجم)

الرأسمالية فى محاذاة التغير التكنولوجى منذ مطلع الثورة الصناعية فلا جديد فى الأمر. وقد كان لتكوين المصانع وصعود الآلية التلقائية (الأوتوماتية) تأثيره المباشر على الحياة العامة للأفراد وعلى البنى الاجتماعية التابعة من هذه التغيرات وما هو جديد فى "التكنو- علم" الرأسمالى لما بعد الحدائى هو أولاً مكرس لتحقيق أقصى قدر من الربح بأى ثمن: الحد الأدنى من الداخل (تكلفة العمل، والآلات والصيانة والإدارة واللوائح التنظيمية) والحد الأقصى من الخارج (الإنتاجية والتنظيم الذاتى والأوتوماتية التدريجية والربح). ومن ثم فإن العلم يعيش ويبقى على أساس إسهامه فى هذا النظام، وفى أحوال ما بعد الحدائى وبالنظر إلى انهيار السرديات (النظريات) الكبرى فلم يعد فى وسع العلم أن يبرر نفسه أو يضفى مشروعية على ممارساته بالتماس القيمة المتصلة فى "المعرفة فى حد ذاتها" ما دامت المعرفة لذاتها ليست سلعة قابلة للبيع وعلى النقيض من ذلك فإنه يتعين على المعرفة العلمية أن تترجم إلى نجاح اقتصادى، مما يجعل "التكنو- علم" متناسباً مع الرأسمالية ويساعد فى اختزال جميع الألعاب اللغوية إلى قاعدة الربح الوحيدة.

ومرة أخرى، فإنه يمكن الاعتراض على هذا بأنه لا جديد فى الأمر: فقد كان العلم دوماً خاضعاً للسيطرة من خارجه، سواء أكانت الدولة التى حظرت فرضيات جاليليو أم الديناميكا الحرارية التى اختارها رأس المال الصناعى أو الفيزياء النووية التى اختارتها القوات المسلحة، والجديد فى هذا الوضع هو المدى الذى أصبحت فيه الرأسمالية معتمدة بشكل متبادل على "التكنو- علم" فى صورة المجتمع المنضبط بالكمبيوتر. وغدت النقود، ورأس المال نفسه سيلاً متصلاً من المعلومات، مما يغير الرهانات من الحد الأقصى من الربح إلى الحد الأقصى من "المعلومات". و"التكنو- علم" رأسمالى الطابع دوماً بالنظر إلى خضوعه لقاعدة رأس المال الأدائية، لكن الرأسمالية أضحت ذات طابع تكنولوجى علمى بدورها ومن ثم فإن "التكنو- علم" الرأسمالى يندفع الآن صوب بلوغ الحد الأقصى من المعلومات الخاصة أو الشخصية.

وبينما تنافس رأس المال والعلم في فترة الحداثة على السلطة فإن التكنو- علم
الرأسمالي الما بعد حداثى قد حولهما معاً في الاتجاه المعلوماتى بوصفه مقياس السلطة
والقوة. ومن هنا كان التعليق الغريب لليوتار خلافاً لذلك، مقدماً "الحل" لوضع ما بعد
الحداثة: منح الجمهور حرية الوصول إلى قواعد البيانات* (هل يمكن أن تتخيل أن
ماركس ينصح رأس المال بكل بساطة أن يمنح الجمهور حرية الوصول إلى النقود؟).

وبطبيعة الحال، فإن "وصفة" ليوتار بمنح حرية الوصول إلى المعلومات تستخدم
لعبة لغوية تتعارض مع القاعدة الرأسمالية؛ ولهذا السبب فإن اللعبة ينبغي أن تؤدى
على نحو تجريبي وليس فى اتساق مع أصولها المتبعة، كما أن هذا لا يستدعى اعتبار
التجريب، كما عند جيمسون، من منظور جمالى أو ثقافى فقط فلا يدعو ليوتار إلى
مجرد نهضة فنية تماثل وتتماشى مع طليعة أوائل القرن، بل إنه يسترعى الانتباه أيضاً
إلى وضعية العلم فى ظل رأسمالية ما بعد حداثية وتاماً كما أن التكنو- علم
الرأسمالى يرمى إلى تعظيم فعالية أو "أدائية" اللعبة فكذلك يستهدف علم ما بعد
الحداثة إفساد هذه القاعدة وإحباطها، وفقاً لما قاله ليوتار، بغرض البحث عن المفارقة
والتناقض الظاهرى. وبدلاً من أن يضفى العلم المشروعية على نفسه بالإحالة إلى
المعرفة أو التقدم فإنه يضفى المشروعية على نفسه الآن بالتنافس مع اللعبة الرأسمالية
فى مسعاه لا نحو "المكسب أو الفوز"، بل نحو إحباط القواعد وتوليد المفارقة وهكذا فإن
أطروحة Mandelbrot فيما يتعلق بالأبعاد Fractal^(*) اللا نهائية لساحل مقاطعة
بريتانيا فى فرنسا أو أطروحة Thom عن الكارثة التى تحدث عندما يقوم الكلب الخائف
أو المفزوع، فى موضع مورفولوجى معين، بالهروب من، ومهاجمة المعتدى، تضيفان
مشروعية لا على نظام التكنو- علم، بل على التجارب فى العلم كلعبة لغوية، وكشكل
بديل للحياة. وتاماً كما زعم نيتشه من قبل فإن عهد السعى إلى الحقيقة قد انتهى،

(*) راجع الهامش السابق فيما يتعلق بمصطلح Fractal صفحة ١١٠. (المترجم)

وعاش البحث عن الزائف غير الحقيقي. وبهذا المعنى فإن علم ما بعد الحداثة لا يختص بمجرد معرفة العالم الطبيعي ولا يتعلق بأكثر الوسائل فعالية لارتقاء تحكم الكمبيوتر وسيطرته على المجتمع الشامل، وإنما يختص باختراع أشكال من التجريب الاجتماعي والتقني والسياسي.

ومن ثم نستطيع أن نرى أنه ثمة مقاربات مختلفة عديدة لمسألة علم ما بعد الحداثة، بدءاً من التحديات الأسطورية لدراسات علم ما بعد الحداثة وصولاً إلى تحديث صورة العالم العلمية والسعى وراء عدم المعرفة وربما كانت أعظم سمة فردية محددة لكل السمات في العلم ما بعد الحداثة - انطلاقاً من العلم كنشاط ثقافي وصولاً إلى منهجيات البحث الفردية في برامج مثل العلوم الاصطناعية والفلسفات الجديدة للإبستمولوجيا لما بعد حداثة والمفارقات الجامعة التي تربط علم آخر القرن العشرين بالسحر البدائي أو إعلان الدوام اللانهائي للخطوط الساحلية - تتمثل في ظاهرة الشبكة المعلوماتية والريزوم (Rhizome) الامتداد الجذري) والشبكة العصبية. وإن الجمع بين الفلسفة والعلم والطبيعة والثقافة والتكنولوجيا والسياسة والواقعي والاصطناعي بهذه الطريقة بما يجعل من المستحيل الفصل بينها وتنقيتها ربما يجعل من الشبكة المعلوماتية، بما تتسم به في أن واحد من طابع مفهومي وعصبي ودفاعي وخلل رأسمالي رهيب ويوتوبيا فوضوية وما هو اصطناعي وما هو واقعي تكنولوجيا، ليست هي فقط سمة العلم ما بعد الحداثة بل سمة المجتمعات ما بعد الحداثة بعامه وبينما يبدو التكنو- علم مجزأ فإنه يكفل ارتباط مجتمعات ما بعد الحداثة بشبكة المعلومات على نحو غير مسبوق مكونة - كما يطالب ليوتار - "قشرة مخية ثانية" يبرز منها لويثان (حوت رهيب ورد ذكره في التوراة) عملاق ما بعد حداثي وسبيرنيطقي وتكنو علمي، مثل يومة مينيرفا (إلهة الحكمة والمعرفة عند الرومان) الاصطناعية التي تنبثق من الرأس الكمبيوترية المصغرة لزيوس^(٥).

(٥) تعد "اليومة" في الثقافة الميثولوجية الغربية (ولها دلالات مختلفة عن دلالاتها في الثقافة العربية) رمز أثينا التي تجسد الحكمة والمعرفة، وجرى تشبيهها عند الرومان بيمينيرفا، وبالتالي غدت "اليومة" رمز مينيرفا التي تجسد الحكمة والمعرفة أيضاً. وزيوس: كبير آلهة اليونان وجرى تشبيهه بجوبيتر عند الرومان. (المترجم)

الفصل السابع

ما بعد الحداثة والفن المعماري

دايان. مورجان Diane Morgan

بينما كانت شابة تقود سيارة عبر صحراء كاليفورنيا قابلت طالباً اشترك في النشاط النضالي لحركة مايو ١٩٦٨ . أطلقت عليه الشرطة النار فيما بعد. ويفضل هذه المقابلة تفتحت عينها على المادية الرأسمالية المحيطة بها: تقشى الثقافة الاستهلاكية، وعدم المساواة الاجتماعية، والمعاملات المشبوهة للعمليات التجارية الكبرى ووصلت إلى مقصدها في وسط الصحراء وجعلت منزل رئيسها: واحة حديثة رائعة ذات هيكل كابولي من الصلب به نوافذ ضيقة مطولة يجثم على طبقة بارزة من الصخر الأجرد وكان في وسعها أن ترى من خلال التصميم الأنيق لشكلها المهيأ سلفاً المهجن الشكل المصقول المخفي بمهارة كما لو كان يتعلق على نحو طفيف بالمحيط الطبيعي، بما يوجز الاستغلال المنتشر في المجتمع ككل، وتبادلت نظرات ذات مغزى مع الهنود الأمريكيين العاملين في المنزل واستشعرت القيم الطبيعية التي يمكن أن تكون سائدة حالماً استسلمت لمسقط مياه في الحدائق التابعة للمنزل وبالنسبة إلى رئيسها، على العكس فإن القيم ليست متأصلة في الأشياء أو البشر، بل هي بالأحرى ثمرة المعاملة التجارية ويتذكر صلاته التجارية والتردد في إبرام صفقة معه لتطوير موقع على الشاطئ "لأن ثمن أي شيء ليس أعلى أو أدنى إلا في علاقته باستغلاله المحتمل". فالقيمة يجب تقديرها فقط من حيث ما يمكن استخلاصه منها مادياً، فالياه لا يكون اكتنازها لخواصها الطبيعية ولكن من أجل الإمكانيات التجارية التي تتيحها، وفي هذه الحالة

فإن إنشاء حوض لرسو السفن وإصلاحها ورصيف بحرى ومهبط للطائرات، وربما سلسلة فنادق، بحيث يمكن تحويل المكان إلى منتجع رائج. وبعد أن فهمت المرأة المغزى الكامل للمنزل وسكانه فإنها تتخيله في حالة انفجار، شاعرة بتمزق على انفراد وبشكل درامى من جراء رفض متفجر. وحالما ينفجر المنزل الجمالى الحديث مشتعلًا بالنيران فإن ذلك يعقبه المزيد من تظاهرات محطمة للمظاهر التقليدية: الثلاجات والملابس وكل أنواع السلع يعصف بها الهواء. وتلخص هذه الرموز لثقافة ذات طابع مادمي مجتمعاً ضل سبيله، عالماً ذرائعياً يرفضه شباب ستينيات القرن العشرين باسم الحقوق الأساسية والقيم الطبيعية.

إن الفيلم الذى سبق عرضه هو فيلم Zabriskie Point (١٩٦٩) لأنطونيوني ويقدم نقطة بداية جديدة لمناقشة الفن المعماري ما بعد الحداثي وفى هذا الفيلم فإن الفن المعماري الحديث لم يعد مرتبطاً بالتجديد الطليعي- كما كان فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين- بل مرتبطاً بالمؤسسة والجيل الأقدم الثرى. ونظام المعيشة الذى يقدم لقاطنيه أسلوبه الصافى الشفيف يتساوى مع غطرسة الثروة والسلطة. وإن اكتساح آثاره فى الفيلم يدل على إمكانية تحقيق انطلاقة جديدة بصفة جذرية، التى هى أيضاً عودة إلى أو استعادة كل القيم التى لم يكثرث بها كثيراً ويمكن أن تصلح إعادة إدراج الماضى هذه المقترنة بالحماسة لتنوع العالم الفعلى كتعريف إيجابى لما بعد الحداثة كما فهمها تشارلز جينكس Charles Jencks (*) أقوى الأصوات المناصرة لما هو معمارى.

(*) جينكس: مهندس معمارى أمريكى، مؤرخ ومنظر ومصمم . مولود فى ١٩٢٩، له أكثر من ٢٥ كتاباً، منها دراسات مهمة للغاية عن الفن المعماري فى القرن العشرين. وقد اشتهر بما كتبه عن ما بعد الحداثة فى المجال المعماري ومن أشهر كتبه (١٩٧٧) Modern Architecture-The Language of Post طبعته منه أكثر من سبع طبعات. وتعتبر كتاباته منطلقاً لكثير من الكتابات عن أشكال ما بعد الحداثة. وكان أول من استخدم التشفير المزدوج، ويعنى به الجمع بين التقنيات الحديثة وشئ آخر، عادة هى المباني التقليدية، ويشير فى هذا الصدد إلى Stootsgalerie فى شتوتجارت. (المترجم)

ويقترح جينكس Jencks أن الفن المعماري ما بعد الحداثي يواصل في أن واحد موروث الحداثة ويتجاوزه والمصطلح الذي يستخدمه لهذه العملية التشفير المزدوج double Coding^(*) وهو في حرصه على الدفاع عن ما بعد الحداثة إزاء المزاعم التي هي مجرد مشاجرة عامة غير مسئولة تصب مباشرة- بسبب الافتقار إلى التزام سياسي- في أيدي أولئك الذين ييغون الإبقاء على الوضع الراهن بأي ثمن، فإنه يراهن على أهداف نبيلة ويرى أن ما بعد الحداثة في كتابه What is Past-Modernism (١٩٨٦) ترمي إلى إنجاز "الوعد العظيم بثقافة تعددية بحرياتها الكثيرة". وبينما كانت الحداثة "نظاماً شكلياً أحادياً" خنق الأصوات المختلفة المعارضة في محاولة لفرض المبادئ العامة للذوق فإن جينكس يربط الفن المعماري ما بعد الحداثي بالانتقائية والانفتاح. وبالنسبة إلينا لكي نفهم رهانات هذه المناقشة بين الفن المعماري الحداثي وما بعد الحداثي فمن الضروري اقتفاء أثر الانتقال الأخير من العالم الديناميكي والمثير لكل من Bauhaus^(**) و Le Corbusier^(***) في بداية القرن العشرين وحتى ستينيات وسبعينيات ذلك القرن، حيث اعتبر ما استخدم لكي يكون طبيعياً أصبح يدرك الآن كعدو للتغيير.

وقدمت لنا Ayn Rand^(****) إحدى أعظم الصور البليغة عن الفن المعماري الحديث، وفي روايتها الذائعة الصيت The Fountain Head (١٩٤٧) فإن المهندس المعماري غير المتساهل Howard Roark يعلن "لقد حددت معياري وأنا لم أرث شيئاً وأنا أقف على نهاية لا تراث وربما أكون واقفاً على بداية تراث ما". وهنا فإن الفن المعماري الحداثي يمثل من هو غير راغب في مواصلة مشروعاته لأنواق الجمهور. وإن

(*) التشفير المزدوج: راجع الهامش السابق. (المترجم)

(**) مدرسة للفنون التطبيقية، نشأت في فيمار بألمانيا في ١٩١٩، واتسمت بنهج وظيفي دقيق في التصميم الهندسي والمعماري. (المترجم)

(***) مهندس معماري فرنسي (١٨٨٧-١٩٦٥) ومخطط مدن. طور نظريات عن الوظيفية واستخدام مواد جديدة وتقنيات صناعية في إنشاء وحدات سكنية نمطية الحجم وذات مقياس موحّد Modular. (المترجم)

(****) كاتبة أمريكية روسية المولد (١٩٠٥-١٩٨٢) وفيلسوفة، طورت الفلسفة الموضوعية ودعت إلى "المصلحة الشخصية العقلانية" والفردية والأسمالية الحرة ومن رواياتها الشهيرة The Fountain Head (١٩٤٢) و Atlas shrugged (١٩٧٥). (المترجم)

يستجيب، فهو سابق لأوانه، لإرضاء طلبات الجمهور المختلفة للمباني الكلاسيكية المتكلفة بأعمدتها الجدارية الناتئة المضافة إلى الجدار، ذات الحلية الدرجية والموقفة. وإنشاءاته ذات ارتفاع أقصى تسعى إلى تمييزها: ناطحات سحب زجاجية ذات طابع أنجش صارم والمساكن جماهيرية بنمطية تلغى الأماكن المنعزلة الفردية والزوايا المظلمة الفردية والخواص الفردية للفوضى والركام باسم الصفاء والوضوح. ويعتبر الديمقراطية وتداول الاختلافات بمثابة خلق التساوى في القدرات الإبداعية الأصيلة.

كما يعلن Le Corbusier في كتابه *Decaratue Art Today* رفضه لمقاييس الماضي، ويستبعد الدعامات والمركزات ذات الذوق التقليدي منتقداً بقسوة القيم العتيقة البالية، الحرفية بوصفها زائدة عن الحاجة في عصر جماليات الآلة وذلك مثل: العمل المصنوع باليد وعبادة العجز والإخفاق والدفاع عن استخدام الألوان الصارخة. وانتصار الأنا المنهكة والاحتفاء بالإرادة الحرة واحترام ما يشبه القالب (الفورمة) وقمع الرقابة وإن الافتراضات الموروثة يجب أن توضع موضع الاختبار، وألا يكتفى باستيعابها دون أدنى شك. والمهندس المعماري سوبر مان فحل، عدمي إيجابى يقلب رأساً على عقب ويجرأ القيم التقليدية الحالية في مسعاه للتفكير في المستقبل وبنائه. ويوضح في كتابه *Towards an Architecture* أن "الثقافة هي المحصلة النهائية للمجهود الذى يبذل فى الانتقاء أو الاختيار الذى يعنى أن تضعه جانباً وتشذب وتنظف من أجل إيجاد العنصر الجوهري نقياً وعارياً".

وإن عملية الانتقاء الصارمة هذه، والتخلي عن كل ما هو مفترض أن يكون زائداً عن الحاجة، وضعيفاً، وغير نقي باسم النظام والانضباط والنظافة كل ذلك اقترن بإعجاب Le Carbusuer بالشخصى بالتكنوقراط والدول القوية إن لم تكن شمولية، جامعاً معاً معظم الجوانب الباعثة على القلق فى الفن المعماري الحديث النزعة ويلوح أن الحركة التى بدأت برؤى يوتوبية لخدمة الجماهير، بحيث أدخلت توحيد المقاييس لكى ترسى مستويات معيشية أعلى للجميع- وليس فقط أولئك المتمتعين بالامتيازات بالفعل- انتهى بها المطاف إلى أن تكون متحركة فى هذا الجماهير نفسها.

ويمكن تبين النزعة الاتجاهية المقلقة نفسها فى مدرسة Bauhaus، وكما يوضح كتاب The Weimar Republic Sourcebook (١٩٩٤)، فإن هذه المدرسة الفكرية رأت فى إعادة الإنتاج الجماهيرية الآلية حلاً للظلم الاجتماعى فالمساكن الجماهيرية الرخيصة الصنع، المعاد تنظيها فى وحدات سكنية مدمجة، لن تختزل الاختلاف بين الأغنياء والفقراء بوضع مقاييس ومعايير دنيا للجميع فحسب، بل يمكنها أيضاً، مثلاً أن تحرر المرأة من عبودية العمل المنزلى عن طريق تنظيم "أفضل وأبسط طريقة" لتدبير أمور المنزل فى حالة تشغيل جيدة. وقد تعنى هذه الفعالية التاييلورية (أى الإدارة العلمية نسبة إلى المهندس الأمريكى فردريك تايلور ١٨٥٦-١٩١٥) أن أشغال البيت قد تصبح بديهية وسهلة الإنجاز لدرجة أن الأزواج والأطفال فى وسعهم الإسهام فى ترتيب الفراش وتنظيف حوض الغسيل وما إليه إذا دعت الضرورة! وتعنى النتيجة النهائية أن المرأة تستطيع توفير الوقت وتغدو متحررة للقيام بأنشطة أخرى، فكرية أو متابعة هوايات وقت الفراغ كما ترغب.

ويتعين قراءة هذا الجانب التحررى لمعتقدات Bauhaus فى محاذاة الجانب الآخر الأسوأ من الترشيح المنتظم. ولنتأمل هذا المقطع من The Bauhaus in Dessau (كتاب مرجعى):

"فى حجرة معلقة فيها ستائر قطرية، حيث توجد بها أريكة (كنبه) موضوعة بالمواربة فى الركن ووضعت عشر طاولات مختلفة صغيرة محملة تماماً بأية طريقة كانت، فلا يوجد أى سبب يبرر وضع مصباح جديد فى أرض الغرفة هنا وليس هناك، ولكن وضع كل شئ فى حجرة من طراز Bauhaus يمكن أن يتقرر بتجديد شبه قانونى تقريباً، وسرعان ما يتعلم المرء لكى يفهم نظرياً أن المسألة هنا ليست نوعاً ذاتياً ولكن مثل هذه المشاعر باعثة على الاطمئنان للغاية وظاهرة سيكولوجية سليمة بوجه عام تفضى إلى نتائج مماثلة من مختلف البشر. ولهذا السبب يمكن الحديث حتى فى حالة مشاكل كهذه بوصفها مشاكل ذات "حلول محددة موضوعياً".

وتتسلل هنا نغمة تلاعب خفية. وبدلاً من توحيد المقاييس فإنه يجرى توهيم تعزيز النزعة الفردية، ببرمجة عامة للذوق وفى شقة من نوع Bauhaus فإنه لا توجد سوى وجهة واحدة للمصباح الجديد المقتنى ويجرى تصميم مثل هذه الشقة السكنية بطريقة تجعل ذلك البند المعين مناسباً فى هذا المكان كما لو كان يتماشى مع قانون طبيعى ما لا محيص عنه. وينقلب التحرر إلى وصفة ديكتاتورية، ويدعو التوحيد القياسى المتساوى تماثلاً شمولياً، والانقطاع عن الماضى الثائر على العادات والمعتقدات التقليدية عملة جارية بمثابة تحطيم لإحساس الناس بالمكان وامتداد الجذور، وعدم احترام كل الولع البشرى بالأماكن المألوفة.

ويرى جينكس Jencks أن الاغتراب الذى يشعر به المقيمون والذى يرغب على التلاؤم مع مخططات المبانى ذات النزعة الحداثية المثالية المتحمسة يدل على إخفاق تلك الحركة (وبدء توجه ما بعد حداثى متواضع) ويصف كيف أن مخططات المساكن "اليوتوبية" غدت تدرجياً فى حاجة إلى الإصلاح وأصابها العطب، وجرى تخريبها حيث حاول القاطنون تسجيل إحساسهم باليأس لكونهم تم هجرهم فى أذغال خرسانية مملّة للغاية، ويقول فى كتابه المشار إليه أعلاه:

"لقد مات الفن المعمارى الحديث فى مدينة سانت لويس (Sant Louis) بيميسورى فى ١٥ يونيو ١٩٧٢ فى تمام الساعة الثالثة بعد الظهر (أو نحو ذلك) عندما نال مشروع Pruitt- 1Goe السيئ السمعة أو بالأحرى مجمعاته المعدنية الضربة القاضية النهائية بالديناميت.. وقد بنى هذا المشروع وفقاً للمثل العليا التقدمية للمؤتمر العالمى لفن المعمار الحديث (CIAM) ونال جائزة من المعهد الأمريكى للمهندسين المعماريين عندما جرى تصميمه فى ١٩٥١. ويتكون من بلوكات (مجمعات) معدنية ذات أربعة عشر طابقاً، أنيقة وبها "شوارع فى الهواء" معقولة (بعيدة عن مخاطر السيارات ولكنها، كما تحولت، لم تكن مأمونة من الجريمة)، تتمتع بـ "الشمس والفضاء والخضرة" والتي أطلق عليها Le Carbusuer اسم "الابتهاجات الثلاثة الرئيسية للمسكن الحضرى" (بدلاً من الشوارع التقليدية

والحدائق والفضاءات شبه الخاصة التي ألفاها) وهناك فصل
بين المشاة وحركة مرور السيارات وتوفير فضاءات للعب
وأماكن للراحة والمتعة ورغد الحياة مثل محلات الغسيل والكي
ودور الحضانة ومراكز التثروة والدرشة- كل البدائل العقلانية
للأنماط التقليدية. فضلاً عن هذا فإن أسلوبه النقي Purist^(*)،
واستعارة نظام المستشفيات النظيف المفيد للصحة إنما عنى
أن يفرس، بالمثل الجيد، القيم المقابلة في نفوس القاطنين.

ويعتبر الفن المعماري الحديث النزعة أنه أضفى الوحشية على البشر في محاولته
أن يخضع لحكم العقل ويفرض نظاماً دقيقاً منسقاً على حياتهم المعيشية، وإسوء الحظ
بالنسبة إلى المثالي فإن البشر لا يخضعون تماماً لما هو عقلاني ومنظم ومنضبط،
وتختلف أنواقهم، وهي غير قابلة للتبرير في معظم الوقت، وعرضة للتهيج للحماقة
والطيش. ولهذه الأسباب فإن الفن المعماري ما بعد الحدائي في نزوعه إلى المعارضة
المجنونة، والمزج الغريب الأطوار بين الأساليب، وعدم احترام التسامح والانتظام
الرهباني للمرجعية التاريخية يعتبر أكثر إنسانية من صرامة الـ Purism الحدائية. وكما يوضح
جينكس Jencks في كتابه فإن المهندس المعماري الحدائي النزعة غير متعاطف مع
نقاط الضعف الإنسانية فالزينة وفن الزخرفة والاستعارة والفكاهة والرمزية والعرف
والتقليد كل ذلك وضع على القائمة الممنوعة واعتبرت كل أشكال الزخرفة والمراجع
التاريخية محرمة Taboo.

كما أن الفن المعماري ما بعد الحديث أكثر حذراً في الاستخدامات التي يمكن
أن تستغلها التكنولوجيا وأكثر شكاً في مزايا التصنيع وبينما احتفل أنصار الحدائية
بابتهاج بالميكنة لدقتها- راجع نقد Le Carbusier الساخر للسلع المهنية المعيبة،
المذكور فيما سبق- ومقدرتها على تبديد هالة الماضي المتعجرفة والشروع في بدء عالم
حديث جديد محرر من الوهم فإن أنصار ما بعد الحدائية أقل تفاؤلاً. ويعرف عالم

(*) نسبة إلى الطريقة الفنية "Purism" التي تنتسب إلى Le Carbusier وأسسها في بداية القرن العشرين
وتؤكد على نقاء الشكل الهندسي وصفاته، وتبعت من رفض النزعة التكميلية، وتميزت بالعودة إلى
الموضوعات والأشياء التي يمكن التعرف عليها. (المترجم)

ما بعد أوشفيتز وما بعد هيروشيفا الكثير عن أهوال التجديد واستخدام الذرائعية(*) وتسفر علاقة مفتعلة وغير متجسدة مع العالم عن بشر يغدون أشكالا يتعين "معالجتها" أو مواداً يتعين إعادة استخدامها وتدويرها" (والفيلم الوثائقي لأن رينيه Night and Fod ١٩٥٦) عن معسكرات الاعتقال النازية يحتوى على بعض الدلائل الحية لنتائج هذه الأعمال التجريدية، فالبشر جرى اختزالهم إلى قطع غيار: مجزؤون، مصنّفون في أكوام، الشعر لحشو الوسائد، الجلد للصابون والأباجورات). ولا ينبغي أن يتاح للعلم لكى "يتقدم" وفقاً لقوانينه الذاتية الخاصة به دون الاهتمام الواجب بتأثيره فى الأجل الطويل على العالم والقائمين فيه. ونتيجة لذلك فإن جينكس Jencks يريد أن يقترح على الفن المعماري ما بعد الحديث أن يستمد بعض العبر الأخلاقية والإيكولوجية التى علمنا إياها الماضى عن غير قصد وكما فى فيلم Zabriskie Point فإن أى شخص يرفض الافتراضات المتعجرفة للصفوة الحداثيّة سوف يكتشف حقوق البيئة:

"ربما سوف يجرى فى المستقبل، مع وجود الأزمات البيئية وازدياد نزعة عولة الاقتصاد أو الاتصالات وكل تخصص على وجه الاحتمال التشجيع، بل فرض الاهتمام بالأشياء التى تتفاعل فيما بينها، الصلات بين اقتصاد متنام، أيديولوجية التعبير المستمر واللا نهائى، وأولئك الذين لا يدركون أن العالم كل لا يتجزأ مصيرهم تلويث العالم".

إن الفن المعماري لما بعد الحداثة فى رده المناوئ لاحتقار الحداثة للفضاء ندى الطابع الشخصى، وبذلك يعيد النظر فى الاحترام الحرفى لما هو محلى وتقليدى، فإنه يعيد إدراج المكان بينم يواجه تحدى العولة الحاضرة وهذا التركيز المزدوج، التعامل مع المكان وذلك الذى يهدف يتكمله، لإمكانية شبكات الاتصال العالمية هو الذى يكون محور اهتمام المهندس المعماري لما بعد الحداثة. ولما كان الفن المعماري هو أكثر أشكال الفن واقعية، والأكثر ثباتاً فى الفضاء، فإنه يحظى بعلاقة حميمة بمسائل الحضور(**)، الأصل والمشأ، وامتداد الجذور فى الأرض والمسكن. ونالت هذه المفاهيم

(*) Instrumentalism تترجم أحياناً إلى الاداتيّة أو الوسائليّة، وهى ضرب من البراجماتيّة قال به جون ديدى، وملخصه أن المعرفة أداة للعمل وسيلة للتجربة وأن كل تفكير إنما هو أداة للسلوك ووسيلة لتنمية الخبرة، وأن الحقيقة لا توجد إلا عندما تكون قابلة للاستعمال باعتبارها مفيدة فى آخر الأمر. (المترجم)

(**) راجع الهامش المتعلق بميتافيزيقا الحضور صفحة . (المترجم)

نقداً عنيفاً من فكر ما بعد الحداثة. وعالم الإنترنت الافتراضى هو أحد التطورات التي تفرض تحدياً خطيراً على المهندسين المعماريين الذين اعتادوا تحقيق مشروعات فى عالم الواقع وإذا كان يتعين الآن المساواة بين التحرر وغزوات ركوب زلاقات الأمواج المبهجة على شبكة المعلومات، التي يبدو أنها تعد بعالم افتراضى آخر، غير مرتبط بالأضرار أو التقييدات الأرضية، فكيف يكون من المفترض أن يضطلع المهندس المعماري بعملية الإنشاء والبناء مستقبلاً؟ وكما رأينا فإن المهندس المعماري شعر فى الماضى بأنه يجب عليه- بوصفه قوة خلاقية بطولية- أن يضطلع بعبء مسئولية بناء السياق الصحيح الحسن للمجتمع.

وفى عالم ما بعد الحداثة، فإن القيود المفروضة على مكان معين يبدو أنه يجرى التحايل عليها. ولا ينبغي للمرء ألا يكون له أو يعرف أى جيران ولكن بدلاً من ذلك عليه أن يكون على اتصال منتظم وأحياناً حميمي مع أناس من جميع أنحاء الكرة الأرضية لم يحدث أن قابلهم أبداً بصفتهم هذه، طبقاً للأفكار والمفاهيم التقليدية عن اللقاء غير المتوقع.

ولا يمكن بمواجهة هذه التطورات أن توجد عودة نوستالجية إلى فكرة المكان عتيقة الطراز. والحق أى اشتياق كهذا لمكان جغرافى ثابت محدد وأى احتفاء كهذا بالهوية المتأصلة غير الإشكالية يعتبر رجعيًا من قبل ثقافة كونية حركية تناصر التهجين المنفصل عن سياقه وتزاوج الاختلافات الثقافية. وجاء رد فعل المنظرين المعماريين على التحديات التي تواجه مهنهم بطرق مختلفة.

إن كينيث فرامبتون Kenneth Frampton، وهو لا يناصر جينكس Jencks ورؤيته لما بعد الحداثة يوافق مع ذلك على أن المشروع الحداثى يشهد نهايته، وأن ما يأتى بعده يتعين إعادة التفكير فيه على نحو جذرى وفى بحثه H. Faster, ed. Postmodern culture Towards a critical Regionalism (١٩٨٢) يتقبل حقيقة أن التحديث لم يعد من الممكن الاحتفاء به، كما كان من قبل سابقوه الحداثيون، بوصفه مفتاح التقدم ومثل هذا الإيمان الأعمى بقوة التكنولوجيا وكذلك عودة الحنين إلى الماضى ما قبل الصناعى، من غير الممكن استمرارهما ودوامهما، ويعترف فرامبتون فى الوقت نفسه بالأخطار المتأصلة فى حركة طليعية ذات إحساس متغطرس بأهميتها وحقيقتها، ومع

ذلك فهو غير مهياً للانزلاق إلى استسلام سياسى؛ إذ إنه ما زال يبحث عن السيطرة النقدية على زمام المجتمع ويدافع عن أن هذا الموقف يمكن أن يتحقق على نحو أفضل عن طريق "مؤخرة Arrire- Gorde لا تغويها" الروايات الكبرى" للحدثا، والتي ما زالت مكرسة لمقاومة الأشكال المهيمنة للأيديولوجية.

ويركز الشكل ما بعد الحدثاى عند فرامبتون على الفن المعمارى الذى يمكنه أن يتوسط بين "اللا مكانية الموجودة فى كل مكان فى بيئتنا الحديثة" وموقع معين. ويمكن فهم اتجاه فرامبتون بمقابلته بما يقف مناوئاً له:

انظر إلى هذا الاحتفاء الطرب بالمدينة الأمريكية- ذلك النقيض للبيئة المتكاملة تماماً، ذلك العدو للمشروع الحضري- من قبل بودريار المرشد الروحي (غورو guru) للابتهاج بما بعد الحدثا فى كتابه : America (١٩٨٨) :

"لا، إن الفن المعمارى لا ينبغي أن يكتسب صفة إنسانية. فالفن المعمارى النقيض، النوع الواقعى (ليس النوع الذى تجده فى أركوسانتى بالأريزونا الذى يجمع معاً كل التكنولوجيات "Soft" فى قلب الصحراء) النوع غير الإنسانى الوحشى الذى يتجاوز حدود الإنسان صنع هنا- صنع نفسه هنا- فى نيويورك، دونما اعتبار للإطار المحيط، أو الرفاهية أو الإيكولوجيا المثالية. لقد اختار التكنولوجيات "Hard"، بالغ فى كل الأبعاد، جازف فيما بين السماوات والجحيم.. الفن المعمارى الأيكولوجى، المجتمع الأيكولوجى ذلك هو الجحيم المعتدل للإمبراكورية الرومانية فى مرحلة الانحطاط".

ويزدري بودريار الاعتبار "Soft" للمقياس الإنسانى والمحيط المحلى ولا يتعين لما بعد الحدثا، بتكنولوجياتها الجديدة المثيرة، أن يعوقها العبء الثقيل لما هو إنسانى باهتمامه المبتذلة. وبدلاً من ذلك فإنه يجعل تشابكات الطرق الحرة وذلك النقيض للخبرة الحضرية الأوروبية، لوس أنجيليس:

"لا أبراج ولا قطار الأنفاق فى لوس أنجيليس، لا ارتفاع عمودى أو امتداد تحت الأرض، لا حميمية أو جماعية، لا شوارع أو واجهات

المباني، لا مركز أو آثار، فضاء خيالي غريب، تتابع شبكى وغير متواصل لجميع الوظائف المختلفة وكل الأمارات دون ترتيب تدرجى- استعراض خرافى للمبالاة، استعراض خرافى لمساحات غير متميزة - قوة الفضاء النقى، المفتوح، النوع الذى تجده فى الصحراء.

ويتصدى فرامبتون، على وجه الدقة لهذا القبول غير النقدى لانحطاط المشروع الحضرى. وينشد تحطيم بلاغة المحاكاة هذه وفقدان الإحساس الواقعى بمبان ترد، بتفاعلها مع فريدة مواقعها، صدى رنين "كثافة" معينة من الخبرة والتجربة ويدعو فرامبتون- مقوضاً التفوق الذى لا نزاع فيه بخلاف ذلك للعين على الحواس المتبقية- إلى فن معمارى يستجيب للمحسوس والملموس: "إن المرونة المحسوسة للشكل المكانى وقدرة الجسد على أن يدرك البيئة على نحو مغاير للرؤية وحدها تفترضان وجود إستراتيجية ممكنة لمقاومة هيمنة التكنولوجيا العالمية". وقد أشار إلى اللمس والشم والنطاق الكامل للإدراكات الحسية التكميلية التى يسجلها الجسم المتغير بوصفها وسيلة لإعادة إدراج ما هو إنسانى فى "تجربة" المكان ويعتبر فرامبتون، رافضاً الصرخات التدميرية التى تعلن أن الجسم آيل إلى الزوال والإهمال فى العصر "الما بعد إنسانى"، أن نوع ما بعد الحداثة الذى يدعو إليه يتيح انبعث ما يسميه ليوتار "السرديات الصغرى" أو "المشروعات المحلية".

وثمة منظر آخر مثل فرامبتون يتخذ موقفاً مناوئاً للإمكانية السائدة للفن المعمارى ما بعد الحداثى، ذلك هو فردريك جيمسون Jameson وهو أيضاً يعترف فى "ما بعد الحداثة والمجتمع الاستهلاكى" A. Gry, ed, Studying Culture (١٩٩٣) بالتحجر ذى الطابع المؤسساتى للحداثة الذى تقف ضده ما بعد الحداثة كما يحاول إعادة اختراع التجريب الفنى- أمانة على الفن المعارض، النقدى الذى يحطم بأسلوب بدائى الطرق ذات الطابع التقليدى فى رؤية الأشياء- مع عدم الوقوع فى الوقت نفسه فى شرك الحداثة، التى سرعان ما أصبحت تتساوى مع النزعة النخبوية بسبب مصاعبها المتشعبة. ويرى جيمسون أن مجموع اليأس ما بعد الحداثى، التظى التام عن أى محاولة للإسهام على نحو إيجابى فى البيئة الحضرية، اختصره (فى كبسولة) فندق Bmarntura فى لوس أنجليس. وهذا المبني يفسد تجربة المكان. بينما قدمت مدينة

القرن التاسع عشر، بيت المتسكعين الهانمين على وجوههم، ساحة للاجتماع (منتدى) للإثراء في مقابل هذه الفندق الذى يبطل الارتياح والاستكشاف. ولا يشجع على القابلية للتنقل المستقلة، بحيث يضطر الزائرون الذين لا يخامرهم سوء الظن وبإذغان إلى تسليم أنفسهم إلى آلات الانتقال التى تقودهم من موضع منعزل إلى موضع آخر، وبدلاً من كثافة الموضوع المدرك بالحواس الثرى الذى نشده فرامبتون فإن هذا الفندق يقلل من كثافة المكان بنقض أى تقدير للحجم. ويمكن لهذا المبنى أن يترك أى انطباع عام سريع ولا يمكن إدراك أى وضعية ممتازة مؤقتة يمكن من خلالها التوصل إلى بعض الإحساس بالمكان بيد أن هذا لا يعنى القول، عن طريق التعارض، إن المكان الحداثى النزعة زود الزائر بأماكن ساكنة غير متحركة ذات رؤية ثابتة تتمتع بمزايا منظورية فى هيئتها الوضعية بحيث يمكن الإشراف على الأوضاع المحيطة، بل بالعكس، وإن أنصار ما بعد الحداثة أطروا على الفضاءات الديناميكية حتى ولو كانت تحدث دوارا ولكن يمكن اختبارها فى حد ذاتها (إن كتاب Bwlding in Framce: Build- ing miran, Bulding in Ferre- Conaract ١٩٢٨) لمؤلفه Sleg Fried Giedian يجمع الحد الأقصى من الأوصاف المبهجة لمبان مثل برج إيفل وجسر Tranaporter فى مرسيليا وهو ما يعتبر بمثابة الريادة فى الفن المعمارى الحداثى النزعة، الذى ينسق ويزاوج بين التجارب المكانية المسببة للدوار والمقوضة للأسس- ومع ذلك فهى مثرية) تلك الندرة فى التجارب هى التى يندبها جيمسون وهذا المبنى بسطوحه العاكسة المعتمة يعتبر أنه يصد المدينة الممزقة الخارجية رافضاً أى اتصال بها، وبالتالي فإنه ينطوى على تدمير ذاته وليس فى وسعه توليد أى معنى من داخل ذاته والنتيجة هى "التباس مضطرب".

ويلتمس جينكس Jencks شيئاً مختلفاً. وهو يفهم ما بعد الحداثة ليس بوصفه قيمة تدميرية مجردة من المعنى أو قيمة رفض شكية، بل بالأحرى بوصفها إحاطة ظاهرية التناقض بالنسبية المطلقة أو الكلية المجرأة فهى تحد لمحاولات تصنيف ما بعد الحداثة كئى شىء واحد. والمنظر المعمارى الآخر Robert Ventuer الأكثر ارتباطاً بمصير ما بعد

الحدائق يساوى أيضاً بين ما بعد الحدائق ومزيج من مختلف الأساليب والنهج:

"لم يعد فى استطاعة المهندسين المعماريين أن يتحملوا التخويف باللغة الأخلاقية المتطرفة فى تزمتهما للفن المعماري الحديث الأرثوذكسى. وأنا أفضل عناصر هجينة وليست "حرفة خالصة"، توفيقية وليست "نقية"، مشوهة وليست "واضحة المعالم"، ملتبسة وليست "مترابطة باتساق وانتظام، منحرفة وكذلك لا شخصية، مملة وكذلك "مثيرة للاهتمام"... وأنا أناصر الحيوية التبشيرية على الوحدة الواضحة وأنا أدرج ما هو غير مرتبط ببعضه وأنادى بالازدواجية "Contraction and Conplerity in Architetcture"، ١٩٨٨".

وقد سخر Venture من النقاء غير المرن وذى الحد الأدنى للمعماريين الحدائين مثل Mies van der Rohe^(٩) الذى أعلن مبكراً فى القرن العشرين "القليل كثير" وكان رده "القليل مضجر"، واحتفى بالحيوية التبشيرية لأماكن مثل لاس فيجاس وتتكون الكازينوهات والمطاعم والفنادق والبارات الموجودة فى لاس فيجاس فى معظم الأحيان من أمارات ضخمة تستهدف استرخاء نظر سائقى السيارات الجائئين الذين يطوفون فى ذلك المكان من أجل إنفاق الأموال. وكما يلاحظ فى كتاب آخر Learning From Las Vegas "العلامة أكثر أهمية من الفن المعماري.. العلامة فى الواجهة، استعراض فظ والمبنى فى الخلف، ضرورة متواضعة". والعلامات ليست مجرد كلمات بل هى صور وهيئات وأشكال توضح الطبيعة المغرية للمكان. ويواصل موضحاً كيف يمكن أن تكون لاس فيجاس تجديفاً بالنسبة إلى المعماريين الحدائين الذين يتمسكون بدقة بتعليمات

(٩) مهندس معمارى ومصمم ألماني (١٨٨٦-١٩٦٩) صمم الجناح الألماني فى معرض برشلونة الدولي لعام ١٩٢٩ ومبنى Seagram فى نيويورك (١٩٥٤-١٩٥٨)، وتولى إدارة مدرسة الفنون التطبيقية فى فيمار المسماة Bauhaus والتي تميزت بنهجها الوظيفى فى الفن المعماري والتصميم الصناعى فى الفترة من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٤. (المترجم)

التوراة التى تحرم "الصورة المحفورة" (*) باسم التعبير المكانى الخالص،

لقد ركز الفن المعمارى الحداثى إبان السنوات الأربعين الماضية على الفضاء بوصفه العنصر المقوم الأساسى الذى يفصل فن المعمار عن التصوير والنحت والأدب.. ويتباهى تعريفاتهم بوحداية الوسيلة وفراقتها: وعلى الرغم من أن النحت والتصوير يمكن أن يكتسبا فى بعض الأحيان خصائص فضائية فإن فن المعمار النحتى والتصويرى غير مقبول؛ لأن الفضاء المكانى مقدس".

والمثال الذى يستخدمه لتوضيح حجته مقنع للغاية: فالجناح الألمانى فى معرض برشلونة الذى صممه Mies Vander Rohe ووصفه Piter Behres فى كتابه Le Stule In-ternatimal (١٩٨٧) يعتبر "الصرح الذى سوف يتم ذكره بوصفه أجمل جميع إنشاءات القرن العشرين، فالقواعد العالمية التى استخدمها فى كمرات الصلب التى مלאها بالزجاج والطوب أدخل فيها- ولكن دون أن يفسدها أو يخل بها- تمثلاً وحيداً من نحت كولبى (**). لامرأة عارية".

وكما يشير Venturi استخدمت الموضوعات الفنية لدعم الفضاء المعمارى على حساب محتواها ذاته. وكان تمثال كولبى فى برشلونة يظهر بالمغايرة ميزات الفضاءات المخصصة: وكانت الرسالة ذات طابع معمارى فى الأساس".

وإذ يشبه تمثال كولبى إلى حد ما مصباح Bauhaus المذكور أعلاه، فإنه تناسب مع التصميم الشامل، ليس بحد ذاته وإنما كحيلة تطلبها تزيين المبنى فى ذلك الموضع، فى ذلك المكان المحدد والمعين مسبقاً. والتمثال الذى لا يحدث نغمة متنافرة تفسد تناسق المبنى فإنه يحو نفسه حقاً، ولا يعبر من الناحية الرمزية عن أى شىء بارز ومتميز وإذ يحتفى Vanturi بلغة "العلامات" فإنه يثنى على مزايا "معمار الاتصال

(*) إشارة إلى ما جاء فى سفر الخروج (إصحاح ٢٠: ٤-٥): "لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدن". (المترجم)
(**) Kolbe (١٨٧٧ - ١٩٤٧) : نحات ألمانى. (المترجم)

الجرىء المقدم" مفضلاً إياه على "معمار التعبير الغطن الدقيق". بيد أنه يمكن إثارة سؤال: كيف يمكن للمرء أن يعبر بجرأة وتميز إذا كانت الوسيلة التي يستخدمها هي وسيلة تتكون من المعارضة وحرية الحركة (اللعب) والتنافر والانتقائية و"التنوع المفرق"؟

ولنعد إلى نقطة البداية: هل يمكن أن نكون متأكدين من البيان الذى جاء فى نهاية فيلم أنطونيوني *Zabriskie Point* عندما نسف المنزل الحداثى، وهناك فى الفيلم تحول يمكن تسجيله بين تفجير المنزل والصور المتتالية للسلع الاستهلاكية المتفجرة. والمنزل نفسه مثال على عمل مهندس معمارى من أمثال فرانك لويد رايت^(*)، وكان شديد الحرص على الصفاء والنقاء بحيث أعد شكلاً تمسك فيه حرفياً بنزعة الحداثة، واستخدم على نطاق كبير مواد بناء مثل الخشب والحجر التى تألفت على نحو لبق مع الجو الطبيعى المحيط فى نوع من الإشفاق على البيئة الطبيعية. وعندما يتغير المنظر إلى السلع الاستهلاكية فإن الألوان تغدو باهتة على نحو مصطنع وتنطلق الموسيقى مبرزة انخفاض حدة التوتر حالما يتم التخلي بابتهاج عن هذه الرموز للثقافة المادية النزعة. وبينما تظهر المرأة مترددة إزاء التخلص من الفيللا فإن بقية الأشياء الأخرى يتم التخلي عنها دونما إبطاء فهل المرأة ترفض بالفعل نزعة الحداثة وتحتضن ما يأتى بعدها- أى ما بعد الحداثة؟ ومن المرجح أنها تضع فى الممارسة العملية سياستها الراجيالية التى عثرت عليها حديثاً وهل يمكن مساواة ذلك بنظريات ما بعد الحداثة لكل من Ventuer و Jencks اللذين ليس لديهما حسابات لتصنيفاتها مع الرأسمالية والثقافة الاستهلاكية؟ والحق أن الأول يذهب إلى حد بعيد بحيث يعلن أن مجتمع اليوم يملطنا بوابل من الوفرة الزائدة من الاختيار، ويرى أنه يغمرنا "بخيارات تثير فينا الحيرة لكثرتها" ونستحم فى جو من "التعددية الواسعة الانتشار". ويضيف "دون وجود

(*) F. Lloyd Wright (١٨٦٩ - ١٩٥٩) مهندس معمارى أمريكى شهير ترك بصماته على الفن المعمارى الأمريكى وأسهم فى بناء مهم من الإنشآت المعمارية الشهيرة. (المترجم)

سلطة معترف بها ومركز قوة فإن كثرة من الجماعات المهنية (وحتى أقطار بكاملها) تشعر بأنها تقع ضحية لثقافة عالمية ولعالم التجارة والسوق اللذين يثبان بصورة متقطعة فى اتجاهات مختلفة.(what is Past- Modernism?)

إن هذه "الجماعات" و"البلدان" التى تقع على نحو قلق على تخوم هامش عالم ما بعد حدائى يتقلص ويتوسع على نحو لا يمكن التكهّن به- وهى تعانى مثل معاناتها من مرض "البارانويا المعتدل"- لا يمكنها أن ترى مجرد المتع التى يحاول جينكس Jencks أن يوضحها لها. وهى ترى السخرية الواردة فى محاكاة Ricardo Bofill الكلاسيكية Versiles For the Masses، وتنعى حقيقة أن Venturi يظن أنها "تشعر بجلسة غير مريحة فى أحد الميادين" وربما كانت هناك صلة مشتركة بين معظم المنظرين المعماريين لما بعد الحداثة وبين تدمير المرأة المتروك للمشروع الحدائى اليوتوبى متحولة إلى نخبوية، وتفجيرها بلا تردد لرموز الثقافة الاستهلاكية، راغبين فى أن يكونوا جيمسون وفرامبتون. وما زالا متمسكين على الأقل بفكرة نقد ما بعد الحداثة التى هى أيضاً ثقافة مضادة لما بعد الحداثة. بيد أننا إذا ما استشهدنا بالكلمات الختامية لجيمسون فى كتابه المذكور فإن هذه الفكرة ينبغى أن تظل محيرة، وعسيرة الإدراك، ولا توفر لنا أساساً متيناً لكى نبني عليه:

لقد رأينا أنه ثمة طريقة تكرر بها ما بعد الحداثة أو تقييد إنتاج- تقوى- منطق الرأسمالية الاستهلاكية، والسؤال الأهم هو ما إذا كانت توجد طريقة أيضاً تتصدى لهذا المنطق وتقاومه. ولكن هذا سؤال يجب أن نتركه مفتوحاً دون إجابة.

الفصل الثامن

ما بعد الحداثة والفن

كولن تروود Collin Trodd

لقد برزت ما بعد الحداثة كأداة نقدية تصف سمات الفن "الجديد" في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين وانتهت إلى ستة أنواع أو روايات مختلفة على الأقل: مثل تلك التي تقاوم الشدة المنتشرة في كل مكان لوسائل الإعلام الجماهيرية من خلال الدفاع عن الصفة الاستثنائية المحتومة والسلطة النقدية للفن الرفيع (التصوير الميتولوجي التاريخي عند Anselm Kiefer) ، ومثل تلك التي تسعى باحتضانها لنشاط الثقافة الشعبية، إلى الإفلات من النزعة النخبوية للثقافة الرفيعة عن طريق الاهتمام بتقنيات وتكنولوجيات الميديا (الصور المكونة من الملصقات عند Dard Salle)، ومثل تلك التي تنشُد وتجسد رغبات وتطلعات تلك الجماعات الثقافية والاجتماعية التي همشتها أو تجاهلتها الثقافة الرفيعة (العمل النظري للفنانة النسائية Mary Kelly)، ومثل تلك المجموعة من الممارسات الساخرة وذات المحاكاة التهكمية التي تحفر عميقاً في طبيعة التجربة المعاصرة لكي تبين أن الواقع قد استوعبته عمليات محاكاة لا نهائية للصناعات الاتصالية (تصوير^(*) الهندسة الجديدة neq-geo عند Peter Halley)، ومثل تلك الممارسة النقدية التي تبغى تعريف الاستهلاك بوصفه فراغاً لا نهائياً لكنه عملية مركبة

(*) حركة فنية معروفة أيضاً باسم Simulationism نشطت في نيويورك، وتعتمد إلى أن تبين أن الهندسة أداة للسيطرة الاجتماعية وتستعري الانتباه إلى التضمنات سيرة الطالع للتوسع في استخدام الأشكال الهندسية في الفن الحديث. (المترجم).

فى المشهد الاجتماعى (الصور المركبة بعملية توليف فنى Photomontage عند Babara Kruger وأخيراً ذلك الشكل من الفن التصويرى "الشعبى أو الديموطيقى"^(*)) المناهض للفن الحدائى فى اهتماماته وقيمة ("التيار الرئيسى الحدىث" للتشبيه القائم على الصور عند Glibert و George) .

وقد أتاح هذا التعدد فى توجهات ما بعد الحدائة للفنانين مهاجمة الطابع الرائد المزعوم لنزعة الحدائة، وإعادة توجيه الممارسة الفنية، وتوسيع النطاق الإنتاجى للفن وتطوير النهج الشامل فى استخدام الثقافة وموضوعاتها. وبالتالي فإن الكثير من الفنانين والنقاد رأوا فى هذا التنوع أمانة على توافر طاقات ثقافية جديدة ولكن هل من الممكن، كما قد يحق التساؤل، أن نرى فى هذه "الطاقات" محاولة ما تجاهد فى التفاعل مع المشهد الاجتماعى لما بعد الحدائة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل ما بعد الحدائة الفنية تبدى ملاحظات على الاقتصادات الجديدة المتعلقة بالعمل ووقت الفراغ والاستهلاك؟ وهل لديها ما تقوله عن مجال اجتماعى تميز بتخليص الأسواق المالية من القيود وتحريرها وبالتالي سهولة انتقال رأس المال، والنمو الذى لا يرحم للخصخصة وتحويل تقسيم العمل، وإدخال نظم تصنيع "مرنة" وتطوير منتجات ثقافية متخصصة والوجود الكلى للحملات الإعلانبة "المتناسبة مع الأنواق والعادات"؟ وإذا كان من الممكن الإشارة إلى النماذج المختلفة لما بعد الحدائة، فهل من الممكن التمييز بين نزعة ما بعد الحدائة التى تسعى إلى مقاومة لما بعد الحدائة وبين نزعة ما بعد الحدائة التى تحتضنها؟ وهل من الممكن، كما قد يحق أن نستمر فى التساؤل، التمييز بين نزعة ما بعد الحدائة المعارضة ونزعة ما بعد الحدائة الانتقائبة؟ وإذا كان من وسعنا القيام بهذا التقسيم فهل يساعدا على الإشارة إلى أشكال "جيدة" وأشكال "ردبة" من هذا الفن؟

ونبدأ معالجة هذه الأمور بالعودة إلى الطريقة التى نوقشت بها الحدائة فى أواخر سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين. وقد تركزت الانتقادات الموجهة للحدائة، رغم

(*) إشارة إلى اللغة الهيروغليفية فى مرحلتها المتأخرة. (المترجم)

تعدد أشكالها، على الاعتقاد بأنها قمعية وتحليلية ومعتدة بذاتها. وبذلك فإن ما بعد الحداثة، في معارضتها لطابع الحداثة المنطوى على عناصر متناقضة تلغى بعضها البعض والتي أدينت بحكم غرورها، ورغم تجديدها للرمزية والباروديا والاقتباس السردى يمكن أن تقتزن ببعث الفن ذاته وإحيائه. وإذ تنطوى ما بعد الحداثة على فن الإنشاء والتصوير والرسم والنحت فقد قام بدراستها نقاد من أمثال Charles Jencks وHal Foster وRosalind Krauss وDouglas Crimp وCraig Owens وB. Buchloh وA. Bonito Oliva وكلهم ضليعون فى كتابات دريدا وفوكو ويوبريار.

وهل التقسيم بين حداثة موحدة متراسة أو عالمية شاملة أو مقفلة وبين ما بعد حداثة متنوعة ومتعددة ومنفتحة، وهو تقسيم واضح للغاية فى العرض الشعبى عند Jencks لهذا الفن الجديد، دقيق كلية؟ وهذا السؤال مهم لأن قيمة ما بعد الحداثة وقوتها النقدية تتشابهان مع نقدها للحداثة.. ويمكن أن نحكم قبضتنا على هذا الموضوع بأن نفحص بتفصيل أدق طبيعة هذه القراءة لتطور الفن الحديث.

لقد زعم النموذج المهيمن لشرح الفن الحداثى أنه بمثابة فن "بشأن أو عند" الفن وفى حالة فن التصوير عنى هذا الكشف التدريجى عن الجوهر الشكلى للوسيلة وعندما أعلن الناقد الحداثى المبكر Clive Bell فى ١٩١٤ أن كل الرسم التصويرى العظيم سجل شكلاً مهماً فقد عنى أن تلك الأعمال الفنية توفرت لها قيمتها الخاصة ويتعين الحكم عليها بمعايير جمالية. وتزعم هذه القراءة للحداثة أنه فى حالة الرسم التصويرى فإن تاريخ الفن الحديث هو تاريخ التطهير الذاتى عن طريق استبعاد جميع المؤثرات "الخارجية" إلى أن نواجه بشكل مطلق من الصفاء البدائى الأسمى الإسبارطى من تجريد ما بعد التصويرى.

وقد أصبح هذه الموقف، الذى كان أول من أبرزه فى تعبيرات فلسفية صريحة الناقد الأمريكى Clement Greenberg، عقيدة حداثية كلاسيكية فى ستينيات القرن العشرين. ويرى جرينبرج فى Modernist Painting (١٩٦١) أن الحداثة تخلق- بتأسيس استقلاليتها فى التعبير- الظروف لظهور فن نقى يواصل متابعة أجدته

الوحيدة. ويعنى الرسم صنع عمل "أصيل" بالاعتماد على طبيعته المادية المعنية. وهكذا تتبأ جرينبرج بأن الفنان الحدائى سوف يكرس المزيد من الوقت لطبيعة وسيلته: استواء لوحة القماش، والحقيقة المادية، والمستوى العمودى للصورة، وسطوع أو عتمة ألوانه، وشكل السناد ووجود الإطار. وتعين على هذا الشكل من الحدائى، الذى ينظم نفسه بوصفه ممارسة مهمة بذاتها متطلعة إلى داخلها، أن يتطور من خلال الاستبعاد الصارم لكل عناصر الزخرفة والتزيين وقد أصبح هذا الاحتفاء بالصفة الاستثنائية الفريدة المتعذرة لاجتنابها للحدائى- قدرتها على إرساء قيمة فنية دون الارتباط النقدى بالمسائل الاجتماعية والسياسية- الطريقة السائدة فى تقدير ممارسة الفن المعاصر، وقد أضحى جرينبرج من نواح عديدة والذى كان أول ناقد يعترف بأهمية عمل Jack-oom Pollock^(٥)، أهم شخصية ارتبطت بالنموذج الحدائى بعد انفجار التعبيرية التجريدية فى أواخر خمسينيات القرن العشرين. ومن الملحوظ أن الفنانين الحدائين الأمريكيين "الكلاسيكيين" فى هذه الفترة من أمثال Jules Olitski و Donald Hudd و Robert Morris و Rrank Stella و Dan Flavin استخدموا السرد البلاغى الذى قدمه جرينبرج لتبرير طابع تجريبيهم الفنى.

ولا ينبغى أن يبهزنا نجاح جرينبرج فى تقديم نظرية لتطور الفن الحديث بوصفه عملية تطوير داخلى عن إدراك أن نزعة الحدائى ذات تاريخ أكثر تعقيداً مما يقدمه هذا النموذج والحق أنه لا ينبغى أن يدهشنا أن نموذج الحدائى عن جرينبرج لا يفسح مكاناً للدادية والسيريالية والتكيبية، وكل هذه الاتجاهات نشدت ربط الفن بالسياسة بغرض توليد رؤى للتحرر الاجتماعى والثقافى وتضمنت الحدائى فى هذه الحالات الثلاث مناهضة ومعارضة شكل وطبيعة المجتمع الحديث: بانتقاد عدمية الرأسمالية، والتشكيك فى الإدارة الاجتماعية للتجربة العادية، وخلق رؤى يوتوبية يندمج فيها الفن مع النسيج الاجتماعى للحياة الحديثة.

(٥) رسام أمريكى (١٩١٢-١٩٥٦) كان شخصية بارزة فى الحركة التعبيرية ولكنه ابتداء من ١٩٤٧ كان على رأس الفنانين الذين اشتهروا بما سعى Action Painting وهو أسلوب تجريدى فى الرسم شكل تياراً فى الحركة التعبيرية التجريدية. (المترجم)

لقد أعلن نقاد وفنانو ما بعد الحداثة، بدمجهم كل أشكال الفن الحدائى فى نموذج الحداثة عند جرينبرج، ارتياهم فى الأرثوذكسية الثقافية المتوطدة عن طريق تطوير ثلاث استراتيجيات مختلفة فى أواخر سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين. وقد أصبح ممكناً من خلال هذه "الالتزامات" الزعم بأن ما بعد الحداثة راديكالية وثائرة على العادات والتقاليد المتوارثة، وشملت ضروب الهجوم هذه: تقديم تشكيلة من الممارسات المستندة إلى نصوص كفصوص راديكالية للآلية المؤسسية لعالم الفن، وتعريف الفنان بوصفه قناة لنشر الفن غير النقى ولكنه الشافى الداوى؛ وتحديد "الفن الاستيلائى أو الاستحواذى"(*) بوصفه وسيلة لوأد فكرة وحدة الموضوع الفنى وفرادته الاستثنائية.

وماذا كانت الدوافع الكامنة وراء هذه الحركات الثلاث؟ أولاً إن الأعمال الموقعية المحددة للفنان البلجيكي Marcel Broodthaers والفنان الألماني Tans Haacke كانت من المفترض أن تكشف الحيل التى استخدمتها المتاحف وقاعات العرض الفنى. ثانياً إن التشكيل الجديد عند الرسام الألماني Anselm Kiefer، فى اعتباره طريقة Picture Plane مثيلاً لفضاء عنيف حيث جرى انضغاط وتشويه أمارات التاريخ، أخذ فى مساءلة الالتزام المتبقى للحداثة بفكرة الجمال بوصفه حقيقة، ثالثاً وفى أكثر أشكالها حيوية، تلك المتعلقة بفنان الهندسة الجديدة neo-Geo أو نصير المحاكاة Peter Halley النيويوركي فإن الاستحواذ على "أيقونات" الحداثة كما عند Piet Modrian أو Barneu Newtman اعتبرت بمثابة طريقة لمعالجة العلاقة بين الحداثة والمؤسسات الثقافية والاقتصادية فى الدولة الرأسمالية الحديثة.

وبما أن هذه الحركات الثلاث مترابطة فإن الحركة الأولى تتعامل مع فكرة وكالات الفن الحكومية، وتهتم الثانية بالخواص الاتصالية والتعبيرية للرسم، وتعرض الثالثة لتدقق السلطة فى نطاق اقتصاد "عولى" - وسوف تنتظم هذه المقالة من حول ثلاث حالات دراسية مختلفة نابعة من كل ممارسة من هذه الممارسات.

(*) الممارسة أو التقنية الفنية التى يقوم بها الفنان لإعادة رسم وتصوير الأعمال الفنية والرسوم والصور الشهيرة وغيرها من الأعمال واعتبارها من عمله الخاص. (المترجم)

وتشمل دراسة الحالة الأولى موضوعاً من العرض الإنشائي^(*)، بما يعنى فى عمل Broodthaers و Haack التشكيك فى الاعتقاد ببقاء وطابع التعريف الذاتى لموضوع الفن الحداثى. ويحاول عمل Broodthaers ، الذى طور كشافه جديدة عقب الأحداث الراديكالية لعام ١٩٦٨، أن يتحايل على التقسيم العقلى للعمل الذى يساند ويدعم سلطة قاعات العرض الفنى. وإذا اعتبر نفسه مثيلاً لمتحف خيالى - "Musée d' Art Modern" كتب وصفاً لفنه منطلقاً من موقف المؤسسة المتحفية والثقافية وقد تمكن عن طريق الجمع بين مجالى الإبداع والنقد من أن "ينطق" الفن ضد اللغات المؤسساتية التى شكلته. وبهذا المعنى فإن إنكاره لتقسيم العمل الذى حدد المتحف تحدى أيضاً ترابط السلطة الثقافية فى مؤسسات متشابهة.

وفى عمل Haacke فإن ما له أهمية ليس فقط موضوع الفن، بل النظام الذى يشكل ويدير وينظم الشبكات الاجتماعية للثقافة ولذلك فإنه عقد النية على أن يستجوب مؤسسات الفن الحديث. وقد أراد بإنتاج أعمال تركز على العلاقة بين قاعات العرض الفنى والهيئات التى تمولها أن يفحص الطريقة التى تضيف بها المهنة المشروعية على نفسها من خلال الرعاية الثقافية ويتساءل: ما الغرض الذى يخدمه الفن فى المجتمع الحديث؟ وما المصالح التى تخفيها رعاية الشركات التجارية؟ وهناك مثالان لهذه العملية وثيقاً الصلة بدراسة هذه الحالة، ففى ١٩٧١ ألقى متحف جوجينهنايم - Guggenheim (فى نيويورك) معرض Haacke لأن الفنان رفض عرضاً باستبعاد عملين موضع خلاف يتناولان ممارسات بعض الأوصياء عليه. وتضمنت هذه الأعمال المعنونة Real Time Soaal Systems الرسوم التخطيطية والخرائط والصور الفوتوغرافية التى شكلت "خطة" بصرية للتفاعل بين القوة الاقتصادية والهوية الثقافية. وتعرضت "الخطة" بالتفصيل للأساليب التى حول بها مالكو الأحياء الفقيرة القذرة أنفسهم إلى شخصيات

(*) مصطلح Installation Art أطلق على مجموعة من الممارسات النقدية فى أواخر الستينيات واهتم بالأوضاع التى يعرض فيها الفن واستكشف الشبكات الفضائية والاجتماعية والسياسية التى احتواها عالم الفن. كما اهتم بالنظم الإطارية المحيطة بقاعات العرض الفنى بوصفها فضاءات ثقافية، وبالاهتمامات السياسية لمولى المعارض والأوصياء على المتاحف وأرباب الشركات التجارية. (المترجم)

محترمة عن طريق المجال الثقافي وتناول العمل، بفحصه تدفق رأس المال من المجال الخاص إلى المجال العام العلاقة بين تراكم مختلف أشكال السلطة والهيبة والمركز.

وقد دعى Haacke بعد ثلاث سنوات إلى أن يعرض أعماله في متحف Wallraf-Richartz في كولونيا (ألمانيا)، ومرة ثانية فإن عمله تعرض للإيقاف من قبل المدراء الثقافيين لهذه المؤسسة وفي هذه المناسبة، فإن فن العرض الإنشائي عند Haacke انطوى على إنتاج تاريخ تفصيلي للوحة مانيه Manet's Bunch Asparagus (حزمة الهليون) التي حصل عليها المتحف مؤخراً من أحد رجال الصناعة المحليين. واتخذ هذا التاريخ شكل قلب العلاقة بين الموضوع وشرحه، وشمل العمل الفني مجموعة من اللوحات الجدارية، تقتفى كل منها أثر تاريخ ملكية لوحة مانيه وانتهت هذه اللوحات الموجزة البيوغرافية برواية لـ هريان أبس Abs. H.J.، الوصى على المتحف والمالك السابق للوحة مانيه. ولأن لوحته الجدارية الأخيرة استرعت الانتباه إلى علاقة Abs. H.J. مع السياسات الصناعية والاقتصادية للرايخ الثالث؛ فإن المتحف طلب من Haacke استبعاد هذا العرض الإنشائي.

وفي نطاق ما يسمى فيما وراء طليعية Trans Avant- Garde^(*) ما بعد الحداثة، التي تقوم وسيطاً بين فن العرض الإنشائي وحالة الدراسة الثانية فإننا نجد فن الأداء الفوضوي- الروحي عند Joseph Beuys^(**) وبالنسبة إليه فإن الفن كتجسيد للوعي المحصن هو القوة الديناميكية التي سوف تبعث من جديد المجال الاجتماعي والمادي. ومسعاها هذا في الوحدة الصوفية بين النفس والعالم يعد سمة ملحوظة في عمل أشهر

(*) تعني هذه الحركة بالكشف عن الجذور السحرية للفن بالجمع بين الأنا والموروث الثقافي بما يولد جيلاً جديداً من الفنانين "الرحل". (المترجم)

(**) فنان ألماني (١٩٢١-١٩٨٦) من أقوى الشخصيات المؤثرة في الحركة الطليعية في أوروبا في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين وتكونت أعماله من تجميع مواد مختلفة من النفايات. وكان اللبد والشحم والدم والعظم من المكونات المقدسة (الفينيشية) في أعماله. وعمل طياراً أثناء الحرب وسقطت طائرته في منطقة القرم وأنقذه التتار وعالجوا جروحه بالشحم ولقوه في غطاء اللبد. (المترجم)

طلبته Anselm Kiefer^(*) وهو دائماً، مردد صدق Beuys فى سبيل إعلان الخاصية التكفيرية لفنه، وبينما تجمع بلاغة Beuys التنبؤية بين الصيغة الصوفية للدادية والطابع المسرحى لغن الأداء فإن فن Kiefer يعود إلى الرومانسية الألمانية لكى يجابه تراثها المثلث. ويحدد- مثل أستاذه- قوة الفن كشكل للخصوبة السحرية؛ وسطوح رسومه غابات متنقلة من العلامات والجروح والأورام وتشابكت هذه المجموعة المختلطة من الطلاء التى غطت اللوحة بالانسياب والتنقيط والعلامات الهائلة المشكلة لها وعلى نحو دائم بسطوح جديدة وفضاءات جديدة وتشكيلات (مورفولوجيا) جديدة. ومن الجلى أن Kiefer يحدد سلطة الرسم بقدرته على ترجمة السرد والحكى إلى كثافة المواد المغيرة للشكل والهيئة. ويغزو الرسم فى مثل هذا السيناريو شكلاً من التعويذة والسحر: سوف يزيل ظلام الميتولوجيا التيوتونية (الجرمانية) لكى يواجه نزعتها البدائية ولا عقلانياتها. ويعد هذا التحول بعيداً عن "عالمية" الحداثة- الرفيعة سمة لدى شخصيات رئيسية أخرى ارتبطت بهذا النمط من فن ما بعد الحداثة. ويمكن رؤية الاعتقاد بأن العودة إلى فن الرسم تنطوى على العودة إلى ميتولوجيات الثقافة القومية فى عمل مواطنى Mark-George Basetitz us Luperis حيث يتعرضان فى عملهما للثقافة الألمانية. وعلى الرغم من أنهما أقل تأثراً بتعبيرات Beuys ذات الدلالة الغامضة عن طبيعة الفن، فقد حولا مثل Kiefer "ما بعد حداثة" لما هو فوري ومباشر من الأشكال المسرحية "لفن الجسد"^(**) إلى أسلوب تعبيرى عنيف يتأرجح بين "الأسطورة" والسيرة الذاتية "البيوجرافيا".

إن فكرة الوحدة الكاملة الصوفية للنف تشكل مملكة سحرية منفصلة عبر عنها أيضاً الجناح الإيطالى لما وراء الطليعية Trans Avant- Garde حيث قاد Francesc

(*) رسام ألماني مولود فى ١٩٤٥ لم يكف عن مواجهة الماضى الألمانى محارلاً التخلص من محرمات (تابو) النازية. عمد إلى إحياء الرومانسية، وتعددت تقنيات الرسم عنده، وأضاف إلى المواد الخام التى يستخدمها الحيوانات الميتة أو الحية. (المترجم)

(**) "Body Art" جنس فنى نشأ فى سبعينيات القرن العشرين حيث يشكل الجسد الفعلى للفنان أو الموديل جزءاً من العمل الفنى. (المترجم)

Sandro Chiua و Clemente العودة إلى الوسيلة التقليدية للرسم بالزيت والتصوير الجدارى (الفريسك). وبالنسبة إلى الناقد الإيطالى Achille Bonito Oliva، البطل القائد لهذا الأسلوب، فإن هؤلاء "الرحل"، برفضهم اتساق النزعة الحداثية وتجانسها، ينتجون فن "الرغبة" الذى يقاوم القوى القمعية التى يفرضها "القانون". وهذه إعادة للرسم بالزيت إلى الفن، والتى تتطوى على عناصر وصفية وزخرفية تتيح لـ Oliva أن يزعم أن هؤلاء الفنانين راديكاليون وتقليديون فى آن واحد، وهو يرى أن مثل هذا العمل الذى تنقصه الصفة المميزة عن قصد وعمد، لا يتمسك بمواقف بطولية ولا يستحضر أوضاعاً "نموذجية" وهكذا تواضع هذا العمل "الضعيف" هو الذى يحقق قواه الشافية مداوية.

إن فكرة الفنان الذى يعمل بوصفه مداوياً روحياً وثقافياً، أو إن العمل الناتج أصلى بسبب معالجته للمصادر الكلاسيكية والميثولوجية، رفضتها بحزم الشخصيات التى ارتبطت باتجاه الاستحواذ الفنى، الحالة الثالثة من حالاتنا الدراسية.

وبدلاً من الاعتماد على الممارسات التى من المفترض أن تدمج الفنان مع العمل الفنى وهى سمة مميزة للميتولوجيا ذات الطابع الرومانسى لاتجاه ما وراء الطليعية فإن Jeff Koons و Haim Steinbach و Peter Halley و Cindy Sherman و Sherrle Levine وكلهم برزوا إلى المقدمة فى أواخر سبعينيات وأوائل ثمانينيات القرن العشرين أنتجوا أعمالاً تقاوم فكرة السلطة الفردية والقدرة الإبداعية الفنية.

ويرز Sherman و Levine فى ١٩٧٧ عندما اعتبر فنهما المحاكى بمثابة اختراق فى تشكيل جماليات ما بعد الحداثة. أما Douglas Crimp، الذى عين مؤخراً مدير تحرير مجلة "October" أشهر مجلة مختصة بنظرية إعادة تحديد الإطار الفنى عبر الاستعانة بأفكار ما بعد البنيوية، فقد ابتدع معرضاً عنوانه "صور" جرى تقديمه فى قاعة العرض البديلة Lower Manhakkan وتعين اعتبار هذا الحدث جوهرياً لأن مقالة Crimp فى الكتالوج التى أعيد نشرها بتوسع فى مجلة October 1980 زعمت أن الشخصيات التى اختارها لهذا الحدث تشترك فى فكرة أن خبرتنا بالواقع يجرى تنظيمها وتجديدها عن طريق الصور الذهنية (Images) التى تكونها عنه، وتكمن أهمية العارضين فى قدرتهم على فهم أن الواقع يتكون من الصور المرسومة Pictures

التي نعدّها ونستوعبها ومن خلال تعاملاتنا مع مؤسسات المجتمع المعاصر، وأكد أن "خبرتنا محكومة إلى أبعد حد ممكن بالصور Pictures، الصور الموجودة في الصحف والمجلات والمعرضة في التلفزيون والسينما، وبجانب هذه الصور فإن خبرتنا المباشرة تبدأ في التراجع لكي تلوح تافهة أكثر فأكثر". وهكذا، فإن القوة المغارقة لعمل Levine و Sherman قد تبّدت في قدرتها على تأكيد أنه أعوزتها السلطة الكاملة، وسجلت أن التصوير الفوتوغرافي كان دائماً إعادة تمثيل، وفضلاً عن هذا فإن تصويرهما المدرك لذاته، الذي قاوم فكرة أن التمثيل يمكن أن يعلن عن الأصالة، كان ما بعد حدائى لأنه أكد الوضعية الميتولوجية للتأليف والإبداع.

ويعد عمل شيرمان Sherman المعنون Untitled Film Still mo21 مثالاً كلاسيكياً على التقنية التي تستخدمها. وتبدو الشخصية النسائية (وهى ذاتها Sherman) وجرى تصويرها بالأبيض والأسود، مأخوذة من فيلم سينمائى. ومن ثم حذف الصورة (الرسم) سينمائية لأن شيرمان تبدو تجسيد اللحظة في لقطة سينمائية، وتظهر قلقة، وجرى تصويرها من زاوية غريبة تكاد تكون مقتضبة. وهناك ما يدعو إلى التأمل في هذا التشكيل المغرى الذى يحمل على الموضوع النسائى. والصورة Image ليست صورة شخصية Partrait ولا قصة وثائقية، ولا تؤدى أية وظيفة "رسمية" وتخفق في وصف قصة أو تصوير موقف حقيقى وتبين الصورة (Image) كيف ندرك البيانات الاجتماعية التي نتحرك فيها، وعندما ندرك أنها تشكل جزءاً من حلقات (لقطات) ممتدة من الصور Images حيث تظهر فيها شيرمان في سيناريوهات مختلفة، يبدو واضحاً أنه يجرى سؤالنا لكي ننظر في كيفية تحديد هوية المرأة في ثقافتنا.

وواصلت Sherrie Levine هذا الإنكار للطابع المرجعى للصورة الفوتوغرافية. وفي استيلائها على الصور القانونية المعترف بها كل من Walker Evans و Edward Weston نرى الدمج نفسه لفكرة المحاكاة وسياسة النوع. ومن المؤكد أن الأمر هو أن هذه الصور تعلن أن هذا الفن تمثيل لذاته، وأن العبء الذى يتحمله الفن أجمع يتمثل في ارتباطه الذى لا محيص عنه بالموروث، ويعد راديكالياً إلى حد انتقاد هذه الأعراف والتقاليد التى تزعم تمثيل الواقع الخارجى. والتصوير الفوتوغرافى هنا لا يقدم نافذة على العالم، إنه عملية عاكسة (مرآة) تعكس تقنياته ذات الطابع التقليدى والطبيعى من

أجل تسجيل العالم والإحاطة به، واستمر هذا الاهتمام بالخاصية "التخليية" للأصالة في معرضها لعام ١٩٨٤ في Nature Morte Gallery في نيويورك الذي تضمن نسخاً من رسوم Malevich و Schiele اللذين يمثلان الجناح التعبيري والجناح الكلاسيكي من نزعة الحداثة المبكرة.

كما يعد الافتتان بالطبيعة التمثيلية سمة مميزة لعمل بيتر هالي Peter Halley وإن فنه الذي ينشر الخلايا والقنوات في مجال هندسى شبيه بالشبكة استوحاه من قراءة فوكوويبودريار وبالنسبة إلى Sherman و Levine اللذين عملا من خلال الوسيلة الفوتوغرافية، فإن التمثيل لن يشير إلى الورا إلى حالة كينونية في الطبيعة تتسم ببعض البداءة الفطرية: فالتكوينات والتشكيلات يسجنها التراث الذي يحدد هيئتها ونمطها وإطارها، وتتشابك الصور Images في نطاق نظام بصرى يستحيل عليها أن تقلت منه، والأعمال الفوتوغرافية هي نسخ من النسخ، وإلى جانب هذا الاهتمام بالتمثيل كتكرار فإن هالي Halley، المنظر والرسام الرئيسى لهذه المجموعة، يبدى اهتمامه بالعلاقة بين التمثيل والقوة، فالتطلع إلى الحداثة هو أن ترى نماذج وشبكات وحركات وتدفقات المواد والطاقة. وهكذا فإن رسوم "شبكة" الألومنيوم التي قامت بها Stella فى أواخر خمسينيات القرن العشرين، التي اعتبرت بوجه عام قمة الحداثة المتأخرة، قد تمت لكى تكشف عن الطرق السريعة الضخمة فيما بين الولايات التي تعبر أمريكا.

ويركز هالي Halley على فكرة الهندسة لكى يتساءل لماذا يقرنها المجتمع الحديث بالحرية والنور والعقل والحقيقة. وفى (١٩٨٧ "Notes on Painting" Collected Essays)، اعتبر التجريد كشكل من الحصر والتجديد: فن غير تمثيلي، مفرغ من بلاغته اليوتوبية، تستوعبه اللغات العصرية للشركات متعددة الجنسيات. وأصبح الموضوع الفنى الحدائى الذى يصنعه الإنسان يشكل جزءاً من الرأسمالية الاحتكارية المتأخرة. وفى أشكاله الهندسية والشبيهة بالشبكة فإن هالي يكتشف شبكات اجتماعية وحكومية ومالية. ولم يعد مسعى الحداثة إلى النقاء البصرى المطلق "بريئاً"، وبدلاً من ارتباطها بالجماليات المثالية فإن هالي يحدد موقعها فى السجن الفضائى للرأسمالية الاستهلاكية ومن ثم فإنه يزعم أن رسومه بمثابة "نقد للحداثة المثالية". ووضع فى

"Colour Field"(*) السجّن، وسدت بجدار المساحة الضبابية عند Rathko(**).

إن الهندسة، بعيداً عن كونها عملية تنوير اجتماعي هي في واقع الأمر أداة للسيطرة الاجتماعية. ولذلك فإنه يربط العلاقة الهندسية بما يعتبره الصورة Image المهيمنة للرقابة: الشبكة، ويقول: "في الشبكة لا توجد أبنية أثرية والشبكة نفسها فقط هي أثر أو بناء أثرى تقتصر على طابعها الدائري اللانهائي. ولا يوجد في الشبكة إلا حضور لا نهائي الحركة: التدفق المجرد للبضائع ورأس المال والمعلومات والفضاء العام جرى تفرغته والفضاء الخاص هوى إلى منطقة لا نهائية: الاستهلاك الفارغ". وفي هذا السياق فإنه علينا أن نتناول رسماً مثل Day Glow Prison (١٩٨٢) ويبدو أن بتضليله عن عمد، يضم عناصر من سقط المتاع والتجريد، أي ثقافة التفاهة والحادثة الرفيعة، فمن ناحية هناك اللون الضوئي الكهربائي الصارخ، ومن الناحية الأخرى صرامة الحادثة الهندسية.

وهذا تحول غريب موحش: كما لو أن المخطط اللوني للضواحي قد دخل إلى فضاء الفن الحديث "النقي"، ويؤكد عن طريق تعيين مخطط توهج اللون اليومي لعمل Stella في أوائل الستينيات أن مثل هذا الفن النقي هو صدى الآثار الاجتماعية للحياة الحديثة... وعن طريق إدراج Roll-a- Tex والجص الاصطناعي لتزيين الشكل التربيعي الذي يتحكم في الصورة Image فإن اللون يصبح تلويناً، وهو الذي تنتجه وتستنسخه الأدوات، وهي التي يسجل طبيعة إعادة الإنتاج أو الاستنساخ الخاص به. واللون لا "يشير إلى" الطبيعة بل إلى Roll-A-text وإذا كانت بنية الصورة Image، تداعي

(*) أسلوب في الرسم التجريدي انتشر في أواخر أربعينيات القرن العشرين حتى الستينيات، اهتم بتغطية اللوحات بمسطحات ضخمة من الألوان المتغيرة. ومن أبرز أعلامه Rothko و Newman في أمريكا. (المترجم)

(**) رسام أمريكي مولود في لاتفيا (١٩٠٣ - ١٩٧٠) انتهى إلى الأسلوب التجريدي برسمه لوحات ضخمة الأبعاد في مسطحات أفقية بألوان بسيطة ساعياً إلى التعبير عن أفكار معقدة بأشكال بسيطة للكشف عن الحقيقة نشد مع نيومان تحديد أشكال التجريد بالتشكيك في مصطلحات وأسس الطليعة الأوروبية. مات منتحراً في ١٩٧٠. (المترجم)

الشكل والمضمون، تتعامل مع حبس الخبرة فى تقنيات "الإعلانات" فإنها تتحاشى خواص اللذة والمتعة لـالبوب Pop التى تحتضن، من نواح عديدة، الثقافة الاستهلاكية التى ينتقدها هالى Halley ، وفى معارضة لـ Warhol الذى يكرر إلى ما لا نهاية مظهر الصور الاستهلاكية فإن هالى يشتبك مع الأساليب العديدة للحدث لكى ينتقدها وإذا كان مثل Warhol يستبدل عبادة الأصالة بممارسة التكرار فإنه يفعل ذلك لكى يجابه التكنولوجيات المنتجة التى تكون النظم الاجتماعية والسياسية للمجتمع ما بعد الصناعى.

إن تقديم فن ما بعد الحدث بوصفه ينبثق من شبكات وقت الفراغ والاستهلاك فى المجتمع المعاصر استمر فى عمل Haim Steinbach و Jeff Koons وإذا كان هالى يعتبر العلامة الهندسية جوهر الحدث فإن هذين الفنانين بهرهما عالم التسوق (shopping)، وموضوعات الاستهلاك هى التى تتكرر فى عملهما. وفى حالة Steinbach يغدو التسوق شكلاً من السباحة الحضرية حيث تعتبر السلع بمثابة تحفة تذكارية؛ وبشراء شئ ما تتم محاولة التشبث بالتجربة التى حملت على الشراء فى المقام الأول.

ويتخذ هذا الفن المحاكى مرجعاً له البيئة الأكثر معاصرة: مراكز التسوق والمتاجرة والمسماة "مول". موكب من المحاكاة الساخرة Parody والتقليد Pastiche تتشابك وتلتحم فيه أساليب تاريخية وثقافية فى تشكيلات "فريدة"، ومراكز التسوق (مول) هى لإفضاء المصنوع من الفانتازيا المحضة. وتمزج مراكز التسوق (مول) عن طريق اعتبار عملية التسوق بمثابة "تجربة" وقت الفراغ "العادى" و"الغريب" محولة الاستهلاك إلى شئ "مثير". ويغدو التسوق هنا فانتازيا الهروب، فانتازيا الإجازات. ويمكن القول إن التسوق يتضمن ويعيد خلق العالم؛ فالتسوق هو السياحة.

إن Steinbach، الذى أبدى رأيه فى ندوة مناقشة ضمت هالى و Koons قائلاً: إن الميديا، من زاوية ما، تحولنا إلى سائحين ومختلسى الرؤية فيما يتجاوز تجربتنا... وفى حالتى فإننى أقضى وقتاً طويلاً فى التسوق، يخلق موضوعات وبيئات مصغرة...

أو على وجه الدقة فإنه يدير المنتجات. وهذه المنتجات التى وضعت على أرفف فورمايكا تشبه قاعدة التمثال هى السلع التى نشترىها من مراكز التسوق "مول".

ولتتزم المنتجات التى أنتجها Steinbach بالطريقة التى نستخدم بها ونجمع ونقيم السلع العادية. ويتمثل إنجازها فى الربط بين واقعين- مراكز التسوق (مول) والمنزل- وإذا كانت الأشياء الاستهلاكية - السلع التى نشترىها- قد أصبحت فى عالم كهذا المعادل الحديث للطوطم البدائى فربما كان ذلك لأن التسوق فى عالمنا أضحى نوعاً من الديانة، حلماً بالطهارة والصفاء. وفى هذا الوقت نفسه يوجد فراغ لا محيص عنه هنا، خواء عظيم لا يمكن أن يكون افتدائياً أو تخليصياً لأن النزعة الاستهلاكية على وجه الدقة تنهض على فكرة الاستهلاك اللانهاى. فالرغبة^(*) تثار وإن تشبع أبداً وتولد السلع الشعور بالوحدة الذى يجب التغلب عليه بمزيد من الاستهلاك أيضاً.

وفى بريطانيا وجد كوقف اتسم بنزوات أو مفاجآت من الاستحواذ فى عمل Tony Cragg و Bill Woodrow و Edward Allington وأشاروا كلهم إلى أشكال من الإنتاج الضخم، على الرغم من أن التلميحات إلى عالم التجارة وسقط المتاع اتجه إلى أن يتسم بطابع شعري بدلاً من أن يكون سياسياً وفى خارج المعسكر، فإن النزعة العسكرية العاطفية لـ Gilbert و George^(**) تستوعب القوى الأيقونية لفن العصور الوسطى والواقعية الاشتراكية السوفيتية مما أثمر لوحات استحوذت عليها الذكورة والخصوبة والموت. فهل هذا الرسم الأيقونى (الأيقونوغرافى) الاستحواذى، الذى يختزل العالم إلى مجموعة من الرموز التصويرية أو المخططات البيانية يؤكد أننا

(*) تمثل الرغبة فى فكر ما بعد الحداثة كل الدوافع الشهوانية فى الفرد التى تقوض سلطة العقل. واستمد هذا المفهوم من فرويد الذى أكدت دراساته على الجانب الخفى فى الطبيعة الإنسانية الذى يكمن فى اللا شعور، واعتبر أن الثقافة الغربية اهتمت بقمعها فى القرون القليلة الماضية على أساس تهديدها للنظام الاجتماعى والبنى المؤسسية. (المترجم)

(**) فنانون ولدا فى ١٩٤٢ و ١٩٤٣ تشابكت فى عملهما التقاليد والعادات والاحتفالات، اشتهرا فى أواخر الستينيات من القرن العشرين. (المترجم)

نتعامل مع فن عادي أو مبتذل أو فن عما هو عادي ومبتذل؟ ووجد نوع آخر من الاستحواذ في عمل الفنان الشاب البريطاني Damien Hirs (مولود في ١٩٦٥)، وابتداء من خرافة وأبقاره الميتة التي تلمح إلى مصادر مثل عمل رامبرانت "The Flayed Ox" إلى رسومه الأخيرة التي تلمح إلى محاكاة (Peter Taoffe للفن البصري Op Art إبان "العصر الذهبي" لنزعة المحاكاة) النيويوركية في ثمانينيات القرن العشرين فإن عمل Hirst سلم بالتشابك اللا نهائي في الموضوعات "الرفيعة" و"المبتذلة" في أيقونوغرافيا الفن الأوروبي.

لقد جرى التساؤل في مطلع هذه المقالة عما إذا كان ثمة شيء له قيمة يمكن إحرازه من اقتران ما بعد الحداثة الفنية بما بعد الحداثة الاجتماعية. حسناً، فإذا لم توجد حدود فاصلة بين عمليات عدم التجانس الثقافي والتفتت الاجتماعي- حدود فاصلة تمكنا من التمييز بين الفن "الجيد" والفن "الردئ" فنستطيع على أقل تقدير أن نختم فحوصنا بتأكيد أن بعض أشكال الممارسة العصرية تقيم حوارات مع الحداثة والمشهد الاجتماعي للرأسمالية الاحتكارية المتأخرة أكثر أهمية وأكثر نقدية من غيرها. وفي حالة النحات الأمريكي Richard Serra فإننا نجد أعمالاً تتصدى للفضاءات العامة، مراكز التسوق (مول) التي تعلن ما بعد الحداثة أنه يتعين أن تتلاشى إلى فضاءات محاكية من التكرار والمنمّنة والنزعة المادية أو الطبيعية المحضة في منحوتات Serra التي تنزع إلى ملء الهواء الطلق في البيئة الحضرية، تشجع المتفرجين على إمعان الفكر في طبيعة التجربة الحية للفضاء المبنى وكون أن طبيعة هذا الفن يمكن أن تكون شيئاً خلاف الاعتراف القاطع للثقافة الاستهلاكية ما بعد الحداثة يمكن أن ترى في المجادلة التي أحاطت بعمله القوس المائل Tilted Arc، عمل جرى تدميره بعد إزالته من Federal Plaza في نيويورك في ١٩٨٩ .

إن تمثال Tilted Arc بجمعه بين المادة الخام والشكل الراسخ الحصين قاوم فكرة أن الفن العام لابد أن يزخرف أو يزين أو يجل الفضاء العام، ولا شيء فيما يتعلق بهذا التمثال يشير إلى أنه ساند بلاغة "التجديد الحضري"، لا شيء شبيه بالحياة

الرفيعة الرعوية فى كثير من الفن العام المعاصر. ولا يعد الموضوع بئى حال من الأحوال فاتناً أو باعثاً على السرور. والحق أن قدرته على إعاقه أى شعور حقيقى بالتكيف مع الفضاء إنما هو إصرار على أن ينبغى للناس أن يجبروا على التعامل مع بشاعته الضخمة ومن المؤكد أن هذا العمل حرم الناس من فرصة إمعان النظر أو معاينة البيئة المباشرة. ويتعين أن يضاف إلى هذا الطابع الشبهى لهذا العمل، ومسألة الهندسة الصناعية هنا تعود إلى قطاع المدينة- الذى يمارس نشاطاً غير صناعى- الحكومى والمالى والاستهلاكى، جالباً معه التاريخ المطوى للصناعة. وهذا التسجيل لما هو غريب مروع اختلط بأنبعاد عمل يوحى بالدوار والخوف المرضى من الأماكن الضيقة، وهو موضوع حضوره كلى الوجود ومحير معاً، يدعو الفرد فى أن واحد إلى "الامتزاج" مع شكله ومقاومة فكرة الاستيعاب.

إن الطابع غير المؤلف للموضوع- قدرته على مقاومة التمثل الحضرى بإصراره على الغرابة التى لا مفر منها للفضاء الحضرى- هو الذى أعاد هذا العمل ما بعد الحداثى إلى أحد الموضوعات الأساسية فى الحداثه الأدبية والفلسفية، فذلك الوعى تميز بشعور عدم المواطنة المتعالى وفى كتابات كل من شليجيل^(٥) وبودلير وكيركيغارد وبنجامين وكافكا وأدورنو وهيدجر نعثر على فكرة أن الوجود شكل من الاغتراب والحياة شكل من النفى، أو سجل من الضياع الكارثى الذى لا مهرب منه. ومن ثم، فإن قوة وضعف الفن فى أن واحد هى التى تولدت من تجربة الاغتراب هذه عن العالم، وإنه من خلال هذا الطابع المفارق، الذى يجمع بين الأمل اليوتوبى فى عالم أفضل والذى يؤكد فى الوقت نفسه الانفصال المكتئب عن هذا العالم المباشر، يوجد دائماً، ولا يهم ما هى التسمية التى تطلق على ذلك، بعد إيجابى لمعظم الأعمال الفنية المعاصرة والمؤثرة وفى عصر تبدأ فيه متاحف وقاعات العرض الفنى تشبه مراكز التسوق(مول) عن

(٥) شليجيل Schlegel (١٧٧٧ - ١٨٤٥) شاعر وناقد ألمانى رومانسى، كان من بين المؤسسين لتاريخ الفن وفقه اللغة المقارن. (المترجم) .

طريق ممارسة وتسويق الاستهلاك ووقت الفراغ باعتبارهما نوعاً من "التجارب"، فربما كانت هذه الأشكال الفنية هي التي تبلغ ما هو يوتوبى من خلال ما هو سوداوى الذى يستحوذ على أعظم الاهتمام فهل من الممكن، إذن، أن نستخلص شكلاً ما من السلوى الساخرة من حقيقة أن فئات ما بعد الحداثة الجديدة التى تمارس النشاط اللا صناعى، بقواعدها الموجودة فى الميديا والإعلانات والخدمات المالية والتسويق وبيع البضائع ووقت الفراغ والبيع بالتجزئة كانت هي الجماعات نفسها التى أسفرت حملاتها عن تدمير Tilted Arc؟ وإذا كان الأمر كذلك فنحن مضطرون إلى مقاومة البلاغة والرؤيوية (الغيبية) أو الثائرة على التقاليد والمعتقدات المتوارثة لهذه الأشكال من نزعة ما بعد الحداثة التى تخبرنا بأننا محكوم علينا بعالم محاكى، وتصر على أن أكثر أشكال الفن المعاصر إثارة للجدل تستمر فى الاشتباك مع أكثر الموضوعات المسيطرة فى النزعة الحداثية نفسها.

الفصل التاسع

ما بعد الحداثة والسينما

فال هيل ، وبيتر إيفرى Val Hill & Peter Every

إن سينما ما بعد الحداثة وعلى نحو ساخر لها الآن تاريخ. وفي ١٩٨٤ لاحظ فردريك جيمسون أن السينما المعاصرة يبدو أنها تعبر عن شكل جديد من "اللامعق": تركيز على الأسلوب والسطح أو الظاهر. ورأى جيمسون أن هذه القسمات مثلت نكوصاً عن الحاجة إلى تقديم خاتمة سردية أحادية المعنى لنص ما بعد الحداثة، وتوقع تشظي الثقافة الجماهيرية ونهاية نظام دال راسخ بشدة، وتفكك الاختلافات الثنائية وبروز المستهلك الفردي بالنسبة إلى إعادة تشكيل رأس المال متعدد الجنسيات.

وفي أعقاب هذا التغير، فإن النقد السينمائي ما بعد الحداثي احتفى بحيوية كثافة المظهر الخارجي والقراءات متعددة الأصوات (المعاني) "ضد الميل القطري" الذي يسمح به بيد أن بعض النقاد (مثل Linda Nicholson و Steven Connor) بدعوا مؤخراً في التساؤلات عما إذا كان هذا المظهر الخارجي، ومتعه التناسلية هي كل ما يتعلق بالنص السينمائي ما بعد الحداثي ويتساءلون مرة أخرى ما الذي يدعم أساس النص إذا كان موقف القارئ حراً كما زعم منظرو النسبية؟ وما تنطوي عليه هذه الأسئلة هو فحص التناقضات التي أحدثتها النزعة التعددية المطلقة- استكشاف الحدود التي يفرضها انتقاد القيم.

وفي هذه المقالة فإننا نود تأكيد أن الاهتمامات الخاصة بالموضوع التي نتجت في نطاق سينما ما بعد الحداثة تكشف عن مجموعة معينة للغاية من القيم. وتزعم أن

السيناريوهات التي وجدت في كثير من أفلام ما بعد الحداثة تعبر عن كثرة من التكرار، تدور على نحو خاص من حول قضايا (الجنس) والنزعة الجنسية والإثنية مما يجعل فكرة المغزى العائم إشكالية ونود التساؤل لماذا- على ضوء الغلطة النقدية التأملية في سبيل النقد القاسي للنص- يستمر الجمهور والمخرج والناقد في التواطؤ، على نحو ممتع في معظم الأحيان، على الإبقاء على البنى السردية التي تعيد تكرار مكاسب وخسائر "الاختلاف" ولو في أشكال جديدة ومتحولة؟

الحداثة وما بعد الحداثة والنقد السينمائي

لقد جاهدت نظرية الفيلم في نطاق الفضاء الاستطراذى للحداثة النقدية لكى تكشف عمل النص- ولا سيما في محاولتها تحديد موضع المتفرج والحفاظ على العالم في نطاق بارامترات الرأسمالية وسيادة الرجل (البطيركية) واشتهاء أفراد الجنس الآخر. وبالنسبة إلى مخرجين من أمثال جودار ونقاد على غرار Comoli و Narboni فإن الفانتازيا تتمثل في صنع فيلم يتحدث بوضوح إلى ومن أجل البروليتاريا والمستعمرين والنساء بطريقة لا تشارك في البنى السردية الواقعية البرجوازية المميزة لهوليوود. وهذه الرغبة في أن تطعن في النص، وأن تعمل الفيلم الصحيح وأن تقترح أن موضعنا تحد بطريقتنا تواطؤية وحصرية على السواء، أثمرت أسلوباً ثرياً من العمل النظري وتركز Laura Mulvey، مثلاً، عملها المبكر على القصص السينمائية التي أنتجتها سينما هوليوود في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين- فترة شغلت فيها السينما الأمريكية نفسها بوضوح بالتعامل مع والتحكم في "الوحوش" التي أنتجتها الحرب العالمية الثانية. وكان الأكثر وضوحاً، في نطاق السينما الشعبية المرأة الشؤم في أفلام التشويق والأفلام البوليسية "Film Noir" التي أصبحت، لأنها تخطت الحدود وتجاوزت مكانها، امرأة معذبة ومدججة بالموت أو بالزواج، متحولة من جوان كراوفورد إلى مارلين مونرو في فترة قصيرة نسبياً حالمًا تراجع الشكل النسائي إلى خدمة العلاقات البطيركية الإنتاجية. واعتبرت Mulvey بحق أن الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين المثال النموذجي لما هي عليه سينما هوليوود وما تفعله.

وفى الوقت نفسه فإن أحداث مايو ١٩٦٨ السياسية والثقافية أثمرت فى أعقابها زوال أوهام اليسار المنظم وهزيمة الحركة النقابية والتهميش القاسى للطبقة العاملة من زاوية السياسة الجماهيرية. بيد أن هذه الأحداث أتاحت أيضاً بروز السياسة ذات الهدف المفرد والحساسية، الفطرية على الأقل، تجاه أوضاع معينة تتعلق بالهوية الفردية.

وقد غدت حرب فيتنام فى السبعينيات نوعاً من الدال البديل بالنسبة إلى المناقشات المتعلقة بجميع النضالات الاستعمارية ومن النتائج التى تلت هزيمة أمريكا أن جمهور التيار الرئيسى فى السينما بدأ يشهد أفلاماً "صعبة" مثل Taxi driver و Apocalypse Now. وحاولت أفلام التأمّر التى تكاثرت فى أوائل السبعينيات مثل All the President's Men و The Parallax View و The Conversation أن تتعامل مع التناقضات والبارانويا التى نتجت عن الخسارة الجذرية لليقين السياسى والقومى أنت تقصد أنه توجد CIA داخل الـ CIA؟". بيد أن كل محاولة لكشف "الحقيقة" أو استرداد شكل ما من الحالة السوية المعتادة عن طريق طرد الأرواح الشريرة (الشياطين) من دولة معرضة لشبهة حمل السينما والجمهور والجميع بعيداً عن "الأرض المأمونة"، إلى حين أن بدأت عبارة "لا مثيل لمنزلى" التى قيلت ذات مرة بسذاجة باعثة على الاطمئنان فى The Wizard Oz تعنى الجو الغريب الموحش وليس الفطيرة المحشوة بالتفاح.

وقد أصبح نقد الأنماط السائدة للتمثيل، مقترناً بتطبيع "صدمة الجديد"، نوعاً من حصان طروادة الذى فتح باب المدينة للعمل النظرى والعملى الذى تنطبق عليه كلمة "عملى" ويستلزم عمل النظرية الحديثة بعداً نقدياً، موقفاً يمكن أن يتكلم انطلاقاً منه لكى يحكم على النص ويقيمه وتضعف ما بعد الحداثة، فى نزعتها الانعكاسية النقدية- وهى طريقة كافية بالفعل فى النظرية الحديثة ذات الطابع النقدى- سلطة (حجية) النظرية؛ حيث تعتبرها بمثابة موقف وليس الموقف. وقد ولد تخفيف هذا البعد النقدى وتليينه حجماً ضخماً من العمل تمحور حول "قراءة النص بطريقة مختلفة".

بيد أن ما بعد الحداثة، بتتويم العقل الذى تميز بتجنب السلطة النصية، ما زالت تنتج "وحوشاً"، فكيف يحدث هذا؟ وفى القسم التالى سوف نناقش أن ما بعد الحداثة

تُعرف الحكايات المذكورة أعلاه، تعرف شفرات التمثيل الذي أصبح مصدر متعتنا، حتى ولو كانت متعة تعرف إلى أى مدى معرضة للشبهة والخطر. ولم تكن سينما هوليوود دون تناقض أبداً، لكن سينما ما بعد الحداثة تتسلى بهذا التناقض فى نطاق إطار يعمل على أن يتيح متعة، وأن يجعل التناقض مرئياً، لكنه ما زال، على نحو ما، يتدبر "ترتيبه" وإعادة العالم إلى مكانه.

طبيعة سينما ما بعد الحداثة

تحتوى سلعة سينما ما بعد الحداثة المتداولة إلى ما لا نهاية على نظم دالة تحمل معها قيم الرأسمالية وكذلك الامارات المتناقضة للنضال المتولد داخلها، ما يعنى أن قصص سينما ما بعد الحداثة هى قصص معينة تعمل من خلال موضوعات معينة للغاية ويمكن قول هذا بوضوح الآن عن أى فترة من فترات التاريخ أو الثقافة مما يستدعى التساؤل على وجه الدقة عما يجب قوله عن سينما ما بعد الحداثة. إن ساحة السوق السينمائية لما بعد الحداثة تهيمن عليها المنتجات الأمريكية، وكان لهذه الهيمنة عواقبها بالنسبة إلى شكل الفيلم الأمريكى وبالنسبة إلى السينما الأخرى القومية والمحلية والمستقلة التى يجرى استبعادها أو تجاهلها أو تهميشها، وفى الوقت نفسه فإن الفيلم الأمريكى يضطر إلى الحد من خصوصيته الثقافية لكي يرضى الطلب ليكون "عالمياً"، وهكذا بينما تتوفر لأشكال سينما ما بعد الحداثة وشفراتها وأعرافها وبنيتها السردية مشابهة شديدة لتلك التى أنتجتها السينما الجماهيرية فى فترة الحداثة فإن دواعى العولة تنتج تكتيفاً فى خصوصياتها الشكلية وكذلك تتيج وتقتضى تناولا للاختلاف. ونحن نشدد هنا على "الاختلاف" لكي نشير إلى كل من تنظيم الاختلاف الجنسى والإنثى فى نطاق بنية النص ووضوح تلك التمثيلات المعبرة عن الاختلاف فى نطاق حركة النص فالاختلاف مسموح به ومحتفى به ويستثمر بوصفه سلعة، وتغدو السياسة الثقافية للاختلاف السلعة الثقافية للاختلاف وتحتفى سينما ما بعد الحداثة، على المستوى الظاهرى، بقيمتها التبادلية والاستعمالية وتخبرنا كيف صنعت وكم تكلفت وعم تتحدث. ويصدق هذا بصفة خاصة على ما هو، من زاوية ما، مثال نموذجى لسينما ما بعد الحداثة، فيلم الحركة والحدث Action Film .

وفى فيلم الحدث والحركة فإن تاريخ وأعراف ومصطلحات كثير من أنواع سينما (الويسترن والفيلم المثير أو البوليسى وفيلم الرعب وفيلم الحرب والقصة الغرامية والدراما العائلية) يجرى تقطيرها وتكثيفها لى تنتج سلعة تحتوى على كل أنواع المتع والالام وتساير أكبر عدد ممكن من الأسواق، بينما لا تتحاشى تماماً القيم الأمريكية. ويمكن أن نجادل فى أن هذه "الأنواع من التكثيف" تنتج نوع الملاحظات التى أبداه جيمسون وبودريار فيما يتعلق بكثافة المظهر الخارجى لفيلم ما بعد الحداثة، كما تثمر التأكيد النقدي على الطابع الانعكاسى لنص ما بعد الحداثة. ويمكن القول إن الفيلم وجمهوره "يعرفان حكايتهما الخاصة" وتتحول متعة النصوص عن وعى وإدراك إلى معرفة الجمهور بالأفلام الأخرى والأداءات الأخرى والموسيقىات الأخرى وعلى المرء أن يفكر فقط فى نجاح Pulo Fiction و Reservoir Dogo لى يلمس قوة هذه السلع فى الرجوع لى فقط إلى الحياة الاجتماعية، بل إلى ما هو أكثر أهمية: الأشكال الأخرى للثقافة الشعبية ويغدو المشار إليه جزءاً من مستودع نفائس الدول التى تشكل الثقافة الشعبية ويوسع بعض المنظرين، مثل بودريار، من نطاق هذه الحجة لى يخلص إلى أن العالم الاجتماعى "خارج" حدود الثقافة الشعبية قد "ابتعد"، وأن السينما يمكنها الآن فقط أن تشير إلى دوال الثقافة الشعبية الأخرى.

وتتحدث نظرية ما بعد الحداثة عن نهاية التاريخ، وضياح المشار إليه، واستحالة البعد النقدي، والاحتفاء بالاختلاف المكتشف حديثاً. بيد أنه إذا صنفنا العوامل الثلاثة الأولى إلى العامل الأخير فعندئذ نضطر إلى التساؤل "ما بعد الاختلاف؟". وبدون التاريخ وبدون المرجع الاجتماعى وبدون بعض الإحساس بالبعد (وهو ما يمكن أن نطلق عليه اسم علم الأخلاق أو السياسة) فإن فكرة الاختلاف ذاتها تغدو موضع مسالة. وهذا التوتر بين الرغبة فى الاحتفاء بالاختلاف فى نطاق الشكل السلى والحاجة، فى الوقت نفسه، إلى تشييد عالمى سلى دون تاريخ أو مرجع اجتماعى هو الذى يطلق سراح أنواع الاختلاف التى تبرز فى سينما ما بعد الحداثة.

تكثيف الاختلاف

إن إضعاف الروايات الكبرى (ليوتار) يحرر الاختلاف من الأصفاد المنظمة للحدث، بيد أن هذا لا يعنى فقط أن الآخرين الخاضعين من قبل ينطلقون إلى رؤية مختلفة أكثر كثافة (ويفكر المرء هنا فى التهميش المستمر للسينما "الثالثة" من أمريكا اللاتينية) بل إن الثنائيات "القيمة" نفسها تتحول أيضاً صوب وجود أكثر مبالغة، يكاد يكون متسماً بكابع المحاكاة الساخرة (Parody) أو تزاح من مكانها من خلال إنتاج أشكال جديدة من الغيرية^(*)، وخواص النوع تنوّه عبر التقسيم الثنائى القديم، ويمكن أن يكون عند ليندا هاملتون عضلات فى Terminator 2 ونستطيع أن نستمد متعة التلصص على الجماع من عجيذة Brad Pott فى Thelma & Louise ويصبح الاختلاف نفسه منظماً حاسماً ودالاً فى نطاق نصوص سينما ما بعد الحدث، ومن ناحية ما فإن التحول والتاكل العادى للاختلاف "الحديث" يتيحان أن يبرز كامل الاختلاف، على نحو غريب غامض، فى الفجوة- وهى فجوة يمكن لنا فى نطاقها أن نبدأ أيضاً فى الشعور بالتكلفة الضخمة لهذا الدوال.

وتجسد النسخة القوية للذكورة، كما يضطلع بها شوارزينجر وستالونى سينما الحركة والحدث، رغبة فى علاقة ثابتة مع ما هو رمزى، العالم الذى ما زال يعمل فيه القانون، الذى أصبح ممكناً بدرجة أقل عن طريق إضعاف الروايات (السرديات) الكبرى التى أبطت أيضاً على الاختلاف فى الموضوع المناسب. والحق أن فيلم First Blood (١٩٨٢) يمكن اعتباره فيلاً ولدت فيه الصدمة التاريخية عن طريق جسد ستالونى، جسد ذكر جديد على نحو مريع سرعان ما تحول إلى سلعة وتضاعف فى صور أخرى مثل شوارزينجر وغان دام وغيرهما. والرغبة فى كسب حرب غدت خاسرة بالفعل وجرى التعبير عنها فى العديد من أفلام فيتنام يمكن اعتبارها أيضاً شكلاً من أشكال النوستالجيا إلى حاضر غير قائم على الإطلاق. وما هو مهم هنا هو ملاحظة أنه

(*) يعنى مصطلح الغيرية Otherness عند فوكو وغيره، المستبعدين من مركز السلطة، وغالباً ما يقعون ضحايا فى نطاق نظرة الذات تتسم بطابع إنسانى ليبرالى مهين، والآخرين هم النساء وغير البيض والمسجونين والمجانين والشواذ جنسياً وكل أولئك الذى يعيشون على هامش المجتمع. (المترجم)

على الرغم من أن هذه الأجسام على مستوى ما تتجاوز طاقة البشر وذات طابع هستيرى للغاية، فإنها أيضاً أجسام تعاني، مضى بها إلى درجة تكاد تصل إلى حد الموت. وقد تعودنا مشاهدة أجسام الذكور التي تعاني في أنواع الأفلام المعتمدة على العلاقة بين الذكور، ولكن في سينما الحدث فيما بعد رامبو فإن "الزميل أو الصديق" غائب وليست الجنسية المثلية هي التي تتم مقاومتها بل الاضطراب العقلي (الذهان).

ويرجعنا ذلك إلى فردريك جيمسون في "ما بعد الحداثة أو المنطق الثقافي للرأسمالية في مرحلتها الأخيرة" حيث يستخدم تعريف لكان (١٩٠١ - ١٩٨١) للشيزوفرينيا - شكل من الذهان - كاستعارة تحمل وصفه لتعنت الحالة الذاتية Subjectivity^(*) وبروز "حاضر أبدي" حتى "نهاية التاريخ" التي يراها عاملة في أحوال ما بعد الحداثة. ومن المهم في هذه المقالة أن جيمسون يعمل شيئين آخرين: فهو يطرح جانباً الدال الأبوي (ضمانة القانون) من استخدامه لاستعارة الشيزوفرينيا، كما تفعل ما بعد الحداثة عندما تكف عن مشروع التنوير. كما أنه يتعرض، في مكانين من محاولته، لصورة مارلين مونرو، مرة بوصفها "مارلين نفسها" كشيء أو كشخص يكاد يوجد في الموضع المناسب في حين أن جميع الآخرين تفتتوا وضاعوا. ويرى جيمسون أن انهيار الدال أوقفته صورة امرأة والاختلاف الذي تمثله. ومن ناحية ما فإن جيمسون يقوم بنفس خفة اليد (الشعوذة) تماماً مثل سينما ما بعد الحداثة، نافية أنه لا ينبغي أو توجد لقطة ثابتة ولو أنها موجودة.

(*) أو كونه الشيء، مدركاً ذاته. ويرى مفكرو ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة أن الذات (الشخص) Subject كائن مفتت مجزأ ويجب اعتباره بمثابة عملية في حالة مستمرة من الانحلال، بدلاً من كونه هوية ثابتة أو ذاتاً مستمرة بلا تغيير مع مرور الزمن والنموذج القديم للذات Subject عند هؤلاء المفكرين يكبح الإبداع والتغير الثقافي، ويرى ديلوز وجاتاري أنه لا توجد ذات ثابتة ما لم يوجد قمع. (المترجم)

إنتاج الآخرين علي نحو مغاير

يمكن رؤية التناقضات في نطاق احتفاء سينما ما بعد الحداثة بالاختلاف في الطريقة التي تبرز بها الغيرية المعقولة ضمن سرديات معينة. وفي Predator2 (١٩٩٠) فإن Danny Glover يتحرك من موقع "الصديق الأسود الذي يموت في العادة أولاً" إلى ذلك البطل الأسود الذي يبقى حياً. وفي الوقت نفسه ويسبب التحرر النصي الذي قدمه Glover من القالب النمطي فإن المفترس الضاري (Predator) على أية حال جرى تركيبه باعتباره "آخر" يحمل دوال السواد: الشعر الشبيه بالشعر المتجدد المجدول على غرار سكان جزر الهند الغربية، واتخاذ هيئة الصياد أو المقاتل. وبالمثل فإن Sigourne Weaver في Aliens (١٩٨٦) تلعب دور الأم لأم السيئة الغريبة - وكلتاها تحمي أولادها - بيد أن الأخيرة ذات الطابع الأنثوي المغالي فيه، عرضت بوصفها من الدوال الناقدة المتقطرة والراشحة التي تمثل Vagina indentata (*). ويكشف الفيلم عن سره عندما يطلق على الطفل الذي "تبنته" Ripley اسم Newt (حيوان برمائي) - لمسة من الغريب.

ويمثل Blade Runner (١٩٨٢) تحويل الاختلاف والغيرية بطريقة أكثر تعقيداً، إذ يضع الكائنات الإنسانية مقابل الكائنات السيبرنيطيقية (Cyborg). ويمكن قراءة الفيلم بوصفه فيلماً يستنسخ فيه الآخر السيبرنيطيقية إنسانية إلى الوضع الذي "فقدنا فيه" الجنس البشري. بيد أن ظهور الكائن السيبرنيطيقي (Cyborg) يمكن قراءته على نحو مختلف. فالسينما وأشكال الثقافة الشعبية الأخرى في الثمانينيات والتسعينيات تحتوي إما على فانتازيا "التخلي عن الجسد" أو على إمكانية تحويل الجسد إلى شيء أكبر، إلى شيء مختلف (Cocoon، Nighbreed، Lawnmower Man) وطرح اختفاء الجنس

(هـ) رسم أو صورة زخرفية تمثل المهبل له أسنان وتتكرر في الفولكلور والفانتازيا، مقابل أنها ترمز إلى مخاوف الذكر من أخطار الممارسة الجنسية. (المترجم)

البشرى على الأجندة فى التسعينيات، وربما أمكن القول إن هذا ليس أكثر من تشفير الاختفاء المتخيل للسيطرة على البيضاء. واتحاد Reche و Deckard فى نهاية Blade Runner يعبر على أية حال، عن الهرب من بؤس الوضع الإنسانى إلى أنشودة رعية خيالية. وربما يكشف المنعطف الحاد فى القصة - إمكانية أن يكون آدم وحواء الجديان من الكائنات السيبرنيطيقية وتأكيد أن أحدهما على الأقل لابد أن يكون لذلك (وهو شىء لم ير من قبل سوى كونه مجرد تهديد) - عن عمق القلق المعاصر تجاه المستقبل.

الموت والعذراء: الجسد فى النص

إن الجثمان النسائى دال شديد الإلحاح فى سينما ما بعد الحداثة. وإن إخفاق النص على نحو مرض لكى "يعيد الأشياء معا" فى مواجهة تحويل الاختلاف إلى سلعة فإنها / أو الجثمان النسائى يصبح العملة، التى يتم من خلالها الوفاء بدين مستحيل. وعلى سبيل المثال فإنه يتاح لما فى "Basic Instinct" (١٩٩٢) مشاهدة امرأة جميلة قوية، شارون ستون، ربما تكون قد ارتكبت جريمة قتل - وهى ثنائية الجنس - تتال الرجال والنساء الذين تريداهم. بيد أنه لكى تتمكن من تحقيق غايتها، مايكل دوجلاس ومعمل الثلج تحت السرير، فإن النص ينتج أجسادا، ولا سيما عشيقها Roxy وهى سحاقية بشدة، وإن قدمت على نحو تقليدى، مع شغف باختلاس رؤية الجماع، وطبيعة الأمراض النفسية التى سبق أن "أفسدها" إغواء شارون ستون (ويبين هذا أيضا أن "إطلاق العنان" للاختلاف ليس مطلق السراح).

ويعيد فيلم Silence of the Lambs (١٩٩١) إنتاج النمط نفسه. فالمثلة الرائعة جودى فوستر، الأيقونة السحاقية، تفوز وتنجح ولكن النص ينتج فى الوقت نفسه قافلة من الأجساد النسائية المسلوخة. ويمكن الاستشهاد هنا بأفلام ونصوص ثقافية أخرى مثل River's Wdge (١٩٨٧) الجثمان النسائى يعتبر شيئا يتعين نخسه بالعصا؛ Man hunter (١٩٨٦) وشىء ما عن امرأة؛ Blue Velvet (١٩٨٦) - جسد إيزابيلا روسيليني المبتذل الذى يعوزه الكمال؛ Rising Sun (1993) القتل الجنسى المعاد والمشفّر ربما لامرأة بون اسم؛ - Twin Peaks and Murder one جسدان نسائيان توأمان مغلفان بالبلاستيك.

ويمكن اعتبار كثافة الحلقة في الجثمان الأنثوي بمثابة جانب آخر من التكثيف وفقدان البعد في نص ما بعد الحداثة. ويكاد يشبه النص الإباحي الماجن (Pornography) ما الذي نتطلع إليه لماذا؟ وفي الأفلام المذكورة أعلاه فإن جثمان المرأة يلم الأطراف أو يرأب الصدع^(*) في القصة السردية محدثاً تفريفاً مزدوجاً للجسد الأنثوي، موتاً مزدوجاً؛ واستبعدت أهمية الاختلاف الجنسي من الجسد الذي يغدو مجرد شيء ما، انسداد أو رأب الصدع ويضفي معنى له في حد ذاته. ويبرز في الواقع خارج نطاق المعنى.

والموت لن تكون له السيادة

قد يكون المفيد أيضا، عند هذا الموضوع، إعادة سماع ما بعد الحادثة أخرى على نحو مغاير، فقد اعتبرت فكرة "الحاضر الأبدى" ملازمة لنهاية التاريخ. بيد أن ما يلاحظه المرء عندما يتصدى، على نحو خاص، لأوائل أفلام ما بعد الحادثة هو أن الحاضر المعاصر، قد أصبح مقولة صعبة، مقولة في أزمة، وتتطوى بعض أكثر الأفلام شعبية في أوائل الثمانينات - Terminator ، Blade Runner ، Alien - على تمثيل خيالي رهيب للمستقبل القريب، بينما يحاول بعضها الهرب إلى ماضى السينما نفسها (Barton Fink, Purple Rose of Cairo) وأمكن، مع حلول منتصف العقد الثامن حتى أواخره في القرن الماضي، ملاحظة اتجاه آخر أكثر يوتوبية في نطاق سينما التيار الرئيسى جرى تمثيله من البداية عبر مراجعة عقدة أوديب Back to the Future (١٩٨٥) و Peggy sne got Married (١٩٨٦) حيث عاد العالم والطم الأمريكى إلى مكانهما بشكل حازم. وحل محل رقة "المفارقة المتكررة الحلقات" لفشيان المحارم فى مشهد الحب فى Terminator (١٩٨٤) الرعب الذى تبدى على وجه Michael J. Fox عندما تغازله أمه. كما لو أن انحلال العقدة الروائية يصبح متوقفا على إلغاء حدود الزمن، وهذا الإلغاء ينطوى على التفاوض مع الموت.

(*) Suture - المعنى الأصلي هو خياطة الجرح أو لم الأطراف، وقد استخدم هنا مجازياً - راجع في ذلك شرح د. محمد عناني في مصطلحاته - مرجع سابق . (المترجم)

ويمثل فيلما من أكثر الأفلام شعبية في أوائل التسعينيات وهما Field of Dreams Ghost (١٩٨٩) (١٩٩٠) مجموعة كاملة من الأفلام يتم فيها قهر الموت نفسه. والفيلم الأخير الذى يدور حول رجل ميت مهم لأنه يجمع بين اهتمام آخر مفضل فى الثمانينيات - Wall Street [موقع بورصة نيويورك والمؤسسات المالية الأمريكية المهمة. المترجم] وفكرة الحياة بعد الموت، وإن تتحقق العدالة إلا عبر تدخل إلهي والاستيطان الشبحي لجسم امرأة سوداء من قبل رجل أبيض ميت.

وفيلم Field Dreams فانتازيا ريجانية حيث يصبح غير المألوف مألوا (كلمتان استخدمهما فرويد فى مقالته - The Uncanny الغريب المروع - لكى يعطى معنى لما نعتقد أن ما كان مأمونا وعاديا يتحول إلى ما هو مخيف ومروع بحيث لا نتعرف عليه فيغزو غريبا موحشا). وفى سلسلة مدمرة من الحلقات تعلن الموت الوشيك لفتاة صغيرة فإن الفيلم يجيز لرجل أن ينال كل شيء: المنزل والزوجة والطفل والأب الميت ورسم الدخول بعشرين دولارا. وحلم كوستنر يعاد تأمينه فى الحاضر ولكن فقط عن طريق تجنب الأجل المحدد للموت. كما أنه من المهم ملاحظة أن الشخصية الرئيسية رجل وأب وابن وزوج، مما يكفل سيادة الرجل ويسترضى الأب الميت.

بيد أن الموت فى سينما ما بعد الحداثة ليس عامل تعادل وتوازن، وتصبح حدوده منظملة للنوع و Thelma and Louise (١٩٩١) تعانيان مصيرا مختلفا تماما لمصير شخصية كيفين كوستنر فى Field Dreams وما تحاول Thelma and Louise تفادية هو "تكساس" مكان فى الفيلم جرى فيه اغتصاب امرأة، والاغتصاب هنا أعد بوصفه أعلى نقطة للاختلاف المشتبه الجنس الآخر. وفى محاولة "زيارة" تكساس تم القبض عليهما بحكم القانون. وفى الختام ولكى نقتبس عبارة من المسلسل الأول من Stertek، فإنهما حاولتا الذهاب بجراة إلى المكان الذى لم يذهب إليه رجل من قبل، فيما يتعدى سيادة الرجل والمغزى والاختلاف لكنهما لا يستطيعان. وتتجمد الصور ويذهب الوقت فى اتجاه عكسى. ونحتفى بماضيتهما وليس بأجسادهما المحطمة فى لحظة مجمدة تكاد تكون متسامية(*) على حافة انهيار الاختلاف.

(*) Sublime يعنى هذا المصطلح فى فكر ما بعد الحداثة "عدم إمكانية التمثيل"، وهو العنصر الذى يقارم إمكانية التوصل إلى أى فهم للعالم. (المترجم)

خاتمة

نود أن نشير إلى أنه قد حدث تحول فى البناء الشكلى والجمالى ضمن الأفلام التى قد يطلق عليها اسم ما بعد الحداثة. ويمكن ملاحظة هذا التحول تاريخيا، لكن كما هو الشأن مع الحداثة وما بعد الحداثة لا توجد قطعة تامة، وأفلام مثل Blade Runner و Terminator و Alien و Brazil تبدى قلقا إزاء الحاضر والمستقبل المكونين من الحطام البصرى من الماضى وبوال الصدمات التاريخية. وعلى سبيل المثال فإن مشاهد كارثة المستقبل فى Terminator يمكن الزعم بأنها استمدت مغزاها من الهولوكست وهيروشيما وكمبوديا بعد بول بوت.

بيد أنه فى الأفلام الأحدث فإن العلاقات الحقيقية مع رأس المال تصبح معاقة، وذات طابع فيتشى Fetishized بعيدة عن المجال الكلى للفيلم، لكى تعود فقط إلى / على جسد آخر ملائم، لكن امرأة أو غريبا أو أسود. ويمثل فيلما Reservoir Dogs (١٩٩٢) و Forrest Gump (١٩٩٤) الأفلام التى تُعبر بقوة عن هذا الاتجاه. والفيلم الأول يلتزم فيه جميع الآخرين تقريبا بمستوى الحديث، وينشغل "الأوغاد" بدوال المرأة والسود واليهود والشواذ جنسيا. بيد أننا نود أن نشير إلى أنه يوجد صدئ رنين بين أجساد الرجال التى أصابتها الهستيريا وجرى التعليق عليها بالفعل وبين الحديث ذى الطابع الهستيرى للرجال فى هذا الفيلم. ويشير هذا الحديث إلى القلق. ولذلك ورغم أنه يعرض علينا ما قد يكاد يكون استنساخا لنوع معين من الذكورية البيضاء التى تشتهى الجنس الآخر كدفاع فى مواجهة أحوال ما بعد الحداثة والمتع الفيتشية للمظاهر الخارجية البصرية والسمعية للفيلم حيث يحاول أن يقاوم أى اقتراح بالأزمة فإن خصوصيات حديث "الأوغاد" يقول شيئا آخر: "ماذا تريد المرأة فهل هى عذراء أم بغى؟"، وهل تكسب الكثير من القليل للغاية؟ وفى حالة السوداء فهى قوية أو خاضعة لرجلها؟ ومظاهر الجنس عند النساء والرجال السود تحمل معها الكثافة التى تحدثنا عنها فى البداية؛ لكن مظاهر الجنس عند الرجال السود هى التى تمثل المشكلة الحقيقية عند "الأوغاد"، ولا سيما عندما تمتزج بتهديد "الجنسية المثلية" ومشكلة الفيلم المحتشد

بالرجال - وهو موضوع موثق جيدا بالفعل فى نظرية الفيلم الحداثى - حلت محلها، وفرضت على خطابات الكراهية البالغة للجنسية المثلية والعنصرية وما ينتج فى النهاية هو موتهم، وتعود الأوضاع الحقيقة للوجود إلى كشف ذكورية بيضاء تشتهى الجنس الآخر تعيش فى أزمة.

ومن الناحية الأخرى فإن فيلم Forrest Gump بدلا من أن يوقف القلق على مستوى الحديث فإنه يقدم روايتين لتاريخ الولايات المتحدة من فيتنام حتى الوقت الراهن اتسمتا بالتحيز الجنسي، حيث وصفت المزايا والتكاليف على الجوانب النقيضة لانقسام النوع.

ومرة أخرى، فإن الصدفة يستوعبها جسد المرأة منذ طفولتها التى يساء استعمالها حتى موتها بمرض الإيدز، ويحرز Gump نجاحا تلو النجاح ولن يتوقف ولن يفهم شيئا. وفى الفيلم وكما قال Slavoj Zizek فإن الأيديولوجيا "تكشف أوراقها، وتظهر أسرار كيفية أداء وظيفتها ولا تزال تواصل القيام بوظيفتها" ويعد Gump، تماما مثل "الأوغاد" تمثيلا تاما "للذاتية دون ذات، البروليتاريا المطلقة" (Zizek بعد ماركس)، فهو لا يفهم شيئا ويفعل ما يطلب منه ويغدو بطلا ويليونيرا (والحق أن "الغبى" كبطل أصبح نوعاً فرعياً جديداً فى هوليوود كما ظهر فى عدد من الأفلام).

ويختلف هذا كثيرا عن عمل الاختلاف الجنسي فى فيلم Alien لمخرجه Ridley Scott فى ١٩٧٩ وهو فيلم يمكن اعتباره ممثلا لسينما ما بعد الحداثة المبكرة. ونستطيع أن نشهد فى هذا الفيلم بداية الصدمة المتعلقة بظهور المرأة بصورة سلبية، ويمكن اعتبار الغريب نفسه تجسيدا لرغبة الشركة وليس "تمثيل البروليتاريا المطلقة" بل بالأحرى كامل رأس المال نفسه. وعلى العكس، هناك محاولة فى Reservoir Dogs و Forrest Gump لحماية الذكورة من مطالب ساحة سوق ما بعد الحداثة الجديدة حيث يسمح بحرية الاختلاف ما دام من الممكن أن تغدو سلعة.

وهكذا فإننا نشير إلى أن سينما ما بعد الحداثة المتأخرة تحال أن تتعامل مع أوضاع الرأسمالية فى مرحلتها الأخيرة ولكنها تقع فى شرك منطق الاختلاف. وقد

يكون من المفيد هنا اعتبار أن Barton Fink (١٩٩١) من إخراج الأخوين Coen، يوضح مثل "Gump" و "Dogs" النوال الشكلية والجمالية لنص ما بعد الحداثي على نحو تام (وهو أحد أفلام النوستالجيا عند جيمسون). بيد أنه على خلاف الأفلام السابقة فإنه يمكن قراءته من ناحية الموضوع والسياسة بوصفه رمزا لوضع ما بعد الحداثة. ويبين الفيلم الذي يبدأ في العصر الذهبي لهوليوود (والولايات المتحدة على وشك دخول في الحرب العالمية الثانية) الاستحالة المحزنة التي يجد فيها نفسه Barton Fink ككاتب يساري يهودي "اشترته" بشكل مناسب Capital Pictures وانكب على العمل لكي ينتج نصوصا سردية مبتذلة للأفلام ويكشف أنه لم يعد في وسعه الكتابة. وكل ما يستطيع أن يفعله هو التطلع إلى صورة فتاة غلاف تركها أحدهما معلقة على الحائط الساخن لغرفة النوم في الفندق. وجاره Charle Meadows الذي يعرق بقدر ما تعرق الحائط، يعمل بائعا في شركة تأمين حيث "يخفف ألام" عملائه / ضحاياه بإطلاق النار عليهم وفصل رءوسهم. وينام Fink مع شريكة تسيء استعمال محبوبته السابقة، كتابه سكيرة تذكرنا بوليام فولكنر، ولا تعد المرأة مجرد مخلوق حقيقي لنصوص أفلامه السردية (ومرة أخرى نجد امرأة تعمل على بناء القصة السردية) بل هي أيضا الضحية المقبلة للقاتل في إحدى حلقاته المسلسلة، بينما كانت نائمة بعد عملية الجماع مع Fink (جثمان امرأة يرأب صدع القصة)، ويغدو Fink بعد موتها قادرا على إعادة إنتاج قصصه عن سماكي الطبقة العاملة. ويعمله هذا لا يرضى مطالب هوليوود ولا يسمع القصص الأخرى عن الأوضاع الإنسانية التي تقدم إليه باستمرار من أحد ممثلي الطبقة العاملة في الفيلم - القاتل. ويرى الفصل السينمائي الأخير القصة على أساس الذكورية المدمرة وسياسة يسارية مدمرة وأنوثة انشطرت إلى مكوناتها الجسدية القصوى. ويجلس Fink على الشاطئ وتظهر أمامه امرأته المثالية، فتاة الغلاف المعلقة على حائط غرفة النوم في الفندق "شخصيا بدمها ولحمها" (والواقع أن الإخراج كله هو لصورة فتاة الغلاف). ونجد إلى جانبه صندوقا نعلم جميعا أنه يحتوى على رأس المرأة التي قتلت في سريره. ويثمر تدميره صنما Fetish خياليا تماما، قدرا قليلا من الواقع، عشية أعظم صراع عسكري شهده العالم على الإطلاق. ويحضر الحلم والرعب معا إلى هذا الشاطئ ولا يستطيع Fink أن يستوعب أي منهما كلية.

ويمكن اتهام خطاب التنوير بإخفاء تاريخه فى العبودية والقهر، وذلك جزء من الأوضاع نفسها التى جعلته ممكنا. وترفع ما بعد الحادثة هذه الأوضاع إلى مستوى الدال، وتجعلها جزءا من متعة النص سواء تحدثنا عند مجال المخدرات والجريمة، والحرمان وهو ما تعيشهن على مستوى المعنى، أغلبية هوليوود السوداء فى تلك اللحظة أو الجثمان النسائية المتناثرة فى مشاهد سينما ما بعد الحادثة. ونحن كجمهور ننظر إلى، ومع ذلك لا نرى، تلك الدماء والتعذيب والأهوال التى تتخلل بصريا وتحيط بقصة ما بعد الحادثة، والتى تقدم مغزى الدراما وتقدم تعويضات نفسية عن الاكتمال الحيوى وإن كان أجوف لشكلها السلعى.

الفصل العاشر

ما بعد الحداثة والتلفزيون

مارك أوداي Marc O'day

يعد التلفزيون بلا جدال وسيلة ما بعد الحداثة الجيدة، وإذا ما كنا نناقش مختلف مصطلحات ما بعد الحداثة سواء أكانت Postmodernism أم Postmodernization أو Postmodernity أو مجرد Postmodern بوجه عام فإن التلفزيون يقدم أمثلة مقنعة للأفكار والاتجاهات التي تشير إليها هذه المصطلحات. والكلمة ذات الطنين المستخدمة في مناقشة ما بعد الحداثة مثل: المحاكاة Simulation وضياغ الواقع Hyperreality والتفتت Fragmentation والتغاير Heterogeneity واللا تركز Decentring والتناقص Intertextuality والمحاكاة الأدبية Pastiche وما إلى ذلك، جاهزة للاستخدام في التلفزيون، والحق أن العديد منها حفزته خصائص التلفزيون في المقام الأول. ويقدم التطور السريع للتلفزيون إلى صناعة متنوعة، متعددة الحدود القومية، بل عالمية تقريبا أمثلة للعمليات الاجتماعية الاقتصادية لعملية ما بعد الحداثة، بينما تجسد الأيديولوجيات المفتتة والمتصارعة للبرامج في عدد مزدهر من قنوات التلفزيون وعلى نحو مرئي تجربة ما بعد الحداثة، وتزودنا برامج أو قنوات معينة ابتداء من MTV و Miami Vice و Moon Lighting إلى Twin Peaks و Ren and Stimpy و Fantasy و Football League ببعض أفضل الأمثلة الشكلية على ما بعد الحداثة في أي وسيلة. وفي الوقت نفسه لا يعد التلفزيون بكامله منظويا فيما بعد الحداثة. وإن أفاق ما بعد

الحدثا واحتمالاتها تقدم فقط مجموعة واحدة من النهوج، ولو أنها لا تقاوم، فى التعامل مع التلفيزيون.

وتستهدف الأقسام التالية إبراز بعض القسما الرئيسية للتلفيزيون بوصفه ظاهرة ما بعد الحدثا.

ضياع الواقع والنزعة الاستهلاكية

يستخدم جان بودريارد منظر ما بعد الحدثا فى كتابه Simulations مصطلحى "المحاكاة" و"ضياع الواقع" لكى يصف تحول الواقع إلى وسيط Mediatization فى المجتمع المعاصر. وبالنظر إلى موقفه من النظرية المجردة والشمولية فإنه نادرا ما يشير إلى التلفيزيون بالاسم، لكن تأملاته تكتسب معظم معناها فى سياق مشاهدة التلفيزيون، ويرى أنه مع الازدياد الضخم فى العلامات والصور المنتشرة فى مجتمع الميديا (Media) بعد الحرب فإن التمييز بين الموضوعات أو الأشياء وتمثيلاتا قد اختفى وزال، ويزعم أننا نعيش فى عالم من "المحاكاة" حيث تعمل الصور التى تولدها الميديا بشكل مستقل عن أى واقع مفرط وهو أيضا واقع "يغالى فيه" حرقيا المعلنون وغيرهم.

ويبالغ بودريارد فى دعواه، ومع ذلك فثمة أمثلة عديدة بالفعل حيث يجعل واقع التلفيزيون الواقع اليومى إشكاليا أو حتى يحل محله. وعلى سبيل المثال وبينما أوضحت دراسا عديدة أن الناس قادرون تماما على التمييز بين واقع المسلسلة التلفيزيون المسماة Soap - opera والحياة الواقعية، فإن ذلك لم يمنع قلة من البشر من الإساءة إلى المثل الحقيقى الذى يؤدى دور شخصية غير محبوبة على نحو عام أو المثلة التى تؤدى الدور نفسه. وبطبيعة الحال، فإن الترويج المتزايد لهذه المسلسلات يشجع كثيرا على مثل هذا الالتباس. ومثال آخر: كيف نعرف أن الأحداث التى تروى على نحو شعائرى وقعت بالفعل؟ وقال بودريارد ذات مرة على نحو استفزازى: إن حرب الخليج لم تحدث إلا كمحاكاة. إن التلفيزيون، وبوجه أعم، يمكنه أن يكون قد أسهم فى إحداث تحول فى الإدراك اليومى، حيث إن رؤيتنا للعالم يتوسطها إلى حد كبير رصيد الصور العقلية

التي نخترنها في عقولنا. وهكذا عندما أذهب إلى باريس أو نيويورك - وقد أكون زرتها بالفعل عن طريق التمثيل في برامج مثل Holiday أو - Wish you Were here فقد أصاب بخيبة أمل إذا لم ترتقيا إلى مستوى الصور التلفزيونية المكونة على نحو مثالي (لأنني قد خدعت، وأنا أعرف الفرق بطبيعة الحال...) وكما يرى John Fiske في مقاله عن Postmodernism and Television (١٩٩١) :

"على مدى ساعة من مشاهدة التلفزيون من المحتمل أن تتعرض لصور أكثر مما يتعرض له أو يمر به أحد أفراد مجتمع غير صناعي في حياته كلها. والاختلاف الكمي كبير للغاية لدرجة أنه يصبح حاسما [...] ونحن نعيش في فترة ما بعد الحداثة حيث لا يوجد اختلاف بين الصورة وأشكال الخبرة الأخرى."

وهناك زعم آخر وثيق الارتباط بزعم ما بعد الحداثة بأن "التلفزيون هو العالم" قدمته فردريك جيمسون، فعنده أن ما بعد الحداثة ليس أكثر من "المنطق الثقافي للرأسمالية في مرحلتها الأخيرة" ويرى أن التلفزيون يعمل بوصفه مغرباً اجتماعياً في نطاق مجموعة ثقافية فرعية ومخصصه واستهلاكية وما بعد حداثة. وقد تدع نمو المجتمع الاستهلاكي فيما بعد الحرب، أولاً في الولايات المتحدة ثم في أوروبا وغيرها، بالتوسع المتزامن لوسائل الإعلام (الميديا)، ولا سيما التلفزيون، الذي روج المرغوبة في السلع وأعاد إنتاج أيديولوجية استهلاكية. ويرى جيمسون من موقف ماركسي جديد في كتابه "ما بعد الحداثة" أن التقنيات والأشكال الجمالية للطبيعة والحداثة وضعت في خدمة النزعة الاستهلاكية في جماليات ما بعد الحداثة، وهكذا فإن التشديد على الأسلوب والجدة والتجديد وهو ما حفز الطليعة استخدم وجرى تبنيه في تغليف وتسويق السلع اليومية، بينما أصبح تاريخ الفن ذخيرة ثقافية شاسعة ويغير عليها المعلنون المتطلعون إلى انطلاقة جديدة لمنتج ما. إن ترويج خيارات "أسلوب الحياة" في الإعلانات حيث يعد ما هو خيالي ورمزي والخواص المرتبطة بالمنزل أو الاثاث أو المظاهر الثابتة في المنزل أو التجهيزات أو السيارات أو الملابس أو أدوات التجميل أو الطعام والشراب أكثر أهمية من الاستخدامات المادية، وقد أصبح كل ذلك، بالنسبة إلى جيمسون، النشاط الحقيقي للتلفزيون ووسائل الإعلام الأخرى.

ومرة أخرى فإن هذا الوضع جرى تعميمه على نحو مغالى فيه - ومرة أخرى هناك إحجام عن مناقشة التلفزيون علنا بشكل تفصيلي - لكن مما لا ريب فيه أنه من هذا المنظور التبسيطي فإن التلفزيون التجاري تحكمه، وحكمته دائما الضرورة الاقتصادية في بيع الجمهور للمعلنين. ونحن نعمل جميعا، إلى حد ما، لصالح رأس المال عندما نشاهد التلفزيون. ويمزح بعض الناس قائلين إن الإعلانات هي البرامج "الحقيقية" وهي الأفضل في معظم الأحيان. وبالنسبة إلى هذا الاتجاه في التفكير فإن الإعلانات عن 501 Levis هي الأكثر إثارة للغيرة الجنسية وأكثر برامج التلفزيون تسلية وربما كانت كذلك، ما دام يتفق على إعلاناتها أموال أكثر من أى نوع آخر من حجمها (إلى حد معين) والجدول الزمني العام، تحددها بقدر كبير - وفي نطاق الحدود التنظيمية - احتياجات المعلنين. ولنتذكر تلك الخطط التي استهدفت تقسيم مسابقات كرة القدم إلى أربعة أجزاء في نهائيات الكأس العالمي لعام ١٩٩٤ التي جرت في الولاية المتحدة، ولحسن الحظ فقد رفض ذلك. ويتزايد وضع اسم العلامة التجارية للممول على البرامج. وتشمل الأمثلة البريطانية Beamish على inspector Morse و Cadbury على Coronation Street ويوضح توظيف المنتجات وطمس التمييز بين الإعلانات وأشكال البرمجة الأخرى الضرورية التجارية التي تدعم أساس التلفزيون في ثقافة ما بعد الحداثة الاستهلاكية. وحالما تغدو المنافسة أكثر صعوبة فإن قنوات التلفزيون تتفق المزيد من الوقت في الترويج لأنفسها في فترات الربط بين البرامج لا جديد على الإطلاق في هذه الاتجاهات وغن كانت تستمر في التكثيف. بيد أن الجديد هو صناعة التلفزيون "الما بعد حداثة" الذي تفهم جماهيره، وتستمتع بالتناص والتدوير والتمثيل الواعي، وهو ما يتخلل تلفزيون ما بعد الحداثة.

ما بعد الحداثة والصناعة والجمهور

لقد رسم المارشال مك لوهان في الستينيات مجتمع وسائل الإعلام عقب الحرب بوصفه "قرية كونية إلكترونية". وقد أكدت التغيرات التي طرأت على صناعة التلفزيون

عبر السنوات العشرين الماضية أو نحو ذلك، بالإضافة إلى قدوم تكنولوجيا المعلومات، مدى ملائمة هذه التسمية التي تبدو مستخفة إلى جد بعيد (قرية؟). وتعلق Ang على مقدمة كتابها الصادر في ١٩٩٦: *Living Room Wars : Rethinking Media Audience* Audences for Postmodern World على هذه التغيرات قائلة: "إن التلفزيون نفسه قد مر بعملية تحول إلى ما بعد الحداثة على نطاق ضخم - وهو ما تجلى في نطاق معقد من التطورات مثل: خلق التعددية والتنوع والتسويق التجارى والترويج السلعي والتدويل واللامركزية - طارحا النماذج الإرشادية الراسخة عن كيفية عمله فى الثقافة والمجتمع فى فوضى". وقد لا يمكن بالضرورة وعلى وجه الدقة اعتبار هذه التغيرات بمثابة تحول ما بعد حداش، ومع ذلك فإنها تتجانس بلا جدال مع التغيرات الحادثة فى محاولات ما بعد الحداثة لأخرى.

ومنذ أوائل ثمانينيات القرن العشرين وجد تنوع وتجزئة فى التكنولوجيات التى ييئ التلفزيون من خلالها. وقد تدعم البث التلفزيونى وجرى تحديه مع مقدم القمر الصناعى والكابل وأخيرا التلفزيونى الرقمى والمتفاعل. وقد شجع على انتشار هذه التكنولوجيا "التحرر من القواعد والقيود" حيث أصبحت قوى السوق ذات غلبة متزايدة. وفى الولايات المتحدة مثلا، فإن شبكة التلفزيون التى تهيمن عليها الهيئات العملاقة ABC و CBS و NBC قد تحولت بأعداد كبيرة إلى قنوات أكثر تخصصا ومحلية. وفى أوروبا، فإن هيئات البث التقليدية الخاضعة للقطاع العام قد تفوض أساسها، إلى حد ما، بالمنافسة من قبل الأقمار الصناعية التجارية وقنوات الكابل، وفى الوقت نفسه فإن المدى المتسع الذى فى متناول هذه التكنولوجيا قد فتح مناطق شاسعة من العالم لكى تنفذ إليها تكتلات وسائل الإعلام الدولية والمتعددة القوميات. وتطمح عملية ما بعد الحداثة إلى أن تصل إلى نطاق كونى على نحو حقيقى (وإلى جانب هذا، وعلى نحو متناقض، تطمح فى الوصول إلى مدى محلى متزايد). وقد أفضت هذه التغيرات معا إلى سوق تنافسية سريعة التقلب تعد مثلا نمونجيا لعمليات ما بعد الحداثة المسماة "الرأسمالية اللا منظمة". وفى الواقع فإنها أى شئ سوى كونها مختلة التنظيم؛ بيد أنها تعد نسيبا غير محددة المعالم ومرنة وسريعة التغير.

وما أثار ذلك على جمهور التلفزيون؟ وفي حقبة ما بعد الحداثة فإن المنتجين يعترفون - وإن ظلت تستحوذ عليهم فكرة النجاح وتسليم الجمهور المنشود إلى الممولين والمعلنين - بضرورة تكوين " جماهير متألقة " من جماهير متنوعة يمكن أن تكون مختلفة من حيث النوع (الجنس) أو الطبقة أو العرق أو أسلوب الحياة، ويمكن حشدها لمشاهدة برنامج ما لأسباب متنوعة. ويعد التسويق المتخصص المناسب وبشكل متزايد هو اسم اللعبة حالما تغدو جماهير المشاهدين أكثر تفتتا وتنافرا. وفي حالة التلفزيون المدفوع الأجر، مثلا، الذي يستخدم بشكل خاص في مباريات الملاكمة وغيرها من المناسبات الرياضية فإن جمهور المشاهدين سيتكون على أساس مرة واحدة غير متكررة. واتجه الباحثون، من جانبهم، إلى الابتعاد عن نماذج المشاهدين التقليدية المستخدمة في نطاق سوسيولوجيا وسائل الاتصال الجماهيرية. إن نموذج الآثار قد صاغ مفهوم جمهور المشاهدين السلبي وقد اعتبر فرعاً من الطموحات الحداثيّة المبكرة في نشر التلفزيون بوصفه أداة للإدارة الاجتماعية. كما أن نموذج الاستخدامات والأشباعات، على الرغم من أنه افترض وجود مشاهد فردي نشط، كما أداة مفيدة في فهمه علاقة التلفزيون - المشاهد وأعوذه السياق الاجتماعي الحقيقي الذي يمكنه لأن يفسر الطرق التي يغدو بها التلفزيون جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية. وبدلاً من نماذج كهذه فقد ساد اتجاه منذ الأربعينيات صوب الدراسات الإنتوجرافية وغيرها من دراسات المشاهدين المتغيرين الذين ينخرطون في مشاهدة التلفزيون بشتى الطرق المتناقضة، وينشطون هنا على التنوع وتحديد موضع ممارسات المشاهدة وهو ما يساير إلى حد بعيد تحول ما بعد الحداثة نحو الاختلاف والميكرو سياسة بجميع أنواعها.

ويتمثل المصطلح المختزل لهذا الاتجاه في "المشاهد النشط" وإن كان يلوح أنه يخول المشاهد سلطة زائدة عن الحد. بيد أن أفضل البحوث في هذا المجال قدمها David Morley و Maria Gillespie و Henery Jenlins و Ien Ang من بين آخرين، وتذكر جيداً الأخطار الكامنة في تكوين مشاهد متجاوز الحدود ساعياً إلى المتعة، يتمتع بحرية كاملة في أن "يرتّع" في كوكبة الدوال التي هي تلفزيون ما بعد الحداثة. وقد تبدو الاختيارات، شريطة أن نستطيع الدفع، غير محدودة لكنها تظل هي الاختيارات

التي يوفرها نظام الزى السائد في ثقافة ما بعد الحداثة الاستهلاكية، وبهذا المعنى فقد يمكن القول إن عدم مشاهدة التلفزيون وعدم التعامل مع وسائل وبهذا المعنى فقد يمكن القول إن عدم مشاهدة التلفزيون وعدم التعامل مع وسائل الإعلام واستهلاكها يعتبران عملاً منتهكاً للحدود بشكل أصيل.

وما دام الأمر أنه لا يوجد أحد لا يشاهد على الأقل قدراً من التلفزيون، فنستطيع أن نتساءل عما يفعله اليوم مشاهد ما بعد الحداثة. ومن اليسير بطبيعة الحال إنتاج صورة تركيبية لشخص معتنق مذهب اللذة ما بعد حدائى: شخص مزاح عن المركز على نحو نموذجي، أقصى فترة زمنية لاهتمامه ثلاث دقائق. وأن تعيش في عالم يتسم بلحظات مجزأة على نحو شيزوفراني فانت تجوب تخمة من القنوات المتاحة وتنتقل بالريموت كونترول وتقفز بين القنوات والبرامج التي لا يربطها الزمن أو الفضاء أو النوع، ولا تهتم بالقصة أو التماسك أو الفهم الرشيد العقلاني، وبالأحرى فانت تشيد عملية ترقيع عرضية إلى حد كبير من شذرات وجزيئات التلفزيون تحقق الارتباط فيما بينها بطريقة مزجة ومربكة. وذلك هو المشاهد المتصور بطريقة غامضة مهمة حيث يتسم بطابع الرواية الخيالية تقريبا من قبل بورديار في مقالته Ecsatasy of Communication والتي تعد مجرد امتداد لتكنولوجيا الشاشة الصغيرة : "مع الصورة التلفزيونية - وبعد أن أصبح التلفزيون الموضوع النهائي والكامل لهذه الحقبة الجديدة - يغدو جسدنا والكون المحيط بنا بأسره شاشة مراقبة".

وفي مقابل هذا النموذج عديم المعنى من نواحي عديدة في وسعنا أن نحدد مشاهد ما بعد الحداثة البديل (مع أنه ليس أقل من صورة تركيبية لشخص ما، إذا قيلت الحقيقة فهو يدرك الخيارات التي توفرها تكنولوجيات التلفزيون الجديدة وكم تكلفتها، وهو يعرف نوع البرامج التي فضلها، ولماذا. وتسعده مشاهدة التلفزيون في بيئات مختلفة (المنزل، الحانة، مركز التسوق (مول) مع جماعات اجتماعية شتى (منفرا، مشتركا مع غيره، مع أطفال أو مع الأسرة بكاملها أو مع صديق مفضل أو جماعة أصدقاء أو غرباء) وبدرجات انتباه متفاوتة (بدءا من "نمط أدبي": جادا، مصغ، مثابرا، يشاهد منذ البداية حتى النهاية وفق الترتيب السليم - وصولا إلى "نمط الفيديو": مازحا أو لاهيا، منتقلا، متوقفا، مكررا اللعب، أخذا عينات، منهمكا،

متجاهلا). ودمج التلفزيون في حياته اليومية، مستفيدا من اختفاء ما بعد الحداثة على التلفزيون، بينما يكون قادرا على الانتقال بمهارة بين ما بعد الحداثة وأنماط المشاهدة الأخرى.

وثمة نقطة أخرى تتعلق بهذين النوعين من المشاهدين. وعلى الرغم من استمرارهم أمام الشاشات الصغيرة الشبيهة بالأيقونة فهم لا يشاهدون في كثير من الوقت البث التلفزيوني المباشر لجمهور واسع أو محدود. ويستمرون في استخدام جهاز التلفزيون، بالاشتراك مع جهاز تسجيل الفيديو، بحيث يمكنهم التناوب في مشاهدة مواد مسجلة من البرامج التلفزيون، أو في إمكانهم التسلية بألعاب الفيديو. كما أنه في وسعهم استخدام الكمبيوتر الشخصي للتجول في أرجاء الإنترنت ومخاطبة أصدقائهم (يمكن ألا يكونوا قد قابلوهم على الإطلاق).

برامج ما بعد الحداثة

قد يبدو أن هذه المقالة قد تمهلت في تقديم نظرة إلى البرامج الفعلية، ويلوح لي أن السبب في ذلك واضح: فنحن لا نستطيع التفكير في القسمات الشكلية لبرامج ما بعد الحداثة بمنأى عن السياقات التي أنتجتها وتجري المشاهدة في نطاقها أو العلاقات الأوسع القائمة بين تلفزيون ما بعد الحداثة والمجتمع. وينطوي التلفزيون بوصفه تكنولوجيا ثقافية وكجهاز على تداخل في علاقات متشابكة بين المنتجين والمعلنين، والنصوص وجمهور المشاهدين. وتتبع أبعاده الما بعد حداثة كلها تقريبا من نطاق العلاقات المتبادلة، ومن التفكير على نحو أعم في التلفزيون باعتباره ظاهرة اجتماعية ثقافية.

كما أنه من الحقيقي أنه ضمن نطاق خصوصيات التلفزيون كوسيلة تجمع بين الصورة والصوت وتبث لمدة أربع وعشرين ساعة في اليوم فإن الكثير من قسمات ما بعد الحداثة الشكلية لقنوات أو برامج معينة تشبه شبها وثيقا تلك التي توجد في فنون وسائل إعلام أخرى، وهكذا فإن تلفزيون ما بعد الحداثة يتميز بدرجة عالية من

الشطط، والتشظى، والتنافر، والتهجين (اختلاط الأجناس) وخلق مبادئ الجمال والأسلوبية والتناص وإعادة التدوير والترقيع والإحالة الذاتية والمحاكاة الساخرة (الباروديا) والتقليد. وكثيرا ما تكون برامج ما بعد الحداثة غير مستقرة من الناحية الوجودية ويتم في بينات وسياقات إنتاج ذات طابع مازح في مظهرها الخارجي، (ولا يتم هذا أبدا بطريقة رصينة كاشفة للنص الدائى) متنقلة بين عوالم واقعية وخيالية دونما تعليق، مع طمس الحدود بين الحقيقة والخيال أو الماضى والحاضر والمستقبل، وتستخدم بطريقة عرضية بيانات الكمبيوتر والمؤثرات الخاصة لتغليب والقضاء على عوالم التلفزيون تماما. وهو تلفزيون يفترض من نواح عديدة وجود جمهور رفيع الثقافة ومازح يتمتع بمعرفة تلفزيونية متطورة للغاية؛ جمهور يشاهد كثيرا التلفزيون طوال حياته ويعد التلفزيون بالنسبة إليه ثقافة ، وهى بمثابة طبيعة (ثانية).

لقد هيمنت على العروض الأولى لتلفزيون ما بعد الحداثة فى الثمانينيات برامج وقنوات " MTV : M و Miami Vice و Moonlighting و Max Headroom وترى E. Ann Karlan فى كتابها الصادر فى ١٩٨٧: "Racking Around the clock: Music Televi- sion, Postmodernism and Culture أن MTV، قناة التلفزيون الموسيقية العامة، تعد ما بعد حداثة من الناحية النموذجية فى وظيفتها وبنيتها الهيكلية وفحواها (جنزيا)، ومن الناحية الوظيفية فإن بدء MTV فى ١٩٨١ كان رمزا لبزوغ التلفزيون المتخصص والكابل المعتمد على النوع (والقمر الصناعى لاحقا) بما يتزامن مع امتيازات ثقافة ما بعد الحداثة الاستهلاكية. وكانت لا تزال مخصصه لبمع الموسيقى الشعبية وقد أطلق فيديو البوب فى البداية مادة بصرية ترويجية للأغاني المصاحبة له، بيد أنه سرعان ما أصبح سلعة عن جدارة واستحقاق، صيغة بديلة أو تكميلية يستهلك بها المرء برامج المفضلة، ومن الناحية الهيكلية فإن MTV ترمز أيضا إلى تزايد تشظى وتخصص تلفزيون ما بعد الحداثة، وفى شكلها الخالص (وقد تنوعت إلى حد ما منذ ذلك الحين) عرضت فيديو البوب دون توقف. ومن الناحية النظرية، فإن المشاهدين يقضون جل حياتهم فى مشاهدتها. ومن حيث الفحوى فإن Kaplan يرى أنه على الرغم من أن الشكل العام لقناة MTV كان على بعد الدائى فإن هناك خمسة أنواع من برامج

الفيديو: الرومانسى، والوعى الاجتماعى، والعدمية، والكلاسيكية، وما بعد الحداثة. إن الأنواع الفعلية، التى كانت موضع خلاف حتى فى وقتها، تهم بدرجة أقل من الاعتراف بأن غالبية برامج الفيديو لم تكن، عند Kaplan ذات شكل ما بعد حداثى.

كما لوحظت قسمات شتى لما بعد الحداثة فى برامج أخرى فى منتصف الثمانينيات، وإن Lawrence Grossberg فى كتابه العباس المعنون The Indifference Television (١٩٨٧) انتقد العرض الأمريكى فى Miami Vice لخضوعه لأسلوب معين (مؤسلب) والتناص الخالى من المعنى، "إن Miami Vice سطحية كلها. والظاهر (السطح) ليس أكثر من مجموعة من المقتطفات المستمدة من حطامنا التاريخى الجماعى، لعبة متقلبة من الترهات، والقصة أقل أهمية من الصور". إن جوانب الفيديو بوب فى Miami Vice، التى أبرزت يوما تسجيلات موسيقى الروك قد دخلت فى عداد التيار الرئيسى، وعلى الأخص برامج الإثارة الجنسية المضغوطة فى Baywatch ذات الشعبية الواسعة النطاق. كما أن الجو المحاكى المازح لمسلسلات الجريمة الكوميدية Moonlighting، التى زاوجت بين Cybill Shepherd و Bruce Willis كمخبرين سريين اشتركا فى مداعبة غريبة الأطوار لصراع بين ذكور وإناث حالما تعقبا خالين من الهموم مجرمين محتالين، ناقشه كثيرا نقاد التلفزيون. وبوجه أهم فإن الخلط بين "الذكورة" و"الأنوثة" (التهجين) فى برامج لا تعد من الناحية الشكلية ما بعد حداثية، وكان إحدى قسمات المسلسلات التلفزيونية بدءا من Cagney and Lacey حتى The Bill وفى ختام هذه الفقرة فإن البرنامج البريطانى Max Headroom الذى اعتمد على إعداد موسيقى باستخدام الكمبيوتر وتقديم البرنامج بالاعتماد على الممثل Max Frewer، وقدم مثالا على إبراز عمليات الإنتاج الإلكتروني وطمس الفجوة بين ما هو إنسانى وما هو تكنولوجى فى ذاتية ما بعد الحداثة.

وفى التسعينيات القرن العشرين فإن التناص وإعادة التدوير والإحالة الذاتية فى الشكل المنتسب إلى ما بعد الحداثة كل ذلك تحول إلى تيار رئيسى فى التلفزيون. وعلى صعيد محورى وأساسى فإن العدد المتزايد من قنوات التلفزيون قد خلق طلبا

متزايدا أبداً على كل أنواع البرامج. وأحد الآثار المترتبة على هذا هو أن معظم ماضى التلفزيون يعرض حالياً على شاشة التلفزيون ولو أنه تجرى مشاهدته فى معظم الأحيان من عدد محدود نسبياً من المشاهدين، وعمل هذا بدوره جزئياً على تدعيم أساس الإحالة الذاتية لكثير مما يقدم فى التلفزيون اليوم. وقد يكون من المبالغة بعض الشيء الزعم بأن أرشيف الثقافة الشعبية بكامله فى السنوات الأربعين الأخيرة وما بعدها متاح للسطو وإعادة التدوير. إن الكثير من الكوميديا والدراما والموسيقى والمحدثات والأخبار وعروض الشئون الجارية، مثلاً، يعيد استخدام ماضى التلفزيون على نحو حرفى أو فى محاكاة تهكمية هازلة وفى نطاق تصميمها. وفى مجال الكوميديا مثلاً فإننا نشير إلى بعض من أعمال Victoria Wood مثل The Comic Strip Presents و French and Saunders و The day Today و Knowing Me و Knowing The Mrs Merton Show و You with Alan Partridge .

وهناك أمثلة ثلاثة جديرة بالذكر. أولاً أن أية مناقشة لتلفزيون ما بعد الحداثة لا يمكن أن تتجاهل Twin Peaks الإذاعة البريطانية ١٩٩١ - ١٩٩٢) وفى نطاق شكلها المسلسل المحدود فإن Twin Peaks تعد نموذجاً لمزج ما بعد الحداثة بين الأجناس والانتقال ما بين التحقيق البوليسى الكلاسيكى والميلودراما والخيال العلمى والرعب مع حدوث تغيرات عنيفة فى النغمة والمجال الصوتى، جادة فى لحظة، كوميدية أو ذات عاطفية مضحكة فى لحظة تالية، ثم غريبة الأطوار وتتسم بالهلوسة فى أحيان أخرى، وهكذا، ويصعب معرفة كيف الإمساك بها (ما عدا الطابع الساخر التهكمى فى خاتمة المطاف) بيد أنه يبدو أن معظم العمل التسويقي الذى تتم للبرامج استخدام إستراتيجيات حدثية ورومانسية بالتركيز على Davide Lynch كمؤلف وعلى Twin Peaks كعمل تلفزيونى جيد النوعية. وثانياً، هناك عملان مفضلان لدى شخصياً من أعمال ما بعد الحداثة، أولهما هو المسلسلات الكوميدية الأمريكية للرسوم المتحركة Ren and Stimpy التى تستعمل فى نطاق الشكل الثنائى الحيوانى التقليدى (Ren هو كلب

صغير الحجم من النوع المسمى شيواو و Stimpy قط سمين) الفروق الدقيقة والتغيرات النصية النغمية فى الدقيقة النصبة النغمية فى الدقيقة أكثر من أى برنامج آخر حتى اليوم بينما تكون أحيانا باللغة العمق، إن جرأت على القول، ويمكن مشاهدتها بكل تأكيد كمجرد رسوم متحركة صاخبة ولكنها فى الوقت نفسه تزود المشاهد بشفرات ذات دلالات ثقافية غير عادية. والعمل الآخر هو العرض الكوميدي البريطانى الأخير عن كرة القدم المسمى Fantasy Football League وهو صرخة احتجاج على إضفاء الطابع البورجوازي على كرة القدم، وقدم تصدى لها الممثلان الهزليان Frank Skinner و David Baddiel مع مساعدة حاذقة من قبل Angus "Statto" Loughran. وإذ يجمع بين عناصر من المجالات وعروض الألفاظ والمحادثات وأنواع الاستكشافات الكوميديّة فإنه يعترف تماما وإن كان على نحو محاكى هازل بلا ندم بثقافة كرة القدم الأصلية والذكورية (وقد كان من الناجح والمؤثر رؤية انهيار هذا الشكل عند حدوث شىء ما جاء بالفعل، وقد انزعج مقدمو البرنامج تماما من هزيمة ألمانيا لإنجلترا فى البطولة الأوروبية شبه النهائية فى ١٩٩٦ التى وجدوا أنها من الصعب أن تكون هزلية).

بيد أنه - كما ذكرت فى البداية - لا ينبغي أن نعتبر أن التلفزيون كله يتسم بطابع ما بعد الحداثة، فالكثير من البرامج تقليدية على نحو يبعث على الاطمئنان. أما فيما يخصنى فإننى أجلس وأشاهد على نحو منتظم الروايات الواقعية التقليدية مثل Coronatim Street و East Enders من البداية إلى النهاية تقريبا دون قليل من أو حتى دون تغيير أو انتقال (على الرغم من أننى أقوم ببعض التسجيل من وقت لآخر).

الفصل الحادى عشر

ما بعد الحداثة والأدب

(أو أيام الطيش العالمية: ١٩٦٠ - ١٩٩٠)

بارى لويس Barry lewis

كان النمط السائد فى الأدب فيما بين ١٩٦٠ و ١٩٩٠ هو الكتابة ما بعد الحداثة. وثمة أحداث استهلاكية وختامية يمكن أن تتماشى مع هذين التاريخين (مع التجاوز عن عام أو نحو ذلك):

اغتيال جون كيندى، ومرسوم الفتوى الصادر ضد سلمان رشدى، وتشبيد حائط برلين وهدمه.

مقالة "Writing American Fiction" (١٩٦١) و Tom Wolf (١٩٨٩) عن Stalking the Billion-Footed Beast: A Literary Manifesto For the New Social Novel

لقد قدم اغتيال كيندى وتهديد سلمان رشدى بالموت لأنه كتب "آيات شيطانية" (١٩٨٩) أمارتين منذرتين بسوء الطالع لفترة من التاريخ حفلت بالإرهاب والشك. وكان حائط برلين أقوى رمز للحرب الباردة وما صاحبها من شكوك وظنون. وكان العالم قلقاً غير مستقر بما حدث فيه من تغير تكنولوجى سريع وعدم يقين أيديولوجى.

وتبين مقالتا Roth و Wolfe كيف استجاب الأدب لهذا المناخ، وأعلن نص Roth أن الأخبار اليومية أكثر لا معقولية مما فى وسع أى خيال روائى. مما دفع المئات من الروائيين إلى الانطلاق فى تجريب الفانتازيا والوعى الذاتى. أما مانيفستو Wolfe من الناحية الأخرى، فقد كان صيحة احتشادية من أجل العودة إلى الواقعية. وزعم أن

الروائيين ما بعد الحداثيين قد تفاوضوا عن مهمة تمثيل الحياة المعقدة التي تعيشها المدينة. وكان عمله *Bonfire of the Vanities* (١٩٨٨) محاولة إعادة التوازن بتطبيق الأسلوب الصحفي لبلزاك وتأكرى على غابة نيويورك الحضرية.

وتشمل مجموعة أخرى معقولة من العلامات بالنسبة إلى فترة ما بعد الحداثة هذه رواية *Naked Lunch* (١٩٦٢) من تأليف William Burroughs التي تحدث أى معيار للوحدة السردية واللياقة حال نشر أصلها باللغة الفرنسية فى ١٩٥٩. وقد أثارت محكمة بوسطن العليا الاهتمام عندما خلصت إلى أن تصوير الكتاب لهلوسة مدمن المخدرات كانت كريمة وبهيمة (ولم تكن مختصرة علة نحو خاص) بيد أن قلة آثار أندهاشها فى ١٩٩٢ عند عرض الفيلم الروائى *Naked Lunch* (الذى أخرجه David Gronenberg). وعلى الرغم من الوصف البشع للأحداث عن الشذوذ الجنسى والصراصير المفزعة فإن الفيلم لاقى اللامبالاة وليس السكوت التام، لاقى الازدراء وليس الاشمئزاز، ولا يشير هذا إلى ارتفاع مستويات تحمل التفاهة فحسب، بل أيضا إلى حدوث تغير فى المواقف من الأشكال القصصية المتجاوزة للحدود.

والحق أن الهالة التى أحاطت من قبل بالطليعة تتلاشى الآن. وعندما كانت مسلسلة تليفزيونية غير معتادة مثل *Twin Peaks* لـ David Lunch التى حظيت بشعبية مثل *Peyton Place* تشهد نجاحا وازدهارا فمن المؤكد أن الحدود الفاصلة بين الاتجاه السائد والفن الهامشى قد تآكلت، ولم تعد الكلمة المطبوعة قادرة على أن تتنافس مع الوسائل المرئية فيما يتعلق بالسيرالية.

ومن ثم فهل أدب الاستنفاد (عبارة John Barth عن المحاولة الأخيرة للرواية لكى تحقق التفوق فى القرية الكونية الإلكترونية) استنفذ نفسه الآن؟ ويعتقد De Wilo Siloan فى مقالته "The decline of American Postmodernism" (١٩٨٧) تشهد الآن ما بعد الحداثة بوصفها حركة أدبية... المرحلة النهائية من انحلالها. ويرى كذلك Malcolm Bradbury و Richard Ruland فى مسحها الشامل: *From Puritanism to Postmodernism* (١٩٩١): "تشبه ما بعد الحداثة حاليا مرحلة أسلوبية امتدت من ستينيات حتى ثمانينيات القرن العشرين". وبناء على ذلك فإن نسبة كبيرة من الكتابات التى

نشرت بعد ١٩٩٠ التي أطلقت على نفسها صفة ما بعد الحداثة هي حقا ذات طابع بعد ما بعد حداثي Postmoderist أو باختصار "Post - Pono".

لقد بذل Bradbury جهدا كبيرا لكي يرسم تلك الفترة ويحدد تصور كتابة ما بعد الستينيات بوصفها فترة قائمة بذاتها، ويعترف بأن المشكلات المتعلقة بوضع خريطة للأدب المعاصر ضخمة وأن تنوعه يفرض مشكلات على من يطمع في أن يرسم هذه الخريطة. إن ما بعد الحداثة، بطبيعة الحال، ليست أكثر من جزء من المشهد الإجمالي، لكنها مثل السلسلة الجبلية فإنها تلوح في الأفق وتغطي على كل شيء آخر، وأن تنهادي فوق القمم والوديان ليس مهمة يسيرة ولحسن الحظ فقد وجد مرتادون جسورون آخرون يمكن أن تساعدنا رحلاتهم الصعبة في جولتنا لتحديد المعالم والتضاريس. وأهم الأدلة المفيدة في هذا الصدد هي Metafiction (١٩٩٤) من تأليف Larry Mc Caffery وPostmodern Fiction (١٩٨٦) من تأليف Patricia Wough وPostmoderist Fiction (١٩٨٧) من تأليف Brain Mc Hole ومما يساعد في هذا التوجه عشرات من التخطيطات الأكثر محلية لكتاب أفراد فضلا عن أعمالهم.

تعد روايات ما بعد الحداثة ظاهرة عالمية ولها تمثيلات مهمة عبر العالم قاطبة: جنتر جراس Gunter Grass و Peter Handke (ألمانيا)، و George Perec و Monrique Witting (فرنسا)، وأمبرتو إيكو إيتالو كالفينو (إيطاليا)، وأنجيلا كارتير وسلمان رشدي (بريطانيا)، وستانيسلاف ليم Lem (بولندا) وميلان كونديرا Kundera (تشيكوسلوفاكيا السابقة)، وماريو بارجاس يوسا Liosa (بيرو)، وجابريل جارسيا ماركيث (كولومبيا)، و ج. م. كويتزي J.M Coetzee (جنوب أفريقيا)، وبيتر كاري Carey (أستراليا). وعلى الرغم من هذه الكونزموبوليتية فإن M.Bradbury مزح قائلا: "عندما يطلق اسم ما بعد الحداثة يطن كل شخص أنها أمريكية ومع ذلك فإن لكتابها أسماء Borges و نابوكوف وكالفينو وإيكو؛ وذلك بسبب ضخامة عدد الكتاب الذين ينتمون إلى القائمة الذين يمكن إدراجهم تحت مسمى ما بعد الحداثة. وتضم القائمة في العادة أكثر من عشرين اسما:

Walter Abish

Kathy Acker

Paul Auster

John Barth

Donald Barthelme

Richard Brautigan

William Burroughs

Robert Coover

Don De Lillo

E.L. Doctoro

Raymond Federman

William Gass

Steve Katz

Jerzy Kosinski

Joseph mcElroy

Thomas Pynchon

Ishmael Reed

Gilbert Sorrentino

Ronald Sukenick

Kurt Vonnegut

ويقرر Raymond Federman فى "Self- Reflexive Fiction" (١٩٨٨) إنه لا يمكن القول إن هؤلاء الكتاب.. شكلوا حركة موحدة مما ينتج صياغة نظرية متماسكة". ويصعب الاختلاف فى هذا القول إذ إن الروايات والقصص القصيرة التى ألفها هؤلاء الكتاب تختلف اختلافاً بالغاً، بيد أنه ثمة بعض الأمور المشتركة بينهم. وتشمل

القسمات المسيطرة في قصص ما بعد الحداثة: الاضطراب الزمني، وتآكل الإحساس بالزمن، والاستخدام المنتشر الذي لا طائل من روايته للمحاكاة الأدبية، ووضع كلمات في المقدمة بوصفها أمارات مادية متشظية، وعدم ترابط الأفكار، والبارانويا (الخيلاء المرضى أو جنون الاضطهاد)، وتكرر هذه الخصائص مرارا وتكرارا في المشاهد البادية والباعثة على الارتباك في القصص المعاصر. وقد وضعها على هذا النحو John W. Aldridge في *The American novel and the way how we live* (١٩٩٣) قائلا:

”يوجد كل شيء وكل شخص بصورة افتراضية في قصص [كتاب ما بعد الحداثة] في تلك الحالة الراديكالية من النشوة والانحراف؛ ما يتعذر معه تحديد من أية أوضاع في العالم الواقعي استمدت أو من أي معيار لسلامة العقل يمكن القول إنها تنطلق منه. وقد ألفت أعراف مشاكل الحياة من الوجود لآكيان له، حيث يصبح سلوكها اعتباطيا على نحو لا يمكن تفسيره ويتعذر الحكم عليه، لأن القصة نفسها تعتبر استعارة لحالة اختلال يبدو أنه دون إثارة ويتجاوز القياس والتقدير.”

وسوف يركز المسح الوجيز التالي على ارتباكات أو تشوش الروايات والقصص القصيرة المعاصرة. وقد أثرت ما بعد الحداثة على جميع الأشكال الأدبية. ومع ذلك وكما يلاحظ Chris Baldick في *The Concise Oxford Dictionary of Literary Terms* يلوح (أنها) لا صلة لها بالشعر الحديث وصلتها ضئيلة بالدراما لكنها استخدمت على نطاق واسع في الإشارة إلى القصص”. ولهذا فإن هذه المقدمة سوف تركز على قصص ما بعد الحداثة، على الرغم من أنه يمكن أن توجد قسمات عديدة تميزها في أنواع أخرى من الكتابة المعاصرة .

الاضطراب الزمني

تري Linda Hutcheon في "A Poetics of Postmodernism: History, Theory, Fiction" (١٩٨٨) أن ما بعد الحداثة "مشروع متناقضة أشكالها الفنية.. تستخدم وتسيء استخدام، ترسي ثم تقوض أسس الأعراف... في إعادة النقدية التهكمية لفن الماضي"، كما أنها تشير إلى أن كتابة ما بعد الحداثة تمثلها أفضل تمثيل أعمال "الميتاقصة (القصة التي تصف القصة الشارحة)" (١٠) المدونة للوقائع التاريخية التي تشوه التاريخ عن وعي. ويمكن أن يتحقق ذلك بوسائل عديدة، كما يسجل Brain Mc Hale في دراسته المذكورة أنفاً عن طريق التاريخ المشكوك في صحته أو المفارقة التاريخية (المنافاة الزمنية) أو مزج التاريخ بالفانتازيا.

وينطوي التاريخ المشكوك في صحته على أوصاف مزيفة للوقائع الشهيرة. ولنتأمل رواية The Remains of the day للكاتب Kagno Lsahiguro (١٩٨٩) حيث يقوم رئيس خدم في قصر عريق بلعب دور صغير وإن كان مهماً في سياسة التهدئة التي اتبعتها بريطانيا إزاء ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية. والمفارقة التاريخية تقضى على الترتيب الزمني عن طريق التباهي بالتضارب الصارخ في التفاصيل والأوضاع. وفي رواية Flight to Canada (١٩٧٦) لكتبتها Lshmael Reed فإن إبراهيم لنكون يستخدم التليفون ويعرض التليفزيون عملية اغتياله، و Tom Crick معلم في Waterland (١٩٨٣) لكتبتها Geraham Swift يخلط التاريخ بالفانتازيا بالجمع بين وصف الثورة الفرنسية وذكرياته الشخصية ونوادير لا أساس لها عن تاريخ أسرته.

إن قصة ما بعد الحداثة لا تقوض أسس الماضي فحسب. بل إنها تشوه الحاضر أيضاً. وهي تشوش التماسك المستقيم (الأفقى) لعملية السرد عن طريق حجب أو تغليف معنى الزمن الدال (Kairos) أو الانقضاء الكثيب الملل للزمن العادي (Chronos).

(١٠) Metafiction: هي القصة التي تتحدث عن قصة أخرى مدرجة فيها، أو القصة التي تتحدث عن نفسها
ومساليها السردية. Metanarrative. راجع د. محمد عناني - مرجع سابق - (المترجم).

وقد ارتبط Kairos بقوة بتلك الروايات لما بعد حادثة التي نظمت من حول لحظات الإدراك المفاجئ لدلالة حدث ما أو الفضح والكشف كما فى رواية جيمس جويس "صورة الفنان فى شبابه" (١٩١٦). وإن روايات ما بعد الحادثة مثل Gerald's Party لمؤلفها Robert Coover فى خفوت من هذه الاحتفالات المهيبة. والوفرة المطلقة فى الحوادث التى تقع إبان ليلة واحدة (العديد من عمليات القتل والجلد، وتعذيب الشرطة لزوجات جيرالدن ووصول فريق مسرحى كامل) يضخم الوقت فيما يتجاوز ما هو معترف به. والكتابة الواقعية التى نخصص فى الزمن العادى Chronos أو التوقيت الزمنى العادى، تهزأ بها بعض نصوص ما بعد الحادثة. وتشمل رواية The Mezzanine (١٩٩٠) لمؤلفها Nicholsom Baker على سلسلة من التأملات المستفيضة عن لماذا انقطع رباط حذاء الشخصية الرئيسية إبان وقت غداء معين.

وتتمثل كتابة ما بعد الحادثة بهذه الأنواع من الاضطراب الزمنى. وكما كتب Co over فى "The Public Burning": التاريخ لا يتكرر...ولا توجد معارف مسبقه - وبعبارة عن هذا التدفق فإن كل مثل هذه التأكيدات يمكن أن تكون حقيقية أو زائفة أو غير منطقية أو كل ذلك فى الوقت نفسه". أو كما لاحظ المفتش Pardew أحد الشخصيات فى Gerald's Party بصدد الزمن: "إنه مفتاح كل شيء، وهو كذلك دائما، مفتاح كل شيء".

المحاكاة الأدبية(*) (Pasticho)

تعنى الكلمة الإيطالية Pasticcio خليطا من مكونات شتى: ومزيجا، Hotchpotch، Farrago واختلاطا بغير نظام Jumble، وهى الجذر الاشتقاقي لكلمة Pastiche ويشبه تقليد كاتب فرد بالأحرى خلق جناس القلب (تغيير حروف الكلمة لكى يمكن تكوين كلمة أخرى) وليس خلق الحروف بل مكونات الأسلوب. وهكذا فالمحاكاة الأدبية هى نوع من التبديل والإبدال، تقليب لحيل نحوية ونوعية شاملة.

(*) المعنى الحرفى محاكاة الأديب فى أثره الأدبى أثر أديب آخر محاكاة دقيقة. راجع د. مجدى وهبة فى معجم مصطلحات الأدب. (المترجم)

لا يعد مجرد وجود المحاكاة الأدبية في كتابة ما بعد الحداثة فريداً في حد ذاته؛ فقد تميزت حداثـة الشكل الروائي ذاتها بتتابع أنواع التقليد الساخر (الباروديا) ابتداءً من صمويل ريتشاردسون S. Richardson حتى لورانس شتيرن ومع ذلك وكما يشير J. Barth في مقالته عن The Piterotwre of Exhouston (١٩٦٧) ومقالته اللاحقة عن The Literature of Replenishment (١٩٩٠) هناك بكل تأكيد شيء غريب ومتميز إزاء الهوس المعاصر من أجل انتحال الشخصية.

وتجسد مقالة Barth المبكرة حالة نفسية سادت في أواخر الستينيات عندما كان نقاد من أمثال Susan Sontag تشغلهم إلى حد كبير المبالغة في الشائعات عن موت الرواية. ولا أن الحيل التقليدية القصصية استنفدت وغدت غير قادرة على استيعاب تعقيدات العصر الإلكتروني. وقد تبادر إلى الذهن في البداية أن Barth، بتشدهه على استنفاد الواقعية والحداثة على السواء، لم ينضم إلى مراسم دفن الرواية فحسب، بل كان متطوعاً لكي يصبح رئيس حاملي بساط الرحمة في هذه الجنائز. بيد أن النقاد تفاوضوا عن زعمه (الذي أعاد تكديده في المقالة اللاحقة) بأن الجثمان يمكن بث الحياة فيه عن طريق خياطة الأطراف والأصابع المبتورة معا في تبديل جديد؛ أي عن طريق المحاكاة الأدبية (Pastiche) بكلمات أخرى.

ومن ثم فإن المحاكاة الأدبية تنطلق من الإحباط التابع من أن كل شيء قد أنجز من قبل. وكما يلاحظ فرديريك جيمسون في "ما بعد الحداثة والمجتمع الاستهلاكي" (١٩٨٣) "لم يعد في وسع كتاب وفناني الزمن الحاضر اختراع عوالم وأساليب جديدة ... ومن الممكن فقط إيجاد عدد محدود من التوفقات؛ وأكثرهم فريدة فكر في ذلك بالفعل". وهكذا، بدلا من أن يصقل الكاتب توقيعا لا لبس فيه مثل د. ه. لورانس أو Gertrude Stein فإن كتاب ما بعد الحداثة اتجهوا إلى اقتطاف الأساليب الموجودة دونما ترتيب يختلط فيها الحابل بالنابل من مستودع التاريخ الأدبي، وجعلها ملائمة بقليل من الكياسة.

ويفسر هذا سبب استعارة كثرة من الروايات المعاصرة ملامس أشكال أخرى (مثل الويسترن وحكايات الخيال العلمي والقصص البوليسية) والدافع الذي يكمن خلف هذا الخيط من الأزياء تشنجي أكثر من كونه محاكيا. وتقدم هذه الأجناس الأشكال

الجاهزة. والمثل الأعلى لتجهين ما بعد الحداثة. ويلاحظ Phillip French أن أويسترن يعد "طائر الوقواق الجائع لجنس ما... مستعداً للاستحواذ على أى شيء فى الهواء بدءاً من جنوح الأحداث حتى الإيكولوجيا" ويقول آخر فهو شكل هجين بالفعل، وتشكل أمثلة ويسترن ما بعد الحداثة Hawkline Monster (١٩٧٤) من تأليف Richard Brautigan وYellow Back Radio Broke Down (١٩٦٩) لـ J. L. shmael وThe Place of Dead Roads (1984) لمؤلفها Willam Bueroughs وتعد قصص الخيال العلمى أحد المصادر الشعبية الأخرى للمحاكاة ما بعد الحداثيّة. ويؤكد بعض النقاد أنها الرفيق الطبيعى لكتابة ما بعد الحداثة. بسبب اهتماماتها الوجودية المشتركة (انظر خاصة Solaris (١٩٦١) لمؤلفها Stanislaw Lem وCosmicomics (١٩٦٥) لمؤلفها Italis Calvino وSlaughter House- Five (١٩٦٩) لمؤلفها Kurt Vonnegut). وأخيراً فإن النوع البوليسى مرشح آخر لوظيفة الرفيق الحقيقى لما بعد الحداثة. وتستهوئ ملاحقة الألفان كاتب ما بعد الحداثة؛ لأنها تتوازى على نحو وثيق للغاية مع بحث القارئ وتفتيشه عن المعنى النصى. وأشهر قصص ما بعد الحداثة شعبية التى تتسم بطابع بوليسى هى The Name of The Trilogy (١٩٨٧) من تأليف Poul Auster وHawkamoor (١٩٨٥) لمؤلفها Peter Ackroyd.

التشظى والتفتت

أفصح John Hawkes ذات مرة عن أنه عندما بدأ فى الكتابة فقد افترض أن "الأعداء الحقيقيين للرواية" الحبكة والشخصية ومكان وزمان المشهد والموضوع. ومن المؤكد أن كثرة من المؤلفين اللاحقين بذلوا أقصى الجهد لتوجيه ضربات باطشة وإزاحة هذه الأركان الأدبية الأربعة إلى طوايا النسيان، فإما أن يتم تفتيت الحبكة إلى نتف من الأحداث والملابسات وإما أن تدمج الشخصية فى حزمة من الرغبات المضطربة، أو أن

لا تعد المناظر أكثر من ستارة مؤقتة، أو أن تبدو الموضوعات واهنة لدرجة أنه كثيرا ما يكون من غير الدقيق على نحو أن تقول إن بعض الروايات تتحدث "عن" الشيء الفلاني".

وكما يلاحظ Jonathan Boubach في قصة قصيرة في *The return of Service* (١٩٧٩) في مرات كثيرة للغاية أنت تقرأ قصة في أيامنا هذه وهي ليست قصة على الإطلاق، في معناها التقليدي".

ولا يثق كاتب ما بعد الحداثة في الاكتمال والتمام المرتبطين بالقصص التقليدية، ويفضل أن يتعامل مع طرق أخرى في السرد البنائي. ويتمثل أحد البدائل في النهاية المتعددة التي تقاوم الإنهاء أو الختام عن طريق تقديم نتائج عديدة ممكنة لحبكة ما. وتعد رواية *The French Lieutenant's Woman* (١٩٦٩) من تأليف John Fowles الكلاسيكي على هذا. وتتناول الرواية حب Charles Smithson عالم هاو للطبيعات حسن السمعة (مخطوب لابنة تاجر ثرى) لـ Sarah Woodruff، منبوذة من المجتمع لأنه يشاع أنها ارتبطت على نحو شائن بضابط فرنسي. وعلى الرغم من أن الرواية تحدث في Lyme Regis في ١٨٦٧ وتسير على نهج الأعراف العديدة لقصة الحب فهي بعيدة عن كونها قصة غرامية تاريخية معتادة.

ويعمد Fowles إلى تحطيم السرد باستعراض ألفته مع ماركس وداروين وغيرهما ... القارئ مباشرة، وحتى في مرحلة ما يتدخل بنفسه في القصة بوصفه أحد شخصياتها. وتعد النهايات المتعددة جزءا من تكتيكات حرب العصابات هذه. وهو يرفض أن يختار بين نوعين متنافسين لحل العقدة القصصية: أحدهما إعادة الجمع بين شارلز وسارة بعد قضية عاصفة، والحل الآخر هو أن يبقيا منفصلين دون رجعة. ومن ثم فإنه يدخل مبدأ عدم اليقين إلى الرواية. بل إنه يداعب إمكانية ثالثة تتمثل في إمكانية ترك شارلز في القطار، بحثا عن سارة في العاصمة: لكن أعراف القصة الفيكتورية تجيز، وأجازت أنه لا مكان للنهاية المفتوحة وغير الباتة..".

وثمة وسيلة أخرى لإيجاد مكان للنهاية المفتوحة وغير الباتة تتحقق عن طريق تقطيع النص إلى شظايا أو أقسام صغيرة تفصل بينها فراغات أو عناوين أو أرقام ورموز. وتمتلى الروايات والقصص القصيرة لكل من Richard Brautigan و Donald Barthelme يمثل هذه الشظايا. ويذهب بعض المؤلفين حتى إلى ما هو أبعد من ذلك

بتقطيع نفس نسيج النص برسوم أو ترتيب المادة المطبوعة بطريقة معينة أو بوسائل مختلطة وكما يذكر Raymmd Federman في مقدمة Surfactaio: Fictin Nowi and To-morrow (١٩٧٥) في تلك المساحات التي تترك دون كتابة شيء، يستطيع كتاب القصة، في أي وقت، إدخال مواد (اقتباسات، صور، رسوم بيانية، خرائط تصاميم، أجزاء من أحاديث أخرى) لا صلة لها على الإطلاق بالقصة.

ويفعل William Gass في Willie Masters' Lanesome Wife (١٩٦٧) كل هذه الأشياء تقريبا في ستين صفحة شاذة وغريبة وهو نص ما بعد حدثي دون منازع. وردى، وأبيض مصقول. والمرأة العارية المتلقية في استرخاء تام على صفحة الغلاف تمثل شخصية Babs وهي زوجة محبطة تجسد من الناحية المجازية معادلة اللغة / العلاقة الجنسية التي يدرسها Gass. وتصميم الصفحة غريب الأطوار وقد كان يمكن للمارشال مك لوهان أن يصممه للمسكالين (شراب مسكر قوى المفعول يحدث هلوسات بالغة). وهناك طرز عديدة من حروف الطباعة (حروف غليظة أو مائلة) وشكلها (قوطية، حروف مكتوبة بخط اليد) وأساليها (رموز موسيقية، نبرات) والعديد من الترتيبات المختلفة (الأعمدة، الحواشي) التي تشق طريقها بالإضافة إلى بعض الدعايات البصرية. (يقع فنجان القهوة، علامة نجمة ضخمة) وسماها Roland Sukenick في مقابلة صحفية "هطول الأمطار من أحداث مفتحة". وربما كان أقرب إلى الدقة القول "الرياح الموسيقية".

ويصعب مع أعمال مثل تلك التي قدمها Fowles و Brautigan و Gass، فإن عدم تذكر العبارة الشهيرة المقتبسة في عمل E.M. Forster المسمى " : Howards End عش في شظايا لا أكثر. ولكن متصلا فقط" ونستطيع مقابلة هذا بما نطق به إحدى شخصيات " : Barthelme أنظر إلى القمر؟" في Unspeakable Practlces وما جاء في : (1968) Unnatural Acts الشظايا في الأشكال الوحيدة التي أثق بها. وتظهر هاتان العبارتان بوضوح وجود فرق حاسم بين الحداثة وما بعد الحداثة فعبارة فورستر تكاد تكون شعاراً للحداثة وتشير إلى ضرورة إيجاد أشكال جديدة من الاستمرارية في ظل غياب الحكبات المستقيمة القديمة. وعلى العكس فإن روعة Barthelme (في العبارة الثانية) تلمح إلى حذر قصة ما بعد الحداثة من الاكتمال.

تفكك الترابط

ثمة وسيلة أخرى يحطم بها كثير من كتاب ما بعد الحداثة الإنتاج والاستقبال المنتظمين للنصوص تتمثل فى الترحيب بالصدفة فى العملية الإنشائية. والرواية الشائنة (1969) The Unfortunates للمؤلفها B.S.Johnson، هى رواية فى علبة حيث تعلم القارئ بأن يخلط الفصول العديدة ذات الأوراق السائبة بئى ترتيب. والفصلان، الأول والأخير، فقط هما اللذان جرى تمديدهما أما الأقسام الأخرى فيمكن خلطها بحرية. ويهدف هذا الشكل المستنبط ليس مجرد القيام بتجربة تقنية متعمدة، بل بالأحرى فإن جونسون يرغب فى أن يعيد خلق التنظيم الوحيد لأفكاره بعد ظهر يوم سبت معين عند نقل تقرير عن مباراة كرة قدم فى نونتجهام إلى صحيفة الأوبزفير، وكانت تلك هى المرة الأولى التى تعود فيها إلى المدينة منذ وفاة صديقه تونى، ويعكس الشكل الغريب مشاعره المهتاجة. ومن ثم فإن الأوراق السائبة لهذه الرواية لم يقصد بها، وعلى نحو سآخر، أن تكون صدفة على الإطلاق، بل تجاهد لأن تجعل ما يدور فى الذهن أكثر طبيعية.

كما أن William Burroughs يقوم بغارات متكررة لاكتشاف الطريف والمفيد مصادفة. ولم يتحكم فى ترتيب الأقسام الفردية الاثنتين والعشرين فى Naked Lunch (1962) إلا النظام العرضى الذى حدث أن أرسلت به إلى الناشرين. والحق أن عدم ترتيب الحجرة التى جمعت فيها المخطوطة أدخل فى بعض الأحيان بتتابع الصفحات. ومن المدهش بعض الشيء أن يعترف Burroughs بأنه يمكن أن تقطع Naked Lunch فى أى نقطة تقاطع: وهو يستخدم الصدفة على نحو أقل عشوائية فى ثلاث روايات ابتداء من الستينيات والتى كثيرا ما جرى تجميعها معا بوصفها ثلاثية وهى Nova Ex-press (١٩٦٦) و The Soft Machine (١٩٦٧) و The Ticket That Exploded (١٩٦٧). وتستخدم هذه الكتب بطريقة منهجية "نظام التقطيع"^(٥)، و"التقطيع" وليد أفكار الفنان Tristian Tzara الذى تصوره كمعادل لفظى للفن التلصيقى أو فن صنع الملصقات التكميبي والداداي فى الفنون المرئية.

(٥) Cut-Cup، يعنى حرفيا التقطيع إلى أجزاء. وفى مجال الأفلام والتسجيلات الصوتية يعنى التسجيل عن طريق القطع وإضافة مواد من تسجيلات موجودة من قبل. (المترجم).

ويمكن اقتفاء أثر امتدادات أخرى لهذه الفكرة عبر أشعارات ت. س. إليوت وعزرا باوند والمحاكاة الصحفية لجون دوس باسوس. وقد تعلم Burroughs التقطيع من Brion Gysin . ويشمل وضع الجمل المبتورة من سلسلة من النصوص في قبة أو وعاء آخر، وخلطها معاً ثم توفير قصاصات الورق التي التقطت بالمصادفة. وقد دفع هذا الهراء النقاد الشكاكين إلى إجراء مقارنات جارحة بين Burroughs والقردة ذات الآلات الكاتبة.

كما حبذ Burroughs تقنية أخرى للمصادفة تتمثل في الطية أو الثنية، حيث يتم ثني صفحة النص رأسياً ثم تجرى محاذاتها بصفحة أخرى حتى يتوافق النصفان. وكما أن التقطيع يتيح للكتابة تقليد المونتاج السينمائي فإن الطية تعطي المؤلف حرية اختيار تكرار الفقرات الأولى بطريقة موسيقية بشكل خاص، وعلى سبيل المثال إذا ما جرى في الصفحة الأولى مع الصفحة المائة لى تشكل الصفحة المركبة رقم ١٠، فإن العبارات يمكن أن تبعث بإشارات إلى الأمام أو إلى الوراء مثل استباق وإعادة الألحان الدالة في السيمفونية الموسيقية.

ويجهد التقطيع مثل الثنية في تفادي أصفاد القصة العادية. وتستعير نصوص قليلة مباشرة هذه التقنيات لكن عزم Burroughs على التقاط المصادفة يتناسب بلا جدال مع كاتب ما بعد حدثي. وفي هذا الصدد فإنه يشبه بالآخرى الموسيقى John Cage (*) الذي مهد أرضية واسعة للارتياح والاستكشاف للمؤلفين الموسيقيين اللاحقين، على الرغم من أن تجاربه مع النرد (زهر الطاولة) و I-ching ثبت أنه يتعذر تكرارها. ومع ذلك وكما لاحظ Julian Cowley في مقالة عن Roald Sukenick (١٩٦٧) أنه فيما يتعلق بالموسيقى والكتابة فإن "الاستعداد لركوب العشوائية يمكن أن يعتبر بمثابة موقف ما بعد حدثي على نحو متميز".

(*) انظر الفصل التالي. (المترجم)

البارانويا

تتشعر كثرة من الشخصيات المسرحية فى قصة ما بعد الحداثة شعورا حادا بالبارانويا أو التهديد بالابتلاع من قبل نظام شخص آخر. ومن المفردى تخمين أن هذا الشعور تمثيل محاكى غير مباشر لمناخ الخوف والشك الذى ساد طوال فترة الحرب الباردة. وكثيرا ما يعنى أبطال قصة ما بعد الحداثة ما يسميه Tony Tanner فى City of Words (١٩٧١) الرعب من أن أى شخص آخر يفرض نمطا معيننا على حياتك فهناك جميع أنواع الدسائس (١) الخفية المدبرة التى تسلبك استقلالية تفكيرك وفعلك، وأن هذا التكيف موجود فى كل مكان.

وتعكس كتابة ما بعد الحداثة ضروباً من القلق المصحوبة بالارتياح المرضى بطرق عديدة تشمل: عدم الثقة بما هو ثابت وراسخ، وفى أن يكون المرء مطوقاً أو مقيداً بأى هوية أو مكان واحد معين، والاعتقاد بأن المجتمع يتأمر على الفرد، وتعدد المؤامرات ذاتية الصنع لمعارضة مكائد الآخر. وهذه الاستجابات المختلفة متلازمة فى ثلاث مجالات مرجعية متميزة وترتبط بكلمة Plat. ومعناها الأول قطعة أرض صغيرة أو متوسطة الحجم محجوزة لغرض خاص مثل زراعة الخضروات أو بناء منزل، ويثير الفضاء الساكن الرعب فى بطل ما بعد الحداثة Randle Mc Murphy وفى رواية Ken Kesey المسماة One Flew Over The Cuckoo's Nest (١٩٩٢) و Yossarian فى رواية J-٥ Slaughterhouse المعنونة (١٩٦٩) كل واحد من هؤلاء حجزته السلطات فى قطعة أرض "Plat" خاصة به. وقد أودع Mc Murphy مستشفى الأمراض العقلية وتم تجنيد Yossarian فى القوات الجوية، و Billy Pilgrim يعتقل فى معسكر أسرى الحرب الألمان. وتسيطر البيروقراطية الانتقامية على هؤلاء الخارجين على الجماعة بالأدوية أو الروتين أو قوة السلاح.

(٥) تنطوى كلمة Plot على معان عدة كما سيوضح المؤلف فيما بعد. إذ تشمل: قطعة أرض، ومخطط أو خريطة أرض، وحبكة القصة أو الرواية أو المسرحية، ومكيدة أو مؤامرة أو دسيسة. (المترجم).

وفى كل لحظة يسجن فيها الفرد بفعل قوة خارجية يحدث اضطراب فى الهوية. ولذلك فإن احتجاجات Mc Murphy بأنه سليم العقل يثبت جنونه، واعتقاده Pilgrim بأنه موضع تجربة تناقضه الطريقة اللفظة التى يعامله بها أسروه الألمان. ولكى يعوض هؤلاء المصابون بالخلاء المرضى (بارانويا) القنوط من مأزقهم فإنهم يشتاقون إلى حالة من الانفتاح والانطلاق الكاملين. بيد أن دافعهم إلى الحرية يفسده رعبهم من الطريق المفتوح الفعلى والاستهتار بإمكانية الهروب. وهذه الشخصيات الثلاث توجد فى مكان مأمون ومعرضة للخطر فى آن واحد فى "المواقع" plots التى يوجدون فيها فى مستشفى Oregon للأمراض العقلية وقاعدة Piansoa الجوية ومجزرة درسدن.

والمعنى الثانى لكلمة Plat هو الخطة السرية أو التآمر لتحقيق غرض إجرامى أو غير شرعى، ويتشكك دعاة رواية ما بعد الحداثة أحياناً فى وقوع الشخص (رجل أو امرأة) فى شرك مكيدة، مع بعض التبرير فى معظم الأحيان. و Mc Murphy على حق فى تخوفه من التمريض الذى يفرض عليه أن يخضع للعلاج بالصدمات وإجراء جراحة مخيفة غير مرخص بها. وباراشوت Yossarian سرقة Milo Minderbinder وحل محله مستند Mi M Entreprises عديم الجبوى. ويرسل الجنرال Peckham سرية Yossarian للقيام بمهام خطيرة بالقاء قتال للحصول على صورة جوية مناسبة للمجلات المحلية. ويغى Nately تطعن Yossarian معتقدة أنه قتل حبيبها. وفى Slaughterhouse Five فإن Billy Pilgrim يدرك أيضاً على نحو سليم أن الآخرين يرغبون فى السيطرة على رفاهيته، وتعهد به ابنته إلى مؤسسة للأمراض العقلية ويقتله Paul Lazerro لاحقاً انتقاماً لأنه يسمح على حد زعمه بموت Roland Weary .

وليس هناك إلا خطوة صغيرة للانتقال من هذه التخوفات الخاصة إلى تأمل أكثر إثارة للقلق. وربما كان المجتمع بأسره يمثل مؤامرة على المواطن وماذا لو كانت كل الأحداث المهمة فى التاريخ هى بالفعل عروض جانبية نظمها مدراء حلبة لا يشاهدهم أحد وذلك لأغراض خفية؟ وهو ما يعرف باسم التاريخ البارانونى. وقد استأثر هذا الموضوع بانتباه الروائى الأمريكى Thomas Pynchon. فشخصياته الروائية: Stencil فى رواية (٧) (١٩٦٣) و Oedloa Mass فى The Crying of Lot 49 (١٩٦٦) و Gravi-ty's Rainbow (١٩٧٣) و Vineland (١٩٩٠) يعثر كل منها مصادفة على

مكاند ومخططات تهدد الحقوق الفردية. وكما يلاحظ فى إحدى رواياته فإن أوجه قلقهم المضاعف قد فجرها "أقل ما يقال عنه هو بداية الاكتشاف، أو حافته المتقدمة، بأن كل شىء موصول ومرتبب، كل شىء فى الكون".

والمعنى الثالث والأكثر دنيوية لكلمة *Poit* هو بطبيعة الحال ما يتعلق بخطة العمل الأدبى. وسماها John Barth فى مقابلة صحفية "هذا الاضطراب المتزايد لنظام متوازن على نحو غير مستقر وإعادته الكارثية إلى توازن أكثر تعقيداً"، ويشير هذا التعريف الهزلى إلى أن الحكبة لها شكل معين وهيئة معينة "فشخص ما يجرى تحديه وبعض العقبات يتم التغلب عليها، ويتم التوصل إلى وضع جديد". فالحبكة شكل أو هيئة والكل يعنى سيطرة وتحكماً. وأكثر العديد من الكتاب ما بعد الحداثة من وجود العقدة كما لو كان عليهم أن يثبتوا من خلال التمكن الشديد تحررهم من قيود السيطرة من قوى خارجية، ومن أفضل هذه الأعمال المتطرفة Foucault's Pendulum (١٩٨٨) لمؤلفها أمبرتو إيكو، و *Life: A user's Manual* (١٩٧٨) Georges Perec و *Let Iers* (١٩٧٩) من تأليف Barth نفسه.

الحلقات المفرغة

تنشأ الحلقات المفرغة فى قصة ما بعد الحداثة عندما يكون النص والعالم قابلين للنفاذ إلى حد أنه يتعذر فصل أحدهما عن الآخر. ويندمج الحرفى والمجازى عندما يحدث ما يلى: عمليات تماس (عندما يدخل المؤلف إلى النص) والروابط المزدوجة (عندما تظهر فى القصص شخصيات تاريخية حقيقية).

إن عمليات التماس التى تلح على قصة ما بعد الحداثة نادراً ما تحدث فى الأشكال الأخرى للقصص. وفى الأدب الواقعى، مثلاً هناك تدفق متواصل للسرد "الكهربائى" بين النص والعالم، ولا يظهر المؤلف مباشرة فى قصصه إلا كصوت يرشد على نحو غير مباشر القارئ صوب تفسير "صحيح" لموضوعات القصة. وعلى العكس، فإن الكثير من قصص النزعة للحداثة تحركها الرغبة فى حذف المؤلف من النص بوجه

العموم. ولنتأمل صورة جيمس جويس للفنان الذى يقف وراء العمل، يقلم أظافر أصابعه. ويكفل هذا أيضا وجود فرصة ضئيلة لخلط العالم داخل النص بالعالم خارج النص. بيد أن هذا الاختلاط فى روايات وقصص ما بعد الحداثة منشتر، فالنص والعالم ينصهران عندما يظهر المؤلف فى قصته ذاتها. وأفضل الأمثلة على هذا يحدث فى عمل Roland Sukenick المعنون The Death of the Novel and Other Stories (١٩٦٩) و Out (١٩٧٣) وعمل Raymond Federmon المسمى Double or Nothing (١٩٧١) و Take it or Leave it (١٩٦٧) .

والروابط المزدوجة مفهوم قدمه Gregory Bateson وغيره لتوضيح عدم القدرة على التمييز بين المستويات المختلفة للخطاب، وعندما يعاقب الآباء الطفل، مثلا، يمكن تفويض العقاب فى حالة الابتسام عند توجيه الصفعة. وإذا تكررت هذه الرسائل المتناقضة على نحو وسواسى فقد تفضى إلى انهيار الطفل. والحدود الفاصلة بين الحرفى والمجازى لن تتبلور تماما وأى تحرك لحل المسائل لا ينتج عنه سوى المزيد من التشابك والارتباك ومن المعروف جيدا أن المصابين بانفصام الشخصية (الشيذوفرنيا) كثيرا ما يخلطون الحقيقة والافتازيا فى توهماتهم. والمريض الذى يظن أنه المسيح تبو عليه الأعراض النموذجية لهذا المرض.

ويحدث معادل الرباط المزدوج فى قصة ما بعد الحداثة عندما تظهر الشخصيات التاريخية فى قصة واضحة جلية. وقد اعتدنا فكرة الرواية التاريخية التى تظهر فيها شخصيات مشهورة من الماضى وتتصرف بطرق متسقة مع السجلات العمومية التى يمكن التحقق من صحتها. والبديل الشائع هو تقديم رسم تخطيطى "للمناطق المظلمة" فى حياة شخص ما مع الحرص عادة على عدم التناقض بصورة جوهرية مع ما نعرفه فعلا عن هذه الشخصيات. بيد أنه فى كتابه ما بعد الحداثة تتشدد بشدة هذه التناقضات. وهكذا نجد الرواية "The Propheteers" Max Apple (١٩٦٧) أن قطب الموتيل (الفندق) Howaed Johnson يتأمر على والت ديزنى. وفى عمل Christ Preach- Mallarme و Bertie Wooster فإن ing at Henley Regatte Guyawepoit (١٩٨١) فى عمل "Doctorow" Ragtime (١٩٧٥) يقفان على الشاطئ لمشاهدة سباق القوارب. وفى عمل "Coney Island" وتلك مجرد بعض الأمثلة على يعبر فرويد ويونج "نفق الحب" معا إلى الإرباكات العديدة والتشوش، مما نجده فى القصة ما بعد الحداثة.

كتابة ما بعد الحداثة والاضطراب اللغوي

من الملائم المقارنة بين تشوش كتابة ما بعد الحداثة والخبل والعتة. ويستخدم بعض كبار مفكرى ما بعد البنيوية الأفكار المرتبطة بالشيذوفرانيا فى تشخيصهم لمجتمع ما بعد الحداثة. وجان فرانسوا ليوتار مثلاً يستخدم استعارات التشظى والتفتت فى "أحوال ما بعد الحداثة" (١٩٧٩) لكى يفسر تشظى المعرفة باكتظاظ الخطابات غير المناسبة، ويذكر فى "The Ecstaz Communicathion" (١٩٨٣) نحن الآن نعيش فى شكل جديد من الشيذوفرانيا"، ويتحدث جيل ديولوز وفيليكس جاتارى عن التحلل الشيذوفرانى فى Anti Oedipus (١٩٧٧) وعلى الرغم من مصطلحاتهم المستغلقة، فإن كلامهم المنق يقيم معادلة عادية على نحو مدهش بين الانهيار العقلى والوقت المعاصر، وأخيراً فإن الدراسة المطولة التى قدمها فردريك جيمسون السابق الإشارة إليه (١٩٩١) تستخدم الشيذوفرانيا كنظير وشبيه لانهيار البنى الاجتماعية الاقتصادية التقليدية.

ولا يعد هذا الربط المتواتر بين المرض العقلى وانكسارات مجتمع الرأسمالية فى مرحلتها الأخيرة والتجارب اللغوية فى الكتابة المعاصرة عرضياً. ويعتبر الاضطراب المؤقت وانتحال الشخصيات للإرادى للأصوات الأخرى (أو المحاكاة) والتشظى وتفكك الترابط والبارانويا وخلق دوائر مفرغة الأغراض اللغوية للشيذوفرانيا وكذلك سمات قصة ما بعد الحداثة. وفى الانحياز نجد التعارض الأولى بين أنصار الحداثة ودعاة ما بعد الحداثة.

وثمة اعتراض ممكن على الشعور ما بعد الحداثى الذى يؤكد العناصر الأسلوبية، يتمثل فى أن هذه الخصائص ليست منقطعة النظير. فالكتاب الحداثيون من أمثال جيمس وجويس وفرجينيا وولف ومارسيل بروست حاربوا أيضاً تشويهات الزمن السردى والمحاكاة والتشظى وما إلى ذلك وهو ما لا يمكن إنكاره، لكننا نستطيع أن نجادل فى أن الارتباكات التى أحدثتها أعمال مثل يوليس (١٩٢٢) و To the Light house (١٩٢٧) و Remembrance of Things Past (١٩١٣ - ١٩٢٧) كانت لها دوافع مختلفة، وكانت محاولات للمعالجة المثلية (معالجة الداء بدواء يحدث أعراض المرض

نفسها) لحماية الثقافة من فوضى التغيير التكنولوجي وعدم اليقين الأيدلوجي في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وعقب الحرب العالمية الثانية واجه الكتاب وضعاً سماه R.D. Laing بلا أدنى شك "عدم الأمن الوجودي الجذري". ولم يعد مؤلفو ما بعد الحداثة بين ١٩٦٠ و١٩٩٠ يعتقدون بأن القيم الثقافية التقليدية قابلة للاستعادة بعد الهولوكست. وتخلوا ببساطة عن النضال ووجدوا متعة في الهذيان والهلوسة. وتعتبر الآثار الاغترابية لقصصهم عن آثار الاغتراب الواقعة عليهم.

الفصل الثانى عشر

ما بعد الحداثة والموسيقى(*)

ديريك سكوت Derek Secott

لقد بدأ تأثير ما بعد الحداثة على الموسيقى وعلم الموسيقى فى ثمانينيات القرن العشرين عندما بدا واضحا أنه من المطلوب إحداث تغيير فى النموذج المعرفى لكى يمكن العثور على إجابات للمأزق النظرى الذى حدث فى مجالات عديدة.

أولاً: إن فكرة أن جمهور المستمعين لا يفعل أكثر من الاستهلاك السلبي لمنتجات صناعية ثقافية غدت موضع شك وعدم ثقة. ومع ذلك فإن القبول الضمنى لهذه الفكرة يفسر لماذا، مثلا، لم يظهر اسم شارلى باركر عازف سكسفون الجاز(**) الأسطورى

(*) تمت الترجمة لهذا الفصل مع بعض التصرف لكى يكون مفهوما للقارئ العربى، وجرى الاعتماد فى ترجمة المصطلحات الموسيقية على: د. سمحة الخولى، القومية فى موسيقا القرن العشرين، عالم المعرفة - ١٦٢، ١٩٩٢؛ ويوسف السيسى، دعوة إلى الموسيقى، عالم المعرفة - ٤٦، ١٩٨١، وعزيز الشوان، الموسيقى- تعبير نغمى ومنطق، الألف كتاب الثانى، ١٩٨٦، (المترجم).

(**) الجاز كما تقول د. سمحة الخولى 'هو الإضافة الأمريكية الحقيقية، وهو أولا وقبل كل شىء موسيقى الزنوج الأفارقة، وهو ظاهرة اجتماعية فريدة [...] وقد كانت تعبيراً للعبيد المضطهدين القادمين من إفريقيا، ثم تحولت تدريجيا حتى أصبحت منذ مطلع القرن العشرين رمزا لأمريكا كلها بزوجها وبيضها على السواء. وتفاعلت مع الموسيقى الأوروبية الكلاسيكية وأصبحت لهجة موسيقية معترفا بها، ولم يقف فى وجهها الازدراء الذى قوبلت به هذه الموسيقى 'الهمجية' فى أول الأمر'. ص ٢١٢ من كتاب 'القومية فى موسيقا القرن العشرين'. (المترجم).

فى "تارىخ أكسفورد الجدىد للموسىقى" New Oxford History of Music وغباب اسم
Jimi Hendrix عازف جىتار الروك من The New Grove Dictionary of Music and Mu-
sicians وسوف ىجد من ىهتّم بدرس فهرست "تارىخ أكسفورد" اسم Parker وارداً فىه
ولكن المقصود به هو اسم عازف الأرغن والمؤلف الموسيقى Horatio Parker (١٨٦٣ -
١٩١٩). وإعطاء الأولوية لهذا الاسم الأخير له دلالة قىمية واضحة: اعتبار أهمية
هوراسىو الموسيقى أكبر من أهمية شارلى. ومن الجلى اليوم أن الموسيقى الكلاسىكية
تتضمنها ساحة السوق تماماً مثل "البوب" (*) والجاز (ويمكن أن ىصبح المغنون وقادة
الفرق الموسيقى من النجوم الممتازة وحتى مؤلف موسىقى "جاد" مثل Gorecki قد ظهر
فى خريطة السجلات). وفضلا عن هذا فإن المعارضة بين ما هو جاد وخفیف التى
سمحت بتقدیم نظرية ثقافة الجماهير وجد أيضاً أنها تكررت مع الجاز والروك - وعلى
سبیل المثال الجاز "الحقیقى" مقابل فرقة الرقص الموسيقى التجارية، والروك "الأصلى"
مقابل البوب السطحى.

ثانياً: إن شجرة النسب (الجنالوجىة) الموسيقى استلزمت إجراء جراحة فى أغلب
الأحيان: فالاتجاهات التى تربط بين المؤلفین الموسیقى وترسم خريطة المؤثرات
والتطورات الموسیقى قد تعین إعادة رسمها فى أوقات كثيرة للغاية ولس على المرء إلا أن
یمعن النظر فى إعادة التقییم المهمة لكل من مونتفردى (**) Monteverdi وبرلیوز (***)

(*) أصبح اسم "البوب" یطلق منذ أواخر الخمسینیات على الموسيقى غیر الكلاسیكية والفرق الموسیقى التى
تقدم الأغانى بصفة خاصة، مثل البیتلز وولنج ستوفنز، مع الاتجاه إلى استخدام التأثيرات والألوات
الإلكترونية. (المترجم)

(**) مونتفرى (١٥٦٧ - ١٦٤٣): مؤلف موسیقى إیطالى، ومن أشهر المؤلفین فى عصر الباروك الذى امتد من
١٦٠٠ إلى ١٧٥٠ وشهد بداية الأوبرا وازدهارها فى إیطالیا، وتحمل سمات الموسيقى الحرة والانطلاق
والتلقائية والتدفق والثناء فى إمكانيات التعبير؛ فهى موسیقى ذات طابع درامى عنيف وعاطفى، كما یحدد
یوسف السیسی، مرجع سابق ص ٢١٢. (المترجم)

(***) برلیوز (١٨٠٣ - ١٨٦٩): مؤلف موسیقى فرنسى، یدرجه یوسف السیسی فى عداد الاتجاه الرومانسى
الواقعى، له العید من الأعمال الأوبرالية والسیمفونىة لعل أشهرها السیمفونىة الفانتازیة، = وأصبحت
السیمفونىة لده ذات برنامج أو موضوع، وابتداء ما ىسمى بالفكرة الثابتة أى اللحن المیز الواضح الذى
یعد البیدل الرومانسى للقالب الكلاسیكى الرصین. انظر یوسف السیسی، مرجع سابق ص ١٠٠. (المترجم)

Berlioz في الستينيات. ويعمل النموذج الخطى المستقيم على أن يستوعب في طياته وأن يستبعد، فأولئك الذين لا يكون واضحاً أنهم على صلة وارتباط يجرى استبعادهم (مثل Karl Weill و Benjamin Britten) وغدت القضية المرتبطة بتطور الأسلوب الموسيقى موضع تساؤل الآن، ويعتبر عدم الخضوع للسلم الموسيقي المعروف (اللامقامية أو اللاتونالية Atonality) تطوراً أسلوبياً محتملاً، ومن ثم كان ديوك إلينجتون(*) ديناصوراً موسيقياً بكل وضوح.

ثالثاً: أصبح أكثر جلاء إهمال المغزى الاجتماعي للموسيقى، ولا سيما الطريقة التي يحدد بها السياق الثقافي غالباً مشروعية أساليب العزف والغناء، وأن العوامل الاجتماعية المتغيرة تعدل استجابتنا للأعمال الموجودة. وعلى سبيل المثال هل نفضل سماع(**) John Lee Hooker في أدائه لعمل بوتشيني(***) Nessum Dorma على غناء لوشيانو بافاروتي(****) "Chicago Bar Bpues" Lpavarotti.

ورابعاً: يتعين درس تأثير التكنولوجيا ولا سيما التأثير الناتج عن تقنية تشفير الموسيقى رقمياً وإعادة استخدامها (Sampling) وإعادة المزج على مفهوم المؤلف الموسيقى كمعقولة مبدعة.

وقصلاً عن هذا فإن الطلبة الذين ترعرعوا إبان ثورة الروك قد نزعوا إلى اعتبار الميول الحداثية لأقسام الموسيقى الجامعية أرثوذكسية جديدة. وربما ما زال أكثر إزعاجاً أنه أصبح معتاداً لمعلمي التأليف الموسيقي أن يجدوا طلبة يؤلفون بشغف نوعاً من الموسيقى دون أن يحلموا أبداً بالذهاب فعلاً إلى قاعة حفلات موسيقى من أجل الاستماع. وتمثلت العوامل الأخرى المتصلة بالوضع الراهن في صعود حفلات الآلات الموسيقية التاريخية مما يجعل الموسيقى القديمة تبدو جديدة (واستعاضة بلا جدال عن الجديد) والعبور بين الأساليب الموسيقية المتميزة "الكلاسيكية" و"الشعبية" عن طريق زيادة عدد المؤدين والمؤلفين الموسيقيين.

(*) ديوك إلينجتون (١٨٩٩ - ١٩٧٤): من أشهر العازفين الأمريكيين لموسيقى الجاز فضلاً عن شهرته كمغني بيانو. (المترجم)

(**) جون لي هوكر (مولود في ١٩١٧): عازف جيتار أمريكي ومغني البلوز Blues. اعتبر أسطورة حية لهذه الأغاني. (المترجم)

(***) بوتشيني (١٨٥٥ - ١٩٢٤): مؤلف موسيقى إيطالي من أشهر أعماله الأوبرالية "البوهيمية" (١٨٩٦) وتوسكا (١٩٠٠) ومدام بترفلاي (١٩٠٤). (المترجم)

(****) لوشيانو بافاروتي (مولود في ١٩٢٥): مغني تينور إيطالي، اكتسب شهرة عالمية واسعة واشترك في تقديم العديد من الأوبرات، وخاصة "البوهيمية" التي حققت له سعة الانتشار. (المترجم)

وترتيباً على ذلك أصبح الوقت ناضجاً لكي تقدم ما بعد الحداثة عمقا نظريا جديدا. ستجرى مناقشته فيما يلي في نطاق عدد من العناوين الرئيسية التي لا يتعين أن تعتبر ممثلة لترتيب هرمي معين.

تحدى الفن من أجل الفن

لقد استطاعت ما بعد الحداثة عن أفكار الكونية والنزعة الدولية والفن من أجل الفن وأحلت محلها بقيم الثقافات المعينة واختلافاتها. وقد ثبت أن "الفن من أجل الفن"، مبدأ القرن التاسع عشر الذي ولده النفور من عملية التصنيع، يعد عقبة كؤود لإنتاج موسيقى ترضى احتياجات اجتماعية واسعة الانتشار. والحق أنه في الوقت الذي كان يؤلف فيه ديبوسي^(*) Debussy كان من الشائع الموقف النخبوي الذي يرى أن "الفن" غير نافع "للجماهير". بيد أنه مع حلول الثمانينيات من القرن العشرين تزايد الاهتمام باكتشاف التواطؤ بين الفن والترفيه بدلا من التحدث عن التعارض بين هذين المصطلحين. وفيما بين الطبقات المتوسطة و"المتقفة" - وفي وسط الموسيقيين "الجادين" - ابتعد الاهتمام كثيرا عن الثقافة الرفيعة واتجه إلى الثقافة الشعبية. ولم يعد ملحا مناقشة ما إذا كان Boulez^(**) أو Cage^(***) أو Tippett^(****) وفي طليعة "الثقافة

(*) ديبوسي (١٨٦٢ - ١٩١٨): مؤلف وناقد موسيقى سعى إلى ترجمة أفكار الفن الانطباعي (التأثير والشعر الرمزي) إلى المجال الموسيقي. (المترجم)

(**) بولز Boulez (مولود في ١٩٢٥): مؤلف موسيقى وقائد فرقة موسيقية، اهتم بما يسمى الموسيقى غير التقليدية (Serialism) التي ولدت في الربع الأول من القرن العشرين، وكذلك بالموسيقى التي تتضمن عناصر الاختيار العفوي (aleatory) مع الاستعانة بتقنيات الكمبيوتر، واستخدام الآلات التقليدية والإلكترونية في الوقت نفسه. (المترجم)

(***) كيج Cage (١٩١٢ - ١٩٩٢) مؤلف موسيقى وعازف بيانو أمريكي، اتسم بالنهج التجريبي واستخدام الموسيقى العفوية (aleatory) وفترات الصمت والآلات الإلكترونية، كما أنه توغل في التعبير الفلسفي والاتجاه النفسي للموسيقى الأسبوسة محاولا أن ينقل إلى الموسيقى العواطف الدائمة المرتبطة بالموسيقى الهندية. (المترجم)

(****) تيبث Tippett (١٩٠٥ - ١٩٩٨) : مؤلف موسيقى بريطاني، اشتهر باستخدام الجاز والموسيقى الموسوعة لقصائد غزلية (Madrigals) إلى جانب المصادر الكلاسيكية، وألف خمس أوبرات وأربع سيمفونيات والكثير من موسيقى الأغاني. (المترجم)

الرفيعة ما دام أولئك الذين يسلكون الطريق العام السريع قد تلحق بهم ويتجاوزهم أولئك الذين يسلكون الطرق الضيقة، على حد ما جاء في إحدى الأغاني. وفضلا عن هذا ومنذ ستينيات القرن العشرين فقد وجد تشابه ملحوظ في تقنيات التسويق المستخدمة في الذخيرة الكلاسيكية وموسيقى البوب.

إن التعارض بين الفن مقابل الترفيه هو ادعاء من نظرية ثقافة الجماهير، ويمكن اعتباره تعارضا أخلاقيا أكثر من كونه تعارضا جماليا. وإذا أخذنا أمثلة من عمل كبار الشخصيات في التراث الموسيقى الكلاسيكي فيمكن الإشارة إلى أن موتسارت (Mozart) تخطى عن كونشرتو الفلوت (النأى) في منتصف التأليف لأن القوميسير أخفق في الوضع بالكامل؛ المؤلف نفسه أقنعه متعهد حفلات موسيقية بأن يغير حركة في سيمفونيته المسماة السيمفونية الباريسية، كما أن أحد الناشرين هو الذي أقنع بتوهون بأن يستعيز عن اللحن الختامي في رباعيته الوترية (B Flat) بلحن أكثر تقليدية. واليوم فإن ميشيل نيومان Michael Nyman^(*) لم يأنه بئى ارتباط بالأعمال التجارية التي تعرض نزاهته الفنية للشبهة: فقد طلبت منه MGTV الاحتفال بافتتاح القطار السريع بين باريس وليل Lille كما أن شركة مازدا في بريطانيا طلبت منه كونشرتو في ١٩٩٧ .

انهيار الرفيع والموضع: المعابر والأنواع الجديدة

لقد تزايد "العبر بين الثقافة "الجادة" والثقافة "الشعبية" منذ أواخر الخمسينيات. ومن أمثلة ذلك اتساع تأثير "البوب" في السجلات الصوتية للأفلام: ففي الأربعينيات غزا Flash Gordon الكون، حتى موسيقى ليست (Liszt) ، وفي فنانة الأداء لاورى أندرسون Lawrie Anderson^(**) أحرزت نجاحا ملحوظا في عبورها الأنواع في Osuperman. وفي السنوات الأخيرة فإن عازف الكمان Nigel Kennedy جرب موسيقى الروك بينما

(*) (مولود في ١٩٤٤) مؤلف موسيقى بريطاني وناقد موسيقى اشتهر بموسيقاه للأفلام وأنخرط ضمن التيار الموسيقى ما بعد الحدائى المسمى Minimalism الذى يتميز بتكرار العبارات الموسيقية القصيرة للغاية والمتغيرة بسرعة بما حدث تنويميا. (المترجم)

(**) (المولودة في ١٩٤٧) : من فنانى ما بعد الحدائى. ويصعب تصنيفها لأنها سعت إلى إزالة الحواجز بين الفن والموسيقى والأداء وبين الحرفة والتكنولوجيا، والعمل الطليعى والعمل التجارى. (المترجم)

عزف Eric Clapton عازف الجيتار (Blues) كونسرتو الجيتار الإلكتروني. كما أن المغنين في الأوبرا من نوع Kiri Te Kamawa و Placido Domingo قد دخلوا إلى الساحة الشعبية.

ويصعب حالياً تصنيف بعض الأعمال مثل سيمفونيات^(*) Philip Glass (Low Heroes) (وقد اعتمدت على ألبيومات أنتجها في السبعينيات كل من David Bowie و Brain Eno و Hil- Ensemble و Terror and Magnificence) من وضع John Harle. وفي موازاة هذا، ثمة اتجاه لدى المؤلفين الموسيقيين المعاصرين لتسمية مجموعاتهم الموسيقية bands (فرقة موسيقية) (John Harle Band ، Steve Martland Band ، Poul Rabin- son's Hormanian Band).

نهاية السرديات (النظريات) الكبرى

اعتبر الحداثيون باستمرار أن الأعمال أو المؤلفات تشير على نحو مسبق إلى الآخرين أو الغير، بما يدعم الإحساس بالتقدم الإرادي للفن. ولكن هل يمكن القول حقاً إن (Tristan und Loopde دراما موسيقية لفاجنر) تشير مسبقاً إلى التطورات المفاجئة والسريعة لعامي ١٩٠٨ و ١٩٠٩ وكذلك Elekrra لريتشارد شترويس و Erwartung لشونبرج^(**) Schoenberg؟ وإذا كانت فجوة ٥٠ سنة ممكنة فلماذا لا

(**) مولود في ١٩٢٧) مؤلف موسيقى لعب دوراً أساسياً في تطوير الموسيقى Minimalist وقد حال عدم

الحواجز بين ما يسمى الفن "الرفيع" والفن "المنحط أو الوضعي". (المترجم)

(**) شونبرج (١٨٧٤ - ١٩٥٩). مؤلف موسيقى ولد في النمسا وعمل أستاذاً للموسيقى في فيينا برلين ثم هاجر إلى الولايات المتحدة مع صعود النازية في ١٩٣٣ ولم يلتزم بالخضوع للسلم الموسيقي Atonality وحاول وضع القواعد والأسس لما أطلق عليه اسم Serialism التي استغنت عن اللحن المميز والتوافق الموسيقي والإيقاع (انقطاع الوترية) والنسق النغمي، واعتمدت على تنظيم أحد البارامترات الموسيقية - درجة النغم ومدته ومستواه الديناميكي - في سلسلة ثابتة ومكررة خلال العمل كله. (المترجم)

يتم التسليم بفجوة ٣٠٠ سنة وقبول فكرة أن Gesualdo (*) أشار مسبقاً إلى ديبوسى Debussy والمشكلة الأساسية بالنسبة إلى الحداثة التى تحتذى خطوطاً مستقيمة هو أنه بينما يبدو أن بيتهوفن وفاجنر يواصلان السير على نهج "التقدم" الطورى فى موسيقاهما، فإن الكثير من الحداثيين الذين لا عيب فيهم خلافاً لذلك، مثل ديبوسى وشونبرج، لم يكونوا كذلك. وما هو أكثر، فإن المؤلفين الموسيقيين الحداثيين لا يمكن حتى الاعتماد عليهم فى أنواقهم. فقد أعجب ديبوسى بجونو Gounod (***) وريتشارد شتراوس (****) ولم يكن كذلك شونبرج، وأعجب سترافنسكى (*****) بغير Weber وتشايكوفسكى (*****). لكنه مقت فاجنر (*****).

(*) أمير إيطالى اشتهر بعزفه على الناي، وحظي بشهرة موسيقية واسعة فى عصره. (المترجم)
(**) مؤلف موسيقى وقائد فرقة موسيقية وعازف بيانو وأرغن. من أشهر أعماله أوبرا فاوست، روميو وجوليت. (المترجم)

(*** شتراوس (١٨٦٤ - ١٩٤٩): مؤلف موسيقى ألماني يعتبر آخر المؤلفين الرومانسيين الألمان. (المترجم)
(**** سترافنسكى (١٨٨٢ - ١٩٧١): مؤلف موسيقى ولد فى روسيا وأقام فى الولايات المتحدة منذ ١٩٣٩. وترى د. سمحة الخولى أنه أسهم فى تشكيل لغة موسيقى القرن العشرين وجماليتها. وقد اشتهر بالتحويلات العديدة فى أسلوبه، إلا أن تحولاته الأسلوبية جاءت مفاجأة كبيرة، فمُنذ عام ١٩٥١ بدأ يطرح الأسلوب الديانوتى وتبنى نظام صفوف الأصوات "Serial" وتستطرد قائلة إن سترافنسكى ملون واسع الخيال نجح فى خلق أجواء وإيقاعات شائقة بالكتابة فى مناطق غير مطروقة فى الآلات الأوركسترالية. أما أسلوبه فى مزج الألوان الصوتية فهو من أعظم وسائله التعبيرية التى وسعت نطاق اللون. وهو لا يقتصر على الأوركسترا التقليدي بل يبتكر لنفسه مجموعات طريفة من الآلات، ويهذه الإضافات الطريفة للفكر الإيقاعى والهارمونى والبناء والتلون قلب معايير الموسيقى خلال بحثه الدائب وجاء اختيار الزمن مؤكداً لأثره العميق فى بث الحيوية فى الموسيقى الغربية بما أدخله إليه من قيم موسيقية وتعبيرية استمد جوهرها من الموسيقى الروسية. (ص ١٣٩ - ١٦٠، مرجع سابق). (المترجم)

(*****) فيبر (١٨٨٦ - ١٩٢٦) مؤلف موسيقى ألماني يعتبر مؤسس المدرسة الرومانسية الألمانية فى مجال الأوبرا، ويرى يوسف السيسى أن "العصر الرومانتيكى يضم أشهر وأعظم مؤلفى التراث الموسيقى بوفرة لا يتمتع بها عصر آخر" وشمل أعمال عظماء من أمثال بيتهوفن وبرامز وشومان وشوبان وتشايكوفسكى وليست وفاجنر ومئات غيرهم من العمالقة الذين عبروا عن نماذج لشتى أحاسيس البشر (ص ٢٢٣، مرجع سابق). (المترجم)

(*****) تشايكوفسكى (١٨٤٠ - ١٨٩٢): مؤلف موسيقى روسى، يعتبره يوسف السيسى أحد أئمة التأليف الموسيقى عبر التاريخ... وهو منبع نادر للخصوبة اللحنية والتعبير القوي الأخاذ. وقد خلف للبشرية أعمالاً رائعة من أهمها سبع سيمفونيات وأربعة أعمال فى قالب الكونشرتو وثلاثة للبيانو وروائع من موسيقى البالية والأوبرا والكورال... إلخ (مرجع سابق). (المترجم)

(*****) فاجنر (١٨١٣ - ١٨٨٢)، قد لا تحتاج عبقريته إلى تعليق، يكفى أن نقبض هذه الفقرة من تعليق يوسف السيسى: "فنى شخصيته النادرة، تتبلور عناصر التعبير الموسيقى المسرحى التى أدت إليها الحركة الرومانتيكية بألمانيا، كما احتوت عبقريته التطور الموسيقى الذى خلفه بيتهوفن فضلاً عن الأساطير والقلسة الجرمانية التى تطابقت مع فكره وأحاسيسه، وعكست موسيقاه عناصر القوة والعاطفة الحادة المنطرفة" (مرجع سابق، ص ١٢٢). (المترجم)

تمثلت النظرية الكبرى المهيمنة فى مجال الحداثة الموسيقية فى تطور النسق النغمى وتحليله. وزعم شونبرج أن اتجاه Serialism ولدته الضرورة. ومع ذلك فإن هذه الضرورة ولدتها مجموعة من الافتراضات الثقافية المعينة. ويمكن استخدام البيانات التجريبية لتبيان أن التغير من النسق النغمى الممتد إلى عدم الخضوع للسلم الموسيقى المعروف (اللامقامية) هو تطور، لكنه يمكن أن يدل أيضا على أنه طفرة كيفية، وقد أفضى الاعتقاد بالضرورة التاريخية لعدم الخضوع للسلم الموسيقى إلى التفاضى عن مجالات كثيرة من تاريخ موسيقى القرن العشرين مثل أهمية فيينا لهوليوود (Korngold)^(*) أو تشينى "لجيل ثمانينيات القرن التاسع عشر فى إيطاليا" وربما كان أسوأ ما فى الأمر هو التفاضى التام تقريبا عن موسيقى الجاز.

وما زال تفكير BBC يستلهم الأساليب السردية الحداثية: الإعجاب بالمؤلفين الموسيقيين "المتطلعين إلى المستقبل"، والموسيقى المؤمنة بالتطور والتقدم هى جزء من المتاع المتروك من السنوات التى سيطر فيها سير وليام جلوك على إنتاج البرنامج الثالث، لكنه - مع ذلك - يوهن عزيمة أى شخص برفض تام لذلك النموذج النظرى كما لو أن حجج ما بعد البنيوية والتفكيكية وما بعد الحداثة وقعت على أذان صماء. ويشعر Nyman أن المؤسسة الموسيقية أعرضت عنهن كما يشهد على ذلك التفاضى عن موسيقاه من قبل BBC Radio وانعدام اللجان لحفلاته الموسيقية.

ومن الخطأ الاعتقاد بأن الأسلوب "المجازف" يستلزم مهارة تلحينية أكبر من الأسلوب "البسيط والمباشر"، ومثل هذا الموقف يساعد فقط على تقديم برهان سهل، مثلا، على أن Birtwistle^(**) لابد أن يكون أفضل من Part^(***) وكمعيار للقيمة الموسيقية فإن الأمر المهم هو علاقة الأسلوب بالفكرة.

(*) (١٩٨٧ - ١٩٥٧) : مؤلف موسيقى ولد فى فيينا وتوفى فى الولايات المتحدة، ألف العديد من موسيقى

الأفلام للسينما الهوليوودية بالإضافة إلى الأوبرات والسيمفونيات. (المترجم)

(**) مؤلف موسيقى وعازف كلارينيت بريطانى مولود فى ١٩٢٤، تأثر فى أفعاله الأولى بموسيقى سترافنسكى وخاصة موسيقى Serial ثم اتجه إلى التجريب الموسيقى. (المترجم)

(***) يبدو أن المقصود هنا هو العزف المنفرد لآلة من النوع نفسه أو لأحد الفنانين فى عمل جماعى. (المترجم)

السياق الاجتماعي الثقافي يحل محل الاستقلال الذاتي

لقد شددت التفسيرات الرومانسية والحداثية للتاريخ الموسيقي على القيم الشكلية والتقنية والجدة و"الحركات" التلحينية. وكان التركيز على التلحين أو التأليف الموسيقي نفسه ومكانته في عملية موسيقية مستقلة بذاتها. ومثال شهير عن كيف يمكن تفسير حياة وموسيقى موتسارت (Mozart) من خلال هذه القراءة للتاريخ قدمها Peter Shaffer في Amadeus حيث يعتبر الفن انعكاسا للحياة؛ فالفن كمال والفنان كثير الرؤى، وإن القضايا الاجتماعية والسياسية تتحى جانبا (وموتسارت، بصفته عضواً في جمعية Illuminati^(*) الجمهورية على ما يبدو، قال إنه غير مهتم بالسياسة، واعتبر "النأي السحري" برسائله الماسونية بمثابة فودفيل (مسرحية هزلية)) ومن السهل للغاية عند تكوين تاريخ ممارسة ثقافية افتراض أن شخصا ما يتعامل مع الحقائق لا مع تفسيرها.

وقد أوضح رايموند وليامز كيفية تحديد الاتجاهات والخطوط التي تربط ما بين الأسلاف في نطاق موروث ثقافي، بيد أنه مع مرور الزمن فإن بعض الاتجاهات تضعف وبعضها الآخر ينمحي وتتحدد اتجاهات جديدة. وفي مستهل القرن العشرين فإن شهرة جونو Gounod وسيوهر Spohr^(**) وبوديت Borodin^(***) كانت في القمة، لكنها لمتعد كذلك. ومنذ ستينيات القرن العشرين فإن الخيوط التي تربط بين جوسكوين Josquin^(****) و Monteverdi قد تقوّت، وفي السبعينيات من ذلك القرن فإن

(*) جمعية سرية بافاريا تأسست في ١٧٧٦ (المترجم)

(**) مؤلف موسيقى ألماني. يعتبر من أعظم عازفي الكمان كما يعد من تلاميذ موتسارت. له العديد من الأعمال الموسيقية. (المترجم)

(***) مؤلف موسيقى روسي، اشتهر بتلحينه أوبرا الأمير إيغور Prince Igor التي استكملها بعد وفاة ريمسكي كورساكوف. (المترجم)

(****) موسيقى فلمنكي يعد من قادة موسيقى عصر النهضة. (المترجم)

أنصار موسيقى الحداثة الإلكترونية وعلى رأسهم Ives (*) وIvarese (**) قد دخلوا إلى هذا المجال انطلاقاً من الهوامش عقب إخفاق محاولات تأسيس ممارسة مشتركة في الموسيقى ذات النزعة الشاملة (Serialism نظام صفوف الأصوات) (محاولة لفرض النظام على طول وارتفاع النغمات الموسيقية (النوتات)) وكذلك درجة النغم، مما مكن الولايات المتحدة من أن تحتل مكانتها في تاريخ الحداثة، منذ أن أمكن استخدام خط مستمد من Varese حتى Cowell (***) وCofe لتوضيح الارتياح الجذري تدريجياً للألوان الصوتية.

ويعمل النموذج الخطي المستقيم على خلق شخصيات مقدسة وتهميش آخرين وتنطوي مجموع القواعد والقوانين المتبعة على تطور ثقافي مستقل بذاته، وأولئك الذين يخفقون في المشاركة في ذلك التطور المعين أو أولئك الذين ينشدون بدائل أخرى يجري تهميشهم، كما كان الأمر مع Eisler وKarngold (****) لرفضهما النزعة الحداثية. إن النموذج الخطي المستقيم هو وسيلة للدفاع عن ثقافة أصلية وحيدة. لكن هذا يتطلب ممارسة عامة قد وأخفقت في إرساء مثل هذه الممارسة.

(*) أيفز (١٨٧٤ - ١٩٥٤): مؤلف موسيقى أمريكي، اشتهر بتحديداته الموسيقية. وترى د. سمحة الخولي أن أيفز 'هو أول من ارتاد طرقاً مجهولة وعرة نحو موسيقى أمريكية حقة. وهو رجل أعمال بالهنية ومؤلف موسيقى بالهوية. وقد توصل وحده بنهوء لاكتشافات خطيرة قبل أن يتوصل إليها سترافنسكي وشونبيرج، كالهارمونيائات المركبة وازدواجية المقامات (البليتونالية) وكلاهما يمزج هارمونيائات مختلفة المقامات لتسمع معا في أن واحد مما ينتج تناغراً واضحاً مثل الأتونالية - Atonality إلغاء المحور التونالي - ومثل الإيقاعات المركبة المتداخلة وثلاث أرباع الأصوات' (مرجع سابق ص ٢١٨). (المترجم)

(**) فاريز (١٨٨٣ - ١٩٦٥): مؤلف موسيقى فلانسي أمريكي من أشد المجريين في الموسيقى تحراً وجرأة. كتب موسيقى إلكترونية وموسيقى مسبقة التسجيل، واهتم فاريز باستعارة الفكر الموسيقي الآسيوي في جانب من جوانبه المتعددة، فاهتم بالتعبير من خلال التركيبات الصوتية بدلاً من الخطوط اللحنية المفردة، والمكونات الدقيقة للحن بدلاً من الحركة اللحنية المتدفقة (السيسي، مرجع سابق ص ٢٨٩). (المترجم)

(***) (١٨٩٧ - ١٩٦٥): مؤلف موسيقى أمريكي من أشهر رواد الحركة الطليعية، بدأ العزف في سن الثالثة والتأليف في العادية عشرة من عمره. تولى تدريس مادة الموسيقى في جامعة كولومبيا، ومن تلامذته Cage. اهتم بالمزج بين الثقافات الموسيقية المختلفة وسعى إلى البحث عن مصادر موسيقية مهمة في الموسيقى الشرقية وخاصة الإيرانية. (المترجم)

(****) (١٨٩٨ - ١٩٦٤): مؤلف موسيقى ألماني يعد تلميذاً لشونبيرج. قادته معتقداته الماركسية إلى أن يكون نصيراً للفن المتزعم، معارضاً الفن من أجل الفن وداعياً إلى أن تعبر الموسيقى عن المشاكل السياسية والاجتماعية؛ ولذا اتجه إلى الأسلوب الشعبي وتعاون مع المؤلف المسرحي الشهير برتولد بريخت. عرف المنفى بعد عام ١٩٣٣ فذهب إلى باريس ولندن وكوبنهاغن ثم استقر في هوليوود في ١٩٣٨، حيث مارس التدريس في جامعة كاليفورنيا. (المترجم)

ولا يمكن للجماليات أن تنفصل بسهولة وعلى نحو دائم عن المفردى الاجتماعى. وهل يستطيع أحد أن يستمع إلى تلك التسجيلات القديمة لـ Castrati الذى عاش حتى القرن العشرين بحساسية جمالية غير مكترثة بمعرفة أن هؤلاء المغنيين كانوا من الأطفال المشوهين؟ إن العوامل الاجتماعية تؤثر على استجابتنا الموسيقية بطرق متباينة. فالاهتمام الفرنسى بعدم وجود تراث أوبرالى، مما أدى إلى اكتشاف أوبرا Rameau (*) المسماة Hippoluteat Aricie فى أوائل القرن العشرين، تطور فى سياق نزعة قومية نتجت عن هزيمة سياسية.

كما تؤثر العوامل الاجتماعية المتغيرة على استجابتنا لأعمال كان يمكن أن تثير من قبل ريدو أفعال مختلفة كلية: وأوبرا Cosi Fan Tutt (**) ليست هى نفسها بعد التأثير الثقافى للحركة النسائية فى سبعينيات القرن العشرين، وغدت Peter Grimes (***) لإشكالية بسبب الاهتمام المتزايد بإساءة استعمال الأطفال الذى تطور فى الثمانينيات (ولم نعد على استعداد لقبول Grimes كمثال معذب).

نهاية «الأسلوب الدولى»

إن الاعتقاد بجماليات عالمية وأن الموسيقى الفنية تتجاوز السياق الاجتماعى والثقافى، يمكن وراء التطلعات ذات النزعة الدولية للحدث. وإن شونبرج بعد أن طور أسلوبه الذى لا يخضع للسلم الموسيقى أعرب عن إيمانه بهذا الأسلوب على نحو

(*) (١٦٨٣ - ١٤٦٤) : من كبار الموسيقيين الفرنسيين اعتبر من مجددي الأوبرا الكلاسيكية الفرنسية، ألف أكثر من عشرين أوبرا، فضلا عن عدة كتب نظرية مهمة. (المترجم)

(**) أوبرا لوتسارت «النساء كلهن سواء» عرضت فى فيينا للمرة الأولى عام ١٧٩٠، ويعتبرها بعض النقاد من أعظم إنتاج هذا الفنان الكبير. (المترجم)

(***) أولى أوبرات المؤلف البريطانى B. Brutten (١٩١٣ - ١٩٧٦) الذى يعد من ألمع المؤلفين البريطانيين، عازف بيانو وقائد أوركسترا ومؤسس الأوبرا الإنجليزية الحديثة. وقد نجحت هذه الأوبرا بتصويرها للعزلة النفسية لنجار سودارى المزاج. (المترجم)

واضح فى ١٩١٠، وإنه بحلول عام ١٩٢٠ يمكن لأى مؤلف موسيقى موهوب أن يؤلف بهذه الطريقة. ونزعة الحداثة لم تكن أبدا ذات نزعة دولية بمعنى تعددى، ولكن بمعنى وجود ثقافة وحيدة وقيم كونية شاملة. وبدا أن المؤلفين الموسيقيين من قوميات مختلفة وموروثات ثقافية يتجهون صوب الغاية نفسها، أى تلك التى تستوعب عادة الموسيقى الاثنى عشرية (نظام ال ١٢ تون).

إن طموحات الموسيقى الحداثية فى سبيل النزعة الدولية قد تجاوزتها موسيقى البوب (Pop) التى أصبحت فعلا أسلوبا دوليا أكثر قبولا على نطاق واسع، ولا يمكن فصل التاريخ الاجتماعى لعصرنا عن موسيقى البوب، لدرجة أنه يمكن القول، من حيث تقدير المغزى الاجتماعى، إن موسيقى البلوز Blues (*) أهم - بالنسبة إلى موسيقى القرن العشرين - من موسيقى الحداثة التى طورها شونبرج ذات صفوف الأصوات الاثنى عشرية (**).

واليوم، وبعد كل الجهود التى بذلها الموسيقيون الإثنولوجيون (***) قد يبدو من المستحيل تقادى استخلاص أن الموسيقى لم تعد أكثر دولية من الأشكال الأخرى من التعبير الثقافى. وقد أفضى قبول الطموحات الدولية للنزعة الحداثى إلى تشويهات وتناقضات فى كيفية تفسير التاريخ الموسيقى. وعلى سبيل المثال فإن الوضع الهزيل المفترض للموسيقى الإنجليزية إبان النصف الأول من القرن العشرين قد وصم بالانعزالية، مع ذلك فإن الانبعاث الموسيقى الإنجليزى فى نهاية القرن التاسع عشر نُسب عادة إلى قبول المؤلفين الموسيقيين للإتجاه الإنجليزى بدلا من الإتجاه الألماني.

(*) موسيقى البلوز أو أغاني الأسى: تراث زنجى أصيل من الأغاني الحزينة الباكية تضم العويل والصراخ والاحتجاج، وقد سبقت موسيقى الجاز من الناحية التاريخية (د. سمحة الخولى). (المترجم)

(**) وهى الموسيقى التى طورها شونبرج وتسمى الوديكافونية Dodecacaphony التى تلغى المحرر السلمى لتستبدل به صفوفا من الأصوات الاثنى عشرية. (المترجم)

(***) الموسيقيون المهمتون بدراسات ثقافات وموسيقا الشعوب الأخرى وخاصة الشعوب غير العربية. (المترجم)

النسبية تحل محل العالمية

لقد اضطرت النزعة الحداثية في كثير من الأحيان، في محاولتها الدفاع عن ثقافة عالمية، إلى مهاجمة النزعة الإقليمية بوصفها محدودة ضيقة النظر، والنزعة القومية باعتبارها شوفينية، والموسيقى الشعبية كترفيه وليست كفن، والموسيقى الإثنية (الشعبية) بوصفها بدائية أو "ثقافة الجيتو". ويقبل بديل ما بعد الحداثة أننا نعيش في عصر النسبية الثقافية، وقد استمد هذا المنظور من الأنثروبولوجيا ويعد مفتاح التفسير السوسيولوجي للموسيقى في ثمانينيات القرن العشرين. وكانت الحجة القائلة إن القيم الثقافية يمكن تحديد موضعها تاريخيا مألوفة فعلا واتسع نطاقها بالتسليم بأن الدلالة يمكن أيضا تحديد موضعها اجتماعيا، والفكرة الأخيرة دعمت الحجة الأساسية في مواجهة ثقافة الجماهير: فذلك المعنى الذي يتكون في أثناء عملية الاستهلاك - الاستهلاك ليس سلبيا بكل بساطة.

الأساليب كشفرات استطرادية(*) Discursive Codes

خلافًا لرأى سترافينسكي القائل إن الحيل أو الأدوات التعبيرية يحددها العرف أو التقليد في نطاق ممارسة موسيقية مستقلة بذاتها فإنها - أي هذه الأدوات - تحدد كتقاليد أو أعراف من خلال اجتماعية ويمكن أن تكون متصلة بالتغيرات الاجتماعية، وليس المعاني الموسيقية علامات مميزة أو بطاقات تلصق بشكل متعسف تحكمى على أصوات مجردة؛ فهذه الأصوات ومعانيها تنشأ أصلا في نطاق عملية اجتماعية وتحقق دلالتها ضمن سياق اجتماعي معين، فالسوال الموسيقي تتطور في ارتباط بالمجتمع. ولا تستخدم افتتاحية Vlvian Ellis في Cornation Scot أى تقنية موسيقية أو مفردات متنافرة كان يمكن أن تدهش بيتهوفن، ومع ذلك لا معنى لها ما لم يكن المرء على ألفة

(*) يشير د. محمد عناني في مصطلحاته إلى أن فوكو استخدم تعبير Discursive Formation بطريقة توحى بأنه يمكن أن تعنى تقريبا ما يعينه الخطاب إذ إن Discursive هنا تستعمل صفة Discourse لا بمعناها المألوف أى باعتبارها صفة من "اللف والدوران". ولهذا فإنه يترجم Discursive Practices بممارسات الخطاب و Discursive Strategies باستراتيجيات الخطاب (مرجع سابق). (المترجم)

بصوت قطار البخار منطلقا في سرعته. وما كان من الممكن كتابة هذا العمل قبل مجيء القاطرة البخارية. وكيف أن يكون بالفعل بيانو Boogie-Woogie (المستخدم في موسيقى البلوز Blues) أو معظم الأسلوب المميز لهارمونيكا الـ Blues دون القطارات.

ويمكن لفترة شونبرج المتحررة من الخضوع للسلم لموسيقى المعروف (اللامقامية أو اللاتونالية) أن ترتبط بالعلم الجديد للتحليل النفسي والبحوث الفرويدية في مجال الأبعاد الباطنية للنفس الإنسانية. وقد جسد الفنانون التعبيريون القوة المفترضة للموسيقى في قدرتها على التعبير عن الحياة الداخلية للمؤلف الموسيقي. وكما أن كاندينسكي^(*) تحدث عن "الضرورة الباطنية" فإن شونبرج وضع ثقته في "منطق اللاوعي أو العقل الباطن"؛ ومع ذلك، إذا كان عدم الخضوع للسلم الموسيقي المعروف محتما من الناحية التاريخية فإن هذه الثقة كانت لازمة تمثل بما كانت مادة حفازة لكي يتبنى لغة موسيقية جديدة. ومع ذلك فقد يبدو غريبا أن تطوير لغة متطرفة في السلم الموسيقي الملون (الكروماتية - Chromatic) ^(**) يمكن أن يكون قد توافق عن طريق الصدفة مع الاهتمام ذي النزعة التعبيرية بالحالات العاطفية القصوى.

وفي الوقت نفسه من المهم الاعتراف بأن شفرات الأسلوب قد تطورت من تجمد التقاليد والأعراف، وأنها تتطوى على قسما تقنية وعلى معان مكونة اجتماعيا.

وعلى الرغم من أن شفرات الأسلوب يجوز أن تخضع لمزيد من التطور والتغيير فإن ذلك لا يتحقق بقطع أو نفى أو معارضة أهم صفاتها المحددة لها. والمشكلة الموسيقية "موسيقى الفن" الأوروبية بسبب التعارضات الجمالية الأساسية. والمعايير المحددة لماهية الأسلوب الجمالي أو "المشروع" للغناء أو العزف في مجال موسيقى الجاز، مثلا، كانت على خلاف مع المعايير السائدة في "موسيقى الفن"، ويمكن ربط الغناء الأوبرالي الكلاسيكي بالمعايير والتقنيات الآلية لجمال الإنتاج النغمي في نطاق ذلك الأسلوب. وموسيقى الجاز لها مداها الخاص من التقنيات الصوتية المرتبطة بها،

(*) كاندينسكي Kandinsky رسام روسي، من كبار المنظرين للفن التجريبي والتعبير عن المشاعر الباطنية العميقة، اشترك عام ١٩١١ في تأسيس مجموعة الفنانين التي سُميت Blaue Reiter في ميونخ. (المترجم)

(**) السلم الموسيقي التقليدي المكون من ١٢ صوتا. (المترجم)

ومعظمها لا يوجد فى الموسيقى الكلاسيكية مثل الارتجال الصوتى المصاحب للموسيقى والدمدمة - وما إلى ذلك - ويمكن ربطها بالتقنيات الآلية فى نطاق ذلك الأسلوب، وإن وجود شفرات أسلوبية موسيقية متميزة فى القرن التاسع عشر قد اتضحت فى التعارض بين الأسلوب الفييني لبيتهوفن الألحان الإسكتلندية التى أعاد توزرعها.

ويمكن استخدام شفرة أسلوبية أكثر تميزا مسماه Piobaireachd موسيقى القرب bagpipe التى نشأت بين الجماعات الغيلية Gaelic القاطنة الجزر والمرتفعات الإسكتلندية؛ لتوضيح الكيفية التى يعتمد بها المعنى على السياق الاجتماعى -الثقافى وليس على الحيل الموسيقية المقبولة عالميا. وقد حمل البعد ثلاثى النغمات Tritone فى الموسيقى الكرب الانتفعالى إلى سكان البندقية فى القرن السابع عشر، كما نعلم من القصائد الغنائية (Madrigal) والأوبرات، ومع ذلك فمن الواضح أنها لم تحمل هذا المعنى لسكان المرتفعات الإسكتلندية فى القرن السابع عشر. وهناك موسيقى Piobair-achd مجهولة التاريخ تحمل عنوان Praise of Marion تحتوى فى تنوع واحد فقط على ٢٩ تريتون Triton (ضمن ٣٢ من الصفوف الموسيقية bans)

ومثال أخير يوضح كيف أن شفرات الأسلوب لها أعرافها الخاصة وتكون معانيها الخاصة تكشف عنه المقارنة بين "رقصة الأقمعة السبعة" لريتشارد شتراوس (من أوبرا سالومى) وبين المتعري The Stripper من تأليف David Rose. ومن المؤكد أنه ليس مصادفة أنه رغم المفارقة التاريخية فإن الفلاس الفييني بتضميناته "انحطاط نهاية القرن" يمكن تحت سطح موسيقى شتراوس كما أن رقصة الفوكس تروت Fox Trot تكمن خلف عمل Rose، ولا معنى، بطبيعة الحال، للقول إن إحدى هاتين القطعتين الموسيقيتين ذات طابع أكثر جنسية بالفعل من الأخرى، فكل قطعة تحول الإثارة الجنسية إلى شفرات بطريقة مختلفة ومن أجل وظيفة مختلفة. وقد يبدو مثيرا للسخرية والضحك تماما تخيل "رقصة الأقمعة السبعة" تؤدى فى ملهى ليلى للتعري سبى السمعة تماما مثل تخيل إدماج "المتعري" فى أوبرا سالومى.

المعنى نتيجة للخطاب

إن رؤية سبعة ألوان فى قوس قزح من تأثير خطاب نيوتن (إذ إنه أضاف اللون النيلي Indigo فى تحديده أن قوس قزح لابد أن يتضمن سبعة ألوان)، تماما كما أن سماع الأوكتاف (الجواب الموسيقى) مقسما إلى ١٢ نصف نغمة (نصف درجة فى السلم الموسيقى) فذلك من أثر خطاب موسيقى غربى معين. وقد يقول أحد أنصار التجريبية (الإمبيريقية) إن الموضوع المتعالى يمكن معرفته عن طريق الملاحظة أو الاستماع، لكن ثقافات أخرى ترى خمسة ألوان أو ستة فى قوس قزح وتقسم الأوكتاف إلى فواصل تختلف عن المعيار الكلاسيكى الغرب. وإذا كان ثمة خطاب يقسم ألوان الطيف إلى أجزاء لونية محددي فهي إذن الألوان التى تتم رؤيتها. وإذا كان خطاب موسيقى - أى فى مجال الممارسة الموسيقية أو الأسلوب الموسيقى - يقسم الأوكتاف إلى الربع تون فإن ذلك يمكن أن يتم تصويره فى سياق ثقافى آخر بمثابة نغمات نشاز أو تصححه الأذن إلى أقرب نصف نغمة.

إبراز أهمية الاستقبال وموضع المستقبل

لقد أصبح من المهم التساؤل عنم يكون الجمهور المقصود الذى يستمع إلى قطعة موسيقية، ومن هو المستهدف من غناء Nanu Griffith أو Shsley Bassey أو Kirite Kanawa؟ والطريقة التى تعزف بها الموسيقى يمكن أن تدل على أنها موجهة مثلا لصالون أو لقاعة حفلات موسيقية أو للعزف فى الهواء الطلق، وإذا كان الأمر كذلك، فهل أثر ذلك على التأليف من حيث الشكل واستخدام الآلات؟ أو أن المؤلف الموسيقى وجهه فقط خياله فى اختيار جرس الصوت؟ ولماذا لم يقيم بتهوفن بتوزيع الأغاني الشعبية للجيتار والغناء؟ تحظى بعض أنواع الأداء أو المجموعات بمكانة أكبر من غيرها؛ وعلى سبيل المثال، فإن الرباعية الوترية يمكن اعتبارها فى بعض الدوائر أكثر نقاء وأرقى مستوى من رباعية الساكسون، بغض النظر عن أى موسيقى كتبت لكل منهما. وتحتل الموسيقى فى قاعة الحفلات الموسيقية مكانة أهم منها فى حانة (خمارة)؛ ولهذا السبب فإن وضعية موسيقى الجاز تأثرت على نحو سلبي لسنوات عديدة ويمكن

أن يكون بعض برجوازي أدنبره قد وجدوا أن توزيعات بتهوفن للأغاني الشعبية الإسكتلندية مقنعة ما داموا قد نشدوا نسخة "أكثر نقاء" أو "محسنة" لكموروثهم الموسيقي، ويمكن لوضعية الاستقبال التي يحتلها المرء أن تؤثر جذريا على عملية الاستقبال، وحتى ثمانينيات القرن العشرين فإن قلة من النقاد في الغرب اعترفت بمدى استخدام شوستاكوفيتش (*) Shostakovich للتهكم والسخرية في موسيقاه.

زوال الواقعي والمحاكي ومشاكل الأصالة

لقد اختفت مع مجيء ما بعد البنيوية أفكار "الجوهر الداخلي" و"الواقعي" واعتبر أنه يمكن تحديد الأصالة بالكثير من أسلوب: فقيم مثل تلك المرتبطة بالصدق والأصالة يمكن أن تتمثل في شفرات الملابس وأساليب غناء المؤدين [مغنو الأغنيات الشعبية لا يرتدون السترات أو الملابس ذات القماش المقلّم (الذي يستخدم مثلا، تميل إلى التعبير عن مثل هذه القيم أفضل من الآلات الإلكترونية)]. ويستطيع المؤدى الذي يدعم لنفسه صورة معينة مثل بروس سبرنجستيوم Bruce Springsteen (***) أن يعطى انطباعا بالأصالة أكثر عمقا من المؤدى الذي يضطلع بأنوار عديدة مثل ديفيد بوي David Bowie (***).

وهناك أمثلة في بعض المجالات الموسيقية بضروب المحاكاة التي أشار إليها بودريار حيث لا توجد حتى أي محاولة للتشبه بما هو واقعي أو حيث يستحوذ ما هو خيالي على الواقع، ومن أمثلة ذلك موسيقى الأدغال Jungle Music لفرقة Ellington أو أغاني الكابوبوى الهوليودية، ولكن مسألة الموسيقى "الاستشراقية" أكثر تعقيدا. وعلى

(*) شوستاكوفيتش (١٩٠٦ - ١٩٧٥): مؤلف موسيقى روسي وعازف بيانو. سعى إلى تجريب اللامقامية atonality والتقنية الاثني عشرية ولكنه عاد إلى الموسيقى النغمية (الترنالية) الأساسية. اشتهر بسيمفونيته التي بلغت ١٥ سيمفونية. ويرى قاموس أكسفورد أن بعض النقاد يعتبرونه من أعظم المؤلفين الموسيقيين في القرن العشرين. ونميزت أعماله بالعواطف المتطرفة والكثافة التراجيدية وروح الفكاهة والباروديا والاستهزاء اللاذع. وقد ظل مقيما في الاتحاد السوفيتي إلى أن وافته النية. (المترجم)

(**) (مولود في ١٩٤٩): مغني روك أمريكي وعازف جيتار ومؤلف أغان اشتهر بأغانيه التي تتناول حياة الطبقة العاملة في أمريكا، وله العديد من الألبومات الشهيرة. (المترجم)

(***) (مولود في ١٩٤٧): مغني روك إنجليزي وممثل اشتهر بأدائه المسرحي وقيامه بأنوار مسرحية غير تقليدية، له عدة ألبومات. (المترجم)

الرغم من الاختلافات التي تطورت عبر السنين في التمثيلات الغربية للشرق في المجال الموسيقي فإن الأساليب الاستشراقية المتعاقبة نزعت إلى أن تكون على صلة بالأساليب الاستشراقية السابقة على نحو أوثق مما فعلت مع الممارسات الإثنية الشرقية. ولم يكن ذلك مستغربا؛ ففرضها ليس أن تقلد بل أن تمثل وتعتبر. بيد أن التمثيلات تعتمد على الاعتراف واسع الاطلاع من الناحية الثقافية وهو ما يمكن أن يكون مرتبطا بالمعرفة المتوفرة للشخص بالدول الغربية للشرق وليس بالظروف الموضوعية للممارسات الموسيقية غير الغربية. والحق أن المؤلف الموسيقي يمكنه أن يقدم الجديد الذي يحل محله وينوب عن الشرق.

وكان على علم الموسيقى أن يستوعب دروس دريدا عن التفكيك، الذي اهتم بإظهار تفوق مصطلح على الآخر في تعارضات ميتافيزيقية. ولم يعد الأمر يتعلق بما هو مفترض موسيقي "خالصة" فحتى موسيقى مؤلف مثل برونر Bruckner(*) يمكن تفكيكها لكي تكشف لادعاءات الأيديولوجية الكامنة خلف ما يمكن أن يبدو على السطح، اختيارات موسيقية مجردة. والمعنى في موسيقاه يخلق الاختلاف، والإرجاء (Difference عند دريدا): فالسلم الموسيقي الصغير يحكمه السلم الموسيقي الكبير ولذلك فإن السلم الموسيقي الصغير الذي يفتتح السيمفونية الثالثة لم يكن في غير محله بالنسبة إلى المصطلح المسيطر، ونحن نعلم أن السلم الموسيقي الكبير سوف ينتصر. والسلم الموسيقي الصغير هو دائما نقيض الأطروحة - لكنه ليس نقيض الأطروحة الحقيقي، لأن Bruckner يفضل السلم الكبير على السلم الصغير. وفي موسيقى Bruckner فإن السلم الكبير هو المصطلح المسيطر لأسباب أيديولوجية وليست بنائية: فالسلم الكبير يشير ضمنا إلى الضوء والسلم الصغير يشير ضمنا إلى الظلام، إلا أنه يتعين علينا القول إن السلم الصغير هو غياب للسلم الكبير كما أن الظلام هو غياب للضوء. ولا يوجد سبب هيكلي يبرر لماذا لا ينبغي أن يتحكم السلم الصغير في السلم الكبير، وعلى سبيل المثال فإن سيمفونية مالر السادسة تخمد جميع الأصواء التي تتلاشى(**)

(*) (١٨٢٤ - ١٨٩٦) : مؤلف موسيقى نمساوي وعازف أورغن. وقد علم نفسه في المجال الموسيقي وتعاون مع فاجنر حيث اشترك في تقديم ترويضتان وايزولد في ١٨٦٥ عمل أستاذا للموسيقى في كونسرفاتوار فيينا في الفترة من ١٨٦٨ إلى ١٨٩١ (المترجم)

(**) لعل المقصود هو Gustav Mahler (١٨٦٠ - ١٩١١) الذي يعد من أكبر قادة الأوركسترا. وقد تقابل بروكسر الذي كان له تأثيره العميق على تكوينه الموسيقي. ألف العديد من السيمفونيات والقصائد السيمفونية والكائنات وموسيقى الحجرة والأغاني فضلا عن التوزيعات الموسيقية المختلفة التي قام بها. (المترجم)

موت المؤلف الموسيقي كعقريّة مبدعة

لقد كان للتكنولوجيا الموسيقية. وخاصة تقنية تفسير الشفرات الموسيقية الرقمية، مما يتيح تسجيل الأصوات الموجودة وإعادة استخدامها أو معالجتها حسب الرغبة - تأثيرها على أفكار الأصالة والقدرة الإبداعية والملكية. ومن هنا الوفرة الواسعة الانتشار للبرامج السابقة التسجيل على الوحدات الصوتية النمطية المتكررة وأجهزة توليف الأنغام إلكترونية وآلات دق الطبول الإلكترونية والآلات الموسيقية الإلكترونية في مجالات موسيقى HipHop^(*) والرقص الشعبي الذي يستخدم الطبول الإلكترونية وجهاز توليف الانعام والتكنو Techno والرقص في الملاهي تحت الأرض، الذين يختارون أجزاء من التسجيلات أو يضيفون الأصوات أو يمزجون البرامج أو يجمعون التسجيلات أو يعيدون التكوين والتشكيل وإعادة المزج قد جرفوا الأفكار المتعلقة بحقوق التأليف. وعلينا أن نعترف بأن نظرية ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية والتفكيكية تحدث بقوة أفكار الوحدة العضوية والحضور التعبيري للمؤلف في موسيقاه.

موسيقى ما بعد الحداثة

لقد أدى في السنوات الأخيرة صعود ما يسمى بـ "الموسيقى النسائية" و"الموسيقى النقدية" و"موسيقى الجنسية المثلية" إلى التعجيل بهذه القضية. فهل نحن نعيش في عصر الموسيقى البدلية أو أننا نشهد تحلل علم الموسيقى بوصفه فرعاً علمياً؟ ويعتبر بعض النقاد الموسيقيين أن المفهوم الواحدى لفرع علمى هو جزء من نموذج غير موثوق به حالياً بالنسبة إلى الفكر الموسيقي. والدليل هو اعتبار أن علم الموسيقى لم يعد مجالاً له استقلاله الذاتى فى نطاق البحث الأكاديمى بل هو - وفقاً لتعبيرات جوليا كريستيفا Kristeva عالمة التحليل النفسى والسيميوطيقا الفرنسية) -

(*) موسيقى شعبية أمريكية من أصول زنجية وإسبانية تستخدم الآلات الإلكترونية وموسيقى الراب Rap، تطورات منذ ثمانينيات القرن العشرين. (المترجم)

مجال الموسيقى مجالا للتناص، وكيف يتيح هذا الفهم، بدلا من فكرة الفرع العلمى، إطارا معرفيا أكثر إنتاجية لهذا المجال البحثى.

وتأسست فى المملكة المتحدة مجموعة علم الموسيقى النقدى فى ١٩٩٣ لمناقشة طابع وغرض علم الموسيقى النقدى وما إذا كان يواصل أو يتحدى الأشكال الأخرى من البحث الموسيقى. وقد اختير المصطلح لكى يدل على الاهتمام النقدى بما فى ذلك نقد علم الموسيقى نفسه. وقد أفضى ازدياد عدد الذين يحضرون الاجتماعات عبر العامين التاليين إلى عقد مؤتمر مهم فى Salford فى عام ١٩٩٥، جمع أكثر من سبعين مندوبا يمثلون ثلاثين جامعة مختلفة. ولم تشمل هذه المجموعة أولئك العاملين فى المجالات الأحدث مثل: الموسيقى السينمائية والسيمفونيقا الموسيقية وتكوين النوع ومظاهر الجنس فى الموسيقى فقط، بل ضمت أيضا باحثين فى الموسيقى الإثنولوجية وعلم النفس الموسيقى الذين شعروا لزم طويل بأنهم خارج التيار الموسيقى الأساسى. وبدأت نشر الصحيفة المسماة Critical Musicology Journal على الإنترنت فى ١٩٩٧ .

ويتفق علماء الموسيقى النقدية بوجه عام على أن أضخم مشكلة تواجه علم الموسيقى الراهن هى انهيار التقسيم الثنائى بين الموسيقى الشعبية (بوب) والموسيقى الكلاسيكية؛ وإن تلك الأهمية القصوى التى أوليت لهذا المفهوم التى تجعلهم فى منأى عن "الموسيقين الجدد" فى الولايات المتحدة، الذين ينزعون (مع استثناءات محدودة) إلى التركيز على أعمال تتسم بأسلوب الكانون Canon^(*) إن التحلل فيما بين ما هو "رفيع" و"منحط" كقيم جمالية تم الشعور به فعلا، بطبيعة الحال، فى مجالات موضوعية أخرى: ولننظر إلى أى مدى طغت الدراسات الثقافية على اللغة الإنجليزية بوصفها فرعاً علمياً أكاديمياً ويتمسك علماء الموسيقى النقدية بأنه من المطلوب بإلحاح إيجاد نموذج نظرى تكون له المقدرة على استيعاب جميع ألوان الموسيقى. ويتعين لمثل هذا النموذج أن يشمل ما يلى (وليس القصد هنا تقديم مانيفستو، بل تحديد معالم المجال ووضع هوية لعلم الموسيقى ما بعد الحداثى):

(*) أسلوب فى الصياغة الكنتراپنطية يردد فيه أحد الأصوات لحنا جاء قبله من صوت آخر وهو عبارة عن تكرار عبارة لحنية صدرت على درجة معينة من السلم الموسيقى (دسمة الخولى، مرجع سابق). (المترجم)

- الاهتمام بالعمليات الاجتماعية والثقافية والعلمية بالحجج والمبررات التي ترى أن المعانى والقيم والممارسات الموسيقية ذات صلة بسياقات معينة تاريخية سياسية وثقافية.

- الاهتمام بالنظرية النقدية وتطوير علم التأويل الموسيقى، من أجل تحليل قيم ومعانى الممارسات الموسيقية والنصوص الموسيقية.

- الاهتمام بتفادى الادعاءات التكنولوجية بالسرد التاريخي (مثل حتمية اللامقامية - اللاتونالية) وقد وجد أن السرد السببي فى مجال علم التاريخ الموسيقى يمثل إشكالية ما: فالخطوط الجينالوجية التى تربط أحد المؤلفين الموسيقيين (أو أحد الأساليب الموسيقية) بغيره يعاد صياغتها أو تمحى إلى الأبد، ويجرى استحضار الموسيقى بصفة عرضية من لا مكان (مثل الجاز من نيو أورليانز).

- الاستعداد لاللتزام بقضايا الطبقة والجيل والنوع ومظاهر الجنس (من حيث الذكورة والأنوثة) والإثنية فى الموسيقى بدلا من تهميشها، وتناول مسائل قبل الإنتاج والاستقبال وموضع الذات، فى نفسه الذى يتم فيه التشكك فى أفكار العبقرية والقواعد المقررة (الشرائع) والعالمية والاستقلالية الجمالية والمثول التناسى.

- الاستعداد لدروس مختلف الثقافات مع مراعاة قيمها الثقافية الخاصة بها، بحيث يعتبر التحكم الثقافى بمثابة حقيقة موضوعية، بل إنه يتعين أيضا التنظيم بضرورة امتداد مجال هذا الدرس فيما يتجاوز التقييم الذاتى الثقافى الصريح.

- الاستعداد لاعتبار أن المعانى ذات دلالة تناسية، وأنه من الضرورى فحص نطاق متسع من أنواع الخطاب لكى يمكن شرح الموسيقى وسياقاتها والطريقة التى تعمل بها فى نطاق هذه السياقات. وعلى سبيل المثال فإنه لا يمكن النظر فى المسائل الموسيقية والمظاهر الجنسية (من حيث الذكورة والأنوثة) بمعزل عن أنواع الخطاب

السياسى والبيولوجى والسيكولوجى والجمال والتحليل النفسى. بيد أنه قد لا يكون القصد هو توثيق كل مجال على نحو شامل.

- الاستعداد للاستجابة إلى تعدد المعانى والوظائف المعاصرة للموسيقى، وهو ما لا يمكن أن يتحقق بتبنى الموقف الإبستمولوجى والمنهجية المشار إليها أعلاه (ما يستلزم الدراسة التناصية وتجاوز حدود الفروع العلمية)، بما يتعارض مع دراسة الفرع العلمى المحدود للموسيقى بوصفها فنا أدائيا أو كتأليف موسيقى (تمثله تماما المدونات الموسيقية المطبوعة).

الفصل الثالث عشر

ما بعد الحداثة والثقافة الشعبية

جون ستورى John Storey

تتفق معظم المناقشات الدائرة حول ما بعد الحداثة على أنها كائنة ما كانت أو يمكن أن تكون فهي ذات صلة ما بتطور الثقافة الشعبية فى أواخر القرن العشرين فى الديمقراطيات الرأسمالية متقدمة فى الغرب، بما يعنى أنه مهما اعتبرت ما بعد الحداثة لحظة تاريخية جديدة، أو حساسية جديدة أو أسلوبا ثقافيا جديدا، فإنه يجرى الاستشهاد بالثقافة الشعبية بوصفها الأرضية التى يمكن أن توجد فيها بسهولة بالغة هذه التغيرات.

الثقافة الشعبية ومنشأ ما بعد الحداثة

لقد شهدنا فى أواخر خمسينيات ومطلع ستينيات القرن العشرين بداية ما يعتبر الآن نزعة ما بعد الحداثة. ونجد فى عمل الناقدة الثقافية الأمريكية Susan Sontag (*Against the Interpretation*) (١٩٦٦)) الاحتفاء بما تسميه "حساسيه جديدة". وكما توضح: "إن أحد الآثار المهمة المترتبة على الحساسية الجديدة هى أن التمييز بين الثقافة "الرفيعة" و"المنحطة" يبدو أنه يفقد مغزاه شيئا فشيئا".

لقد رفضت "الحساسية الجديدة" ما بعد الحداثة النخبوية الثقافية لنزعة الحداثة. وعلى الرغم من أنها كثيرا ما استشهدت بالثقافة الشعبية فإنها تميزت بشك عميق فى جميع الأشياء الشعبية. وقد كان دخولها إلى المتاحف والاكاديميات بوصفها ثقافة

رسمية أيسر بلا أدنى ريب (على الرغم من معاداتها المعلنه للنزعة البرجوازية المادية المعتدلة) بحكم استمالتها لنخبة المجتمع الطبقي وعلاقتها المتماثلة معها. وتمثلت إجابة "الحساسية الجديدة" ما بعد الحداثية على تقديس النزعة الحداثية في إعادة تقييم الثقافة الشعبية، ولذلك اعتبرت ما بعد الحداثة في الستينيات جزءاً من هموم شعبوى على نخبوية النزعة الحداثية. وأبرزت رفضها لما سماه Andreas Huyssen في *After the Great Divide* (١٩٨٦) الانقسام الكبير... خطاب يشدد على التمييز القاطع بين الفن الرفيع وثقافة الجماهير" وفضلاً عن هذا وفقاً لما قاله "Huyssen فإنه بحكم المسافة التي قطعناها من هذا الانقسام الكبير بين ثقافة الجماهير والنزعة الحداثية فإننا نستطيع تقدير ما بعد حداثتنا الثقافية". وتعد حركة الفن "البوب" الأمريكية والبريطانية في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، برفضها التمييز بين الثقافة الشعبية والثقافة الرفيعة الازدهار الثقافي الأول لما بعد الحداثة. وكما يوضح أول منظر لفن البوب : Lawrence Alloway :

"كان مجال الاتصال هو الثقافة الحضرية المنتجة جماهيرياً: السينما، والإعلانات، وقصص الخيال العلمي، وموسيقى البوب. ولم نشعر بكرامية بحال من الأحوال لمعايير الثقافة التجارية السائدة في وسط معظم المثقفين، لكننا تقبلناها كحقيقة واقعية، وتمت مناقشتها تفصيلاً مع استهلاكها على نحو مفعم بالحماسة. وكانت ثمرة مناقشاتنا هو حمل ثقافة البوب بعيداً عن مجال "النزعة الأوروبية" والترفيه المحصن "والاسترخاء" ومعاملتها بجدية الفن" (مقتبس في كتاب John Storey عن *An Introduction to Cultural Theory and Popular Culture* (١٩٩٧)).

وانطلاقاً من هذا المنظور فإن ما بعد الحداثة تنبثق أولاً من رفض جيلي لليقينيات القاطعة للحداثة الرفيعة، واعتبر التشديد على التمييز المطلق بين الثقافة الرفيعة والثقافة الشعبية ادعاءً "غير متماسح مع الزمن" من قبل جيل أقدم. ويمكن رؤية إحدى أمارات هذا الانهيار في المزج بين الفن وموسيقى البوب. وعلى سبيل المثال فإن الرسام

البريطاني الشهير Peter Blake (المولود في ١٩٣٢) رسم غلاف ألبوم البيتلز Beatles كما أن الرسام الراحل Richard Hamilton (المولود في ١٩٩٢) رسم غلاف ألبوم البيتلز White Album، ورسم الرسام الأمريكي (١٩٢٨ - ١٩٨٧) غلاف ألبوم Ralling Stemes .

الثقافة الشعبية في إطار المناقشة المتعلقة بما بعد الحداثة

لقد أصبحت ما بعد الحداثة، مع حلول منتصف الثمانينيات حالة، وبالنسبة إلى كثيرين مصدر رأس. ووفقا لما يراه جان فرانسوا ليوتار فإن أحوال ما بعد الحداثة تميزت بأزمة في وضعية المعرفة في المجتمعات الغربية، وهو ما تم التعبير عنه بوصفه عدم التصديق في MetaNarratives مثل الإله والماركسية والتقدم العلمي، ويرتئي Ste-ven Connor Postmodernist Culture (١٩٨٩) أن تحليل ليوتار يمكن قراءته بوصفه "رمزا مقنعا لأحوال المؤسسات والمعرفة الأكاديمية في العالم المعاصر، ويعد تشخيص ليوتار لأحوال ما بعد الحداثة، من ناحية ما ، تشخيصا لانعدام الجبري النهائية للمثقف. ويدرك ليوتار نفسه ما يسميه "البطولة السلبية" للمثقف المعاصر، ويرى أن المثقفين يفقدون سلطتهم ونفوذهم منذ أن تصاعد العنف والنقد إزاء المؤسسة الأكاديمية إبان الستينيات". ويقدم Popular Culture (Lain Chambers ، ١٩٨٨) الحجة نفسها، لكن من منظور مختلف. إذ يرى أن المناقشة المتعلقة بما بعد الحداثة يمكن اعتبارها جزئيا بمثابة "الدخول التزميقي للثقافة الشعبية وجمالياتها وإمكاناتها الخاصة إلى مجال كان يحظى من قبل بالامتنياز". وقد واجهت النظرية والحظابات الأكاديمية شبكات شعبية واسعة، غير منهجية من المعرفة والإنتاج الثقافي. وتعرض امتياز المثقف في الشرح ونشر المعرفة للتهديد.

وترحب (Postmodernism and Popular Culture Angela McRobbie، ١٩٩٤) مثل Chambers بما بعد الحداثة وتعتبرها بمثابة "الظهور إلى حيز الوجود لأولئك الذين أضعأت أصواتهم تاريخيا الـ Metanarratives (الحداثية) ذات الطابع المسيطر، والتي

هى بدورها بطريكية وإمبريالية. وترى أن ما بعد الحداثة الهامشية من مواقع الاختلاف: الإثنى، النوعى، الطبقة والتفصيل الجنىسى أى أولئك الذين تشير إليهم بوصفهم "الجيل الجديد من المثقفين (غالباً من السود أو الطبقة العاملة)"، وتثير (Welcome to Jungle Kobena Mercer، ١٩٩٤) الموضوع نفسه معتبرة ما بعد الحداثة جزئياً بمثابة إجابة غير معترف بها على "الهويات والممارسات والأصوات البازغة للشعوب الإفريقية والكاريبية والآسيوية المتناثرة، أولئك الذين زحفوا من المجالات الهامشية لبريطانيا ما بعد الإمبريالية لى يزيحوا اليقينيات العادية و"الحقائق" التى تحظى بموافقة جماعية ومن ثم فإنها تفتح سبلاً جديدة للرؤية والفهم

ويرى جان بودريار (Simulations، ١٩٨٢) أن تجاوز الواقع أو ضياعه هو النمط المميز لما بعد الحداثة. وفى مجال hyperreal فإن "الواقعى" والمُتخيل يتدخلان بعضهما فى بعضهما على نحو مستمر. والنتيجة هى أن الواقع وما يسميه بودريار "محاكاة" يمارسان كما لو كانا غير مختلفين - يعملان عبر متصل متعرج (مثل القطار المتعرج فى مدينة الملاهى). ويمكن فى أحيان كثيرة أن تعتبر المحاكاة أكثر واقعية مما هو واقعى فعلاً، "وحتى أفضل من الأمر" وفقاً للكلمات أغنية U2.

وقيل إن دلالة تجاوز الواقع وضياعه متوافرة فى كل مكان وعلى سبيل المثال فإن الغرب يعيش فى عالم يكتب فيه الناس خطابات موجهة إلى شخصيات فى المسلسلات التلفزيونية Soap Operas، عارضين عليهم الزواج أو متعاطفين مع المصاعب الجارية التى تواجههم أو مقدمين لهم وسائل جديدة للراحة والتسلية أو مجرد الكتابة للسؤال عن كيفية مواجهة الحياة. ويجرى التصدى لأشوار التلفزيون فى الشوارع وتحذيرهم من عواقب المستقبل المحتملة ما لم يغيروا مسلكهم، ويتلقى بانتظام الأطباء والمحامون والمخبرون السريون الذين يظهرون فى التلفزيون طلبات للمشورة والمساعدة. ويطلق بودريار على هذا اسم "دوبان التلفزيون فى الحياة، ودوبان الحياة فى التلفزيون".

ويرى John فى Media Matters (١٩٩٤) أن ميديا ما بعد الحداثة لم تعد تقدم "تمثيلات ثانوية للواقع؛ إنها تؤثر فى، وتنتج الواقع الذى تتوسطه، وفضلاً عن تقدم

هذا فإن الجميع الحوادث التى "تهم" فى عالم ما بعد الحداثة، هى أحداث ميديا، ويذكر مثال القبض على O.J.Simpson فقد ذهب السكان المحليون الذين شاهدوا المطاردة على التلفزيون إلى منزله (O.J) لكى يكونوا هناك وقت حسم المطاردة، بل أخذوا معهم تلفزيوناتهم المحمولة مدركين أن الحدث الفعلى الذى يقع فى الحياة ليس عوضا عن الحدث الذى تتوسطه الميديا، بل هو مكمل له. وعند رؤية أنفسهم على شاشة تلفزيوناتهم فإنهم لوحوا بأيديهم لأنفسهم، لأن أناس ما بعد الحداثة لا يجدون غضاضة فى أن يكونوا فى أن واحد على نحو يتعذر تمييزه أناسا حقيقين من لحم ودم وأناس ميديا. ويدرك هؤلاء الناس ضمنا أن الميديا لا تنقل الأنباء وتوزعها فحسب، إنما تنتجها. ولذلك ولكى يكون المرأ جزءا من الأخبار المتعلقة بالقبض على O.J.Simpson فلا يكفى أن يكون هناك، بل يتعين على المرء أن يكون هناك هلى شاشة التلفزيون. وفى عالم ما بعد الحداثة المتجاوز للواقع لم يعد ثمة تمييز بين الحدث "الواقعى" وتمثيله عبر الميديا. بالطريقة نفسها فإن محاكمة O.J.Simpson لا يمكن فصلها تماما عن الحدث "الواقعى" الذى عرضه التلفزيون آنذاك بوصفه حدث ميديا. وأى شخص شاهد سير الإجراءات فى التلفزيون يدرك أن المحاكمة جرت على الأقل من أجل مشاهدى التلفزيون تماما كما لو كانت لأولئك الحاضرين فى قاعة المحكمة، وكان يمكن للحدث أن يكون بالغ الاختلاف بالفعل دون وجود الكاميرا.

وفردريك جيمسون ناقد ثقافة ماركسى أمريكى كتب عدة مقالات بالغة التأثير عن ما بعد الحداثة، ووفقا لعرضه فإن ما بعد الحداثة هى ثقافة محاكاة أدبية (Pastiche) شووها "اللعب المعجب بنفسه بالتلميحات التاريخية" وثقافة ما بعد الحداثة "عالم لم يعد فيه ممكنا التجديد الأسلوبى، وكل ما تتركه هو تقليد أساليب معينة وأن تتحدث من خلال الأقنعة وبأصوات الأساليب الموجودة فى المتحف الخيالى" وبدلا من أن تكون ثقافة إبداع أصيل نقى فهى ثقافة الاقتباسات. وعوضا عن الإنتاج الثقافى "الأصيل" لدينا إنتاج ثقافى تولد من إنتاج ثقافى آخر. فهى ثقافة "التسطيح أو اللاعمق، نوع جديد من السطحية بكل معنى الكلمة"، ثقافة صور ومظاهر سطحية دون أن تنطوى على أية إمكانيات "كامنة فيها" وتستمد قوتها التؤيلية من صور أخرى ومن سطوح أخرى. ويعترف جيمسون بأن الحداثة نفسها كثيرا ما "اقتبست" من ثقافات أخرى

ومن لحظات تاريخية أخرى، لكنه يشدد على وجود تباين أساسي - فنصوص ما بعد الحداثة لا تقتبس من الثقافات الأخرى واللحظات التاريخية الأخرى إنما تقوم بتفكيكها كيفما اتفق لكي تتخذ منها ما يناسبها إلى الدرجة التي يكف فيها عن الوجود أى إحساس بالبعد التاريخي والنقدى - فهناك محاكاة أدبية فقط.

وربما كان مثاله على ثقافة المحاكاة ما بعد الحداثة هو ما يسميه "فيلم النوستالجيا". ويمكن أن يشمل هذا النوع عدة أفلام من الثمانينيات والتسعينيات مثل *Blue Velvet* و *Angel Heart* و *Rumble Fish* و *Paggy Sue Get Married, Back to the* ويرى أن فيلم النوستالجيا يسعى إلى استعادة الجو والخصائص الأسلوبية التي سادت أمريكا فى الخمسينيات، ولكن فيلم النوستالجيا ليس مجرد تسمية أخرى للفيلم التاريخي. وهو ما يتضح بجلاء من حقيقة أن القائمة التي يقدمها جيمسون تشمل "Star Wars" وقد يبدو غريبا حاليا أن يذكر أن فيلما عن المستقبل يمكن أن يكون حنيئا إلى الماضي لكنه يوضح فى مقالته عن "ما بعد الحداثة والمجتمع الاستهلاكى" (١٩٨٥) "إن Star Wars لا يعيد اكتشاف الماضي فى شموله الحين بل بالأحرى (إنه يعيد اكتشاف) إحساس وشكل موضوعات فنية متميزة لفترة أقدم".

وتعمل أفلام مثل *Robin Hood* و *Independence Day* و *Raiders of the Ark* و *Prince of Thieves* بطريقة مماثلة فى إثارتها لإحساس ما باليقينيات السردية للماضى. ويرى جيمسون بهذه الطريقة أن أفلام النوستالجيا إما أنها تستعيد وتمثل الجو العام والسمات الأسلوبية للماضى و/ أو أنها تستعيد وتمثل بعض الأساليب فى رؤية الماضي. وما يحظى بأهمية مطلقة عنده هو أن هذه الأفلام لا تحاول استعادة أو تمثيل الماضي "الواقعى أو الحقيقى"، بل تعمل دائما فى نطاق وأساطير ثقافية معينة عن الماضي. فهي تعرض ما يسميه "واقعية زائفة"، أفلام عن أفلام أخرى، تمثيلان لتمثيلات أخرى (وهو ما يسميه بويريار محاكاة). وبهذه الطريقة، فإن التاريخ تحوّه "نزعة تاريخية... التفكك العشوائى وتبديل جميع أساليب الماضي، التلاعب بالتمثيلات الأسلوبية العرصة"... ويمكن أن نذكر هنا فيلم مثل *True Romance* أو *pulp Fiction*. وأكثر من هذا فإن جيمسون يشدد على أن إدراك التلاعب بالتمثيلات الأسلوبية هو

جزء أساسي ومكونٌ لخبرتنا بفيلم ما بعد الحداثة. ومرة أخرى فهو مثال لثقافة "يربح فيها تاريخ الأساليب الجمالية التاريخ الحقيقي". وهو ما يتعلق بسمة أسلوبية ثابتة يحددها جيمسون، ويسميتها الشيزوفرانيا. فالصاب بمرض انقصار الشخصية، كما يرى، يشعر بمرور الزمن لا كسلسلة متصلة الحلقات (ماضٍ - حاضر - مستقبل) بل كحاضر دائم، يتسم على نحو عرضي فقط باقتحام الماضي أو إمكان وجود مستقبل. وجزء خسارة الهوية الفردية التقليدية (الإحساس بالنفس بأن موضعها يتحدد في نطاق متصل زمني) هو إحساس مكثف بالحاجز-وهو ما يسميه Dick Hebdige في Hiding the Light (١٩٨٨) النزعة المنظورية (النسبية) الحادة (التي تشير إلى أن الخبرة أو التجربة تماثل تعاطي مخدر قوي LSD) .

إن تسمية ثقافة ما بعد الحداثة ذات طابع انقصامي يعني الزعم أنها فقدت إحساسها بالتاريخ (وإحساسها بمستقبل مختلف عن الحاضر) فهي ثقافة تعاني "فقدان الذاكرة التاريخية"، منغلقة على التدفق غير المستمر للحاضر الأبدى. إن ثقافة الحداثة الزمنية أفسحت المجال للثقافة الفضائية لما بعد الحداثة.

مثالان على ثقافة ما بعد الحداثة الشعبية

ينبغي لأية مناقشة لما بعد الحداثة والثقافة أن تسلط الضوء على عدد من مختلف الأشكال والممارسات الثقافية: التلفزيون، والأفلام، وموسيقى البوب، وموسيقى الفيديو، والإعلانات. وسوف نبحث هنا مثالين: موسيقى البوب والتلفزيون.

موسيقى البوب ما بعد الحداثة

كما يشير Firth و Horne في Artits Pop (١٩٨٧) فإن "أغاني البوب هي المسجل الصوتي للحياة اليومية ما بعد الحداثة، لا مفر منها في المصاعد والمطارات والحانات والمطاعم والشوارع ومراكز التسوق والملاعب الرياضية"، ويرى Connor أنه ربما كانت موسيقى البوب "أقوى تمثيل للأشكال الثقافية لما بعد الحداثة".

ويميز جيمسون بين موسيقى البوب الحداثية وما بعد الحداثية مفترضا أن موسيقى البيتلز ورونلج ستونز (Rolling Stones) تمثل لحظة حداثية بينما يمكن اعتبار البنك روك Punk rock موسيقى ما بعد حداثية. ويرى Andrew Goodwin فى Popular Music & Postmodern Theory (Cultural Studies, 1991) على نحو صائب تماما أنه لأسباب عديدة يصعب للغاية مناصرة هذا الموقف؛ إذ يختلف البيتلز عن الرولنج كما يختلف الاثنان، مثلاً عن Clash و Talking Heads. والواقع أنه قد يكون من الأسير افتراض أنه يمكن التمييز بين "حذق" البيتلز Talking Heads و"أصالة" رولنج ستونز Clash .

ويبحث Goodwin من عدة زوايا اعتبار موسيقى البوب وثقافة موسيقى البوب بمثابة إنجاز ما بعد حداثي. وربما كان أكثر الجوانب التي يتم ذكرها هو التطورات التكنولوجية التي يسرت ظهور تقنية تشفير الموسيقى رقمياً وإعادة استخدامها فى التأليف أو التسجيل (Sampling) ويعترف بموازنة ذلك مع بعض التنظير ما بعد الحداثي، لكنه يرى أن ما غض عنه الطرف كثيراً فى تلك الدعاوى هو طريقة استخدام الـ Sampling وهو يرى أن لهذه التقنية "وظيفة ذات صبغة تاريخية"؛ وغالباً ما عملت على أن "تستحضر التاريخ والأصالة" وتسمية هذه العملية "محاكاة" Pastiche هو أن تضل السبيل عن أن موسيقى البوب المعاصرة تعرض وتعزز وتحثى بالنصوص التي تختلس منها".

وربما كان الراب Rap أفضل مثال على كيفية استخدام الـ Sampling. وعندما سئل Cornel West المنظر الثقافى الأمريكى - الإفريقى فى مقابلة صحيفة أن يسمى الوسائل السوداء للتعبير الثقافى أجاب قائلاً: "الموسيقى والوعظ". واستطرد قائلاً:

"يعد الراب فريداً فى نوعه؛ لأنه يجمع بين الواعظ الأسود والموروث الموسيقى الأسود، مستعياً عن الموصفات الطبقية الكنسية ذات الإيقاعات الإفريقية المركبة فى الشوارع. تعبير واضح بشكل هائل عمل على تعديل إيقاع أنغام دقات الطبول الإفريقية، الذعر الإفريقى، مندمجاً فى منتج أمريكى ما بعد حداثي؛ لا يوجد موضوع معبر عن كرب أصيل بل ثمة موضوع مجزأ، مستمد من الماضى والحاضر، مثمر بشكل تجديدي، منتج

ويمكن افتراض الشيء نفسه بالنسبة إلى الراب البريطاني بوصفه ما بعد حدثي، وترجم Angela McRobbie، كما أشرنا سابقاً، أن ما بعد الحدث تستهوي "ما يمكن تسميته بالجيل الجديد من المثقفين (غالباً من السود أو النساء أو الطبقة العاملة) ونقدم مثلاً على ذلك "The Ruthless Rap Assassins" [...] .

وربما كانت أفضل طريقة للتفكير في العلاقة بين موسيقى البوب وما بعد الحدث هي النهج التاريخي. وترى غالبية الروايات أن ما بعد الحدث بدأت في أواخر الخمسينيات - الفترة نفسها التي بدأت فيها موسيقى البوب - ولذلك يمكن القول إن موسيقى البوب وما بعد الحدث توافقا زمنياً تقريباً. ولا يعني هذا بالضرورة أن كل موسيقى البوب تتسم بطابع ما بعد حدثي. وإذا استخدمنا نموذج رايموند وليامز في التشكيلات الاجتماعية التي تتكون دائماً من تراتبية ثقافية - "مهيمنة" و"ناشئة" و"متبقية أو متخلفة" - فيمكن اعتبار موسيقى بوب ما بعد الحدث ناشئة في الستينيات مع أواخر البيتلز وموسيقى الروك للثقافة المضادة مثالين أساسيين وفي السبعينيات مع بنك (Punk)^(*) مدرسة الفنون التشكيلية لكي تصبح في أواخر الثمانينيات المهيمن الثقافي في ثقافة البوب. ورؤية العلاقة بهذه الطريقة يعني تفادي اعتبارها إما أنها "ما بعد الحدثية كلها" وإما "لا شيء فيها من بعد الحدث". ومما قد يتيح الزعم بأن موسيقى البوب، من ناحية ما، ما بعد حدثي (من المحتمل أن تكون كذلك) لكن ليست جميع ألوان موسيقى البوب ما بعد حدثي بالضرورة.

كما أنه من الممكن رؤية أن استهلاك موسيقى البوب وثقافة موسيقى البوب المحيطة بوصفهما يتسمان بما بعد الحدث في حد ذاتها. وعوضاً عن اتباع نهج يهتم بتجديد وتحليل ممارسة أو نص ما بعد الحدث فينبغي البحث بدلاً من ذلك عن ما بعد

(*) حركة التمرد بين الشباب التي تتميز بنمذجة السلوك السيئ في المجتمع والوالع بالموسيقى الإيقاعية الصاخبة. (المترجم)

الحدث في ظهور أنماط معينة من الاستهلاك؛ الناس الذين ينشرون بنشاط ويتصفون بالمحاكاة (Pastiche). وتعد فكرة مجموعة من المستهلكين، أولئك الذين يستهلكون بسخريّة ويستمتعون بالغريب الموحش، موجبة للغاية. ويدعى Fred Pfeil في Post-Modernism as Structure of Feeling (C.Nelson and L. Grossberg, eds. Marism and the Interpretation of Culture) (1988) أنه في أمريكا على الأقل، فإن ما بعد الحدث هي أسلوب معين في الاستهلاك؛ طريقة استهلاك تجمعات اجتماعية معينة، الطبقة الإدارية المهنية. ويحدد أمبرتو إيكو مستخدماً فكرة Charles Jenks عن "التشغير المزدوج" حساسية ما بعد حدثية مماثلة تبنت في إدراك ما يسميه "قد قيل من قبل" ويقدم مثلاً للمحب الذي لا يستطيع أن يقول لمحبوبته "أحبك بجنون". فيقول بدلاً من ذلك كما تحدد Barbara Cartland (*) ، "أحبك بجنون".

وبينما يرى النقاد الأكاديميون وغيرهم من النقاد الثقافيين فيما إذا كانت ما بعد الحدث يجري فهمها على نحو أفضل كنص وممارسة أو كتكوين معد للقراءة فإن صناعة الموسيقى لم تتمهل في الجمع بين النص والاستهلاك. وهناك الآن نوع من البيوع / النوعية أو العامة لموسيقى البوب يسمى ما بعد الحدث. وربما كان أشهر مثال على ذلك (١٩٨٨ - ١٩٩٢) برنامج MTV المسمى Postmodern MTV. ويصف مقدم البرنامج الموسيقى التي تعزف في هذا البرنامج "مزيج بديل على نحو خفيف". ويشير هذا الوصف والمحتوى العام للبرنامج إلى أن ما بعد الحدث تستخدم ربما أكثر من أي طريقة أخرى لتسويق ما يسمى البوب المستقل. "mdie Pop" وقد التقطت بعض شركات التسجيل هذا الاستخدام والتي تسوق الآن بعض المؤدين بصفتهم من ما بعد الحدث.

تليفزيون ما بعد الحدث

لم يشهد التليفزيون، مثل موسيقى البوب فترة حدثية بحيث يمكن أن يكون "ما بعد" لكن وكما يشير Jim Collino من R.C. Allen,ed Postmodernism and Television

(*) مزاولة بريطانية معاصرة ذات طابع رومانسي. (المترجم)

(Channels of Discourse, Reassembled-1992) فإن التلفزيون كثيرا ما اعتبر "لَب" ثقافة ما بعد الحداثة. ويمكن أن يستند هذا الزعم إلى عدد من البرامج النصية والسياقية... وإذا ألقينا نظرة سلبية على ما بعد الحداثة، كما فى مجال المحاكاة عند بودريار عندئذ يبدو التلفزيون خير مثال على هذه العملية - مع اختزاله المفترض لتعقيدات العالم إلى تدفق متغير أبدا من اللامعق والصور المرئية التافهة. وإذا اتخذنا من الناحية الأخرى موقفا إيجابيا من ما بعد الحداثة فعندئذ يمكن تقديم الممارسات المرئية واللفظية للتلفزيون بوصفها الأداء العليم بالتناص (الطريقة التى يدرج بها نص ما مع نصوص أخرى) و"الانتقائية الراديكالية" التى تشجع وتساعد على إنتاج "من يقوم بترقيع حرفى فطن" لما بعد الحداثة (أى الشخص الذى يجد متعة فى التعامل مع تناصية نص ما) وعلى سبيل المثال فإن سلسلة تلفزيونية مثل Twin Peaks تشكل جمهوراً بوصفه مما يقومون بالترقيع الحرفى وتجرى مشاهدتها بدورها من قبل جمهور يحتفى بما فيها من ترقيع حرفى.

ويستخدم Collins سلسلة Twin Peaks وسيلة لكى يضم مختلف خيوط العلاقة بين ما بعد الحداثة والتلفزيون، وقد اختيرت هذه المسلسلة لأنها "تجسد الأبعاد العديدة لما بعد الحداثة المرئية، ويرى أن ما بعد حداثة المسلسلة هى ثمرة عدد من العوامل المتشابهة: سمعة دافيد لينش David Lynch كصانع أفلام والسمات الأسلوبية للمسلسلة وأخيرا طابعها التناصى التجارى (تسويق المنتجات ذات الصلة: مثل The Secret Diary of Laura Palmer). وتمثل على الصعيد الاقتصادى محاولة من تلفزيون الشبكة الأمريكية استعادة أقسام وفيرة من مشاهدى التلفزيون أغراهم الكابل والفديو. وبهذا المعنى فإن هذه المسلسلة ترمز إلى حقبة جديدة من رؤية شبكة التلفزيون للمشاهدين. وعوضاً عن اعتبار المشاهدين كتلة متجانسة انطلقت المسلسلة من استراتيجيات تعتبر المشاهدين مجزئين، يتكونون من قطاعات مختلفة - ينقسمون إلى فئات بحكم السن والطبقة والنوع والجغرافيا والجنس (العرق) - تهم مختلف الملحنين. وتنطوى الجاذبية الجماهيرية الآن على محاولات تشابك القطاعات المختلفة لكى يمكن بيعها إلى شتى قطاعات السوق الإعلانية. ولأدلة هذه المسلسلة، على الأقل من هذا المنظور، هو أنها جرى تسويقها لكى تستهوى أولئك الذين أغراهم بعيدا عن

تليفزيون الشبكات الأمريكية تسجيلات الفيديو (VCR) والكابل والسينما وباختصار ما يسمى بجيل "اليابى" Yuppie [شباب الفئة الوسطى ذوى المهن الحرة الذين يعيشون فى المدن حياة مترفة ، المترجم]

ويبرهن Collins على هذا بمعالجة الطريقة التى روج بها لهذه المسلسلة. أولا هناك الاستمالة الفكرية - لينش كمؤلف و Twrin Peaks كتليفزيون طليعى ثم أعقب ذلك اعتبار Twrin Peaks من نوع مسلسلات Soap Opera وسرعان ما اتحدت هاتان الاستمالتان فى تشكيل قراءة ما لما بعد الحداثة، حيث جرى تقييم المسلسلة بوصفها سينما مرغوبة أو Soap Opera مرغوبة. وهو ما تدعم وتأييد بالأداء المتعدد المعانى (القدرة على توليد معان عديدة) للمسلسلة ذاتها، إذ يرى Collins أنها "انتقائية ذات نزعة تهجمية" ليس فقط من حيث استخدام تقاليد من الرعب القوطى (الإثارة الخارقة) والإجراءات البوليسية وقص الخيال العلمى و Soap Opera ولكن أيضا بالطرق المختلفة التى تحشد بها هذه التقاليد، مباشرة أو عن طريق "الباروديا" فى مشاعر المشاهدين من لحظات من البعد المحاكى الساخر إلى لحظات الحميمية المؤكدة، مع الاستمرار فى التلاعب بتطلعاتنا". وعلى الرغم من أن هذا جانب معروف من تقنية لينش السينمائية فهو أيضا سمة مميزة "عاكسة للتغيرات فى الترفيه التليفزيونى ومشاركة المشاهد فى هذا الترفيه". ويقول آخر فإن هذا التراوح فى التقاليد العامة "لا يصف فقط Twrin Peaks بل التحريك صعودا وهبوطا للسلم المرئى لصندوق الكابل. ولم تعد أفاق المشاهدة محدودة التداول على نحو متبادل، بل توضع فى تبادل دائم". ومما يجعل هذه المسلسلة مختلفة عن المسلسلات التليفزيونية الأخرى هو أنها لا تنتج مواقف مشاهدة متغيرة ولكنها تعترف صراحة بالذبذبة والطابع المعلق لمشاهدة التليفزيون... "ولا تعترف فقط بمواقف الموضوعات العديدة التى يولدها التليفزيون، إنما تسلم بأن أحد المتع الكبرى للنص المرئى أنه يتسم بطابع التعليق. ويستغله لصالحه". وبهذه الطريقة فإن Twin Peaks ليست تفكيكا فى ما بعد حدثى - ولا هى رمز لها إنما هى تناول معين لأوضاع ما بعد الحداثة - نص ما بعد حدثى- وبذلك فهى تساعد على تحديد إمكانيات الترفيه فى العالم الرأسمالى المعاصر.

ما بعد الحداثة والثقافة الشعبية ومسألة القيم

لقد أثارت ما بعد الحداث الاضطراب فى العديد من اليقينيّات القديمة المحيطة بمسألة القيم الثقافية. وقد أصبح من العادى إلى حد ما تبين كيف أن قواعد القيمة تتشكل ويعاد تشكيلها استجابة للاهتمامات الاجتماعية والسياسية لأولئك الذين يمتلكون السلطة الثقافية. وبالنسبة إلى العين الأقل ملاحظة فإن التغيرات تبدو لا يعتد بها - تغيرات فى البارامترات (العالم)، وتلوح مستقرة نسبيا فى الجوهر - لكن حتى عندما تظل النصوص القاعدية نفسها، فكيف ولماذا تقيم بكل تأكيد التغيرات، إلى حد ألا تكاد تكون هى النصوص نفسها، من لحظة تاريخية إلى لحظة تالية؟ وكما وضعها Fowe Tops فى سياق مختلف قليلا "الأغنية القديمة نفسها لكن مع اختلاف فى المعنى منذ أن ذهب" أو لنضعها فى خطاب أقل رقصا، فالنص الثقافى فى إطار ما بعد الحداثة ليس هو مصدر القيمة، بل هو موقع حيث يمكن أن يقام عليه بناء القيمة - القيم المتغيرة.

وربما كان أهم شىء يصدد ما بعد الحداثة لدارسى الثقافة الشعبية هو الاعتراف بعدم وجود اختلاف مطلق بشكل قاطع بين الثقافة الرفيعة والثقافة الشعبية. ولا يعنى هذا أن ممارسة ما أو نصا ما لا ينبغى أن يكون أفضل (يجب دائما تقرير وتوضيح لماذا؟ لمن؟.... إلخ) من ممارسة أو نص آخر، لكن يعنى القول إنه لم تعد توجد معالم مرجعية سهلة سوف تختار لنا مقدما ويصفه آلية الجيد من الردىء. وقد ينظر البعض إلى هذا الوضع (أو حتى وصف مثل هذا الموضوع) برعب نهاية المعايير. وعلى النقيض من ذلك، ويدون الاستعانة بسهولة بمقولات قيمية ثابتة، فإنه يستدعى معايير صارمة وإن كانت دائما عرضية، إذا كانت مهمتنا عزل الجيد عن الردىء، والقابل للاستعمال عما بطل استعماله، والتقدمى عن الرجعى. وكما يشير John Fexete فى Life after Postmodernism (١٩٨٧) : فإن توقع تعلم أن تكون مطمئنا بكفالات محددة وبمسئولية إصدارها، مع الاستغناء عن الأمن الزائف للضمانات الموروثة، يبشر بثقافة مفعمة بالحوية وأكثر نبضا بالحياة وتيقظا، ويأمل المرء فى أن تكون أكثر تسامحا، تستمد المتعة من العلاقات الشبهاء بين المعنى والقيمة.

ولا تختلف النقطة التي يثيرها John Fexete عن الحجة التي قدمتها سوزان سونتاج في Against Interpretation عند مولد "الحساسية الجديدة لما بعد الحداثة". وكما توضح: "من موقع الأفضلية لهذه الحساسية الجديدة فإن جمال آلة ما أو حل مسألة رياضية أو جمال رسم Josper Johns وفيلم لجان لوك جودار وشخصيات وموسيقى البيتلز متاح بالتساوي".

وعلى وجه اليقين فإن ما بعد الحداثة قد غيرت الأساس النظرى والثقافى الذى يجرى بمقتضاه التفكير فى الثقافة الشعبية. والحق أن انهيار التمييز (إذا كان هذا هو الحال) بين الثقافة الرفيعة والثقافة الشعبية يمكن أن يعنى أكثر من "الثقافة" التى يفضلها كثير من البشر.

الفصل الرابع عشر

ما بعد الحداثة والحداثة وتراث المخالفة والاعتراض

لويد سبنسر Llyod Spencer

ربما كان من سمات عصرنا - عصر علامات التعميم حيث يبدو كل جانب تقريباً من جوانب الثقافة والهوية قابلاً للتغليف - أن توجد مثل هذه الضجة المفزعة حول علامة «ما بعد الحداثة» . وكما يلاحظ الروائي والناقد الأدبي Gilbert Adair فى The Postmodernist Rings Twice (١٩٩٢) «إن قلة من المذاهب (Isms) أثارت هذا الارتباك والشك مثلما أثارتها ما بعد الحداثة» .

وينطوى مصطلح ما بعد الحداثة نفسه على مفارقة وإثارة وتحريض . والحداثة ، بمعنى «الوقت الحاضر» الذى يحيط بنا ، ليست شيئاً يمكن أن يكون لها «ما بعد» ، لكن الحداثة المشار إليها ليست هى «الوقت الحالى» لما هو حديث تماماً . فالحداثة حقبة ممتدة من التغير التاريخى ، غذته التطورات العلمية والتكنولوجية وهيمنت عليه السرعة - الممتدة عبر العالم والمكثفة فى كل أركان النفس - التى اتسم بها اقتصاد السوق الرأسمالية . وعلى مدى الحقبة الحديثة فإن المناقشات الثقافية والفلسفية والسياسية حددت معالم فضاء فكرى فيما بين انهيار سلطة الكنيسة من ناحية ، والضرورات الاقتصادية والتقنية التى فرضت معدل التغير من ناحية أخرى .

والحداثة حتى بمعنى التراث الممتد لقرون من التغير والمناقشة المتعلقة بالتغير من الممكن القول بصعوبة إنها قد بلغت نهايتها . ويعد الدور المتدهور للدين ومعدل التغيير الاقتصادى والتكنولوجى من بين العوامل التى سوف تشكل المستقبل على نحو حاسم كما شكلت ماضينا . غير أنه فى الجزء الأخير من القرن العشرين تغيرت أشياء فى

طبيعة التراث ذاتها والطريقة التي نربطه بها بالماضى . وأصبح كل جانب من جوانب الماضى فى المتناول ومتاحاً ، لكنه أصبح متاحاً من خلال الوسائل ومعبأً ومعرضاً وممثلاً . ويمكن اعتبار ما بعد الحداثة بمثابة ذلك البديل أو المغاير لنزعة الحداثة الذى أمل فى تحرير نفسه من ويلات الحداثة أو التحكم فى القوى التى أطلقت لها الحداثة العنان .

- ١ -

إن الحداثة - مهما جرى تصويرها - ذات تاريخ يمتد لقرون عديدة قبل أن تجرى صياغتها تحت هذا المسمى . والحداثة فى الفن تردد صداها فى المناقشات التى جرت فى مجال الفلسفة والنظرية الاجتماعية ، غير أنه لا ينبغي نسيان أنه وجدت حداثة رجعية كما وجدت حداثة تقدمية ، وكانت معظم أشكال الحداثة مركبة من أفكار متقاوئة غير متجانسة . وإذا كانت نزعة الحداثة تتضمن الحماسة لبعض جوانب كل ما هو حديث فإنها انطلوت عادة - عند الكتاب أنفسهم وفى الأعمال نفسها - على نوع من اليأس من الجوانب الأخرى لكل ما هو حديث . والحداثة كمذهب ترياق لما هو حديث بقدر ما هى كذلك بالنسبة إلى برنامجها .

وإذا اخترنا أن نسمى هذه الأوقات التى نعيش فيها باسم «ما بعد الحداثة» ، ومن ثم فعلينا أن نعتبر أنفسنا ما بعد حداثيين متنوعى التوجهات الثقافية والسياسية ، هو ما ينبغي أن يكون واضحاً على الأقل من تنوع المواقف والاتجاهات والمعتقدات والالتزامات التى تبدت فى هذا الدليل ، وإذا كانت ما بعد الحداثة طريقة لوصف الأوقات التى نعيش فيها فعندئذ يجوز لنا بحق اعتبار استجابات متسعة النطاق لعصرنا تنتمى إلى نزعة . ونحن نستخدم مسميات مثل «حديث ، حالة حديثة» و«نزعة الحداثة» للإشارة إلى اتجاهات وحقب تاريخية نشعر باضطرابنا إلى فهمها فى تعقدها . وتتطلب كذلك نزعة ما بعد الحداثة النظر إليها فى تعقدها .

وعصر ما بعد الحداثة الذى نحياه واع بذاته إلى حد كبير بعيد ، ويخضع نفسه للفحص الدقيق الصارخ والتعليقات اللانهائية ، ويسهم فى هذه العملية الكتاب واللاهوتيون والفنانون والاكاديميون وغيرهم من المثقفين . وحتى الآن ، فإن قائمة الفرقاء من الفاحصين والمعلقين تبدو مألوفة . وتمثل التغيير الذى حدث فى نور هؤلاء

الوكلاء فى عصر وسائل الإعلام الجماهيرية . وعصر ما بعد الحداثة هو العصر الذى تهيمن فيه على النشاط الثقافى صناعات «الميديا» القادرة على الالتجاء مباشرة إلى الجمهور (الذى استفاد من «التعليم الجماهيرى») متخطية أية نخبة ثقافية .

وإزاء وسائل الإعلام الجماهيرية والصناعات الثقافية ، المعلوماتية والسيبرنيطيقية، الواقع الافتراضى وسوسة «الصورة» ، فإن أنصار ما بعد الحداثة والطاعنين فيها يخططون معالم هذه التغيرات فى النسيج التركيبى المتزايد للحياة الاجتماعية بطرق متماثلة للغاية. ويعتبر أنصار ما بعد الحداثة نزعة ما بعد الحداثة مجموعة أدوات نقدية مطلوبة لاستيعاب وانتقاد الظروف الجديدة والمتغيرة .

ويرى نقاد نزعة ما بعد الحداثة أن «مدى الملاسة» ذاتها لأفكار ما بعد الحداثة هى مبرر للشك ، ويكتب بعض أنصار ما بعد الحداثة (وبودريار أوضح مثال) بأسلوب ما بعد حدائى على نحو متعاضم عندما يكتبون عن نزعة ما بعد الحداثة. إن التوافق الدقيق بين أدوات النقد والأوضاع المنتقدة يعرض أنصارها ما بعد الحداثة للاتهام - الذى تكرر مرارا - بأن تفكيرهم هو فى حد ذاته أعراض أمراض تحتاج إلى تشخيص .

- ٢ -

لقد أثمرت ما بعد الحداثة ، مثل نزعة الحداثة قبلها ، وفرة من التعاريف وإعادة التعاريف ، ولهذا فمن الملائم وضع هذا الدليل . والقراء الذين يأتون إليه بحثاً عن تعاريف واضحة مستقرة قد ينتابهم فى البداية إحساس بالدوار حالماً يستطلعون مداخل الموضوعات . وما يعتبر «ما بعد حدائى» لا يتغير من كاتب لكاتب فحسب ، بل إن المقصود من معظم المصطلحات الأخرى يعتمد على من يحدد «المعنى» وما هو المقصود من «المعنى» .

إن أحد أعراض «أحوال ما بعد الحداثة» هو الحساسية المفرطة للكيفية التى تعرف بها الكلمات استراتيجياً ونشرها على نحو يثير الجدل . وفى مستهل هذا القرن فإن شعراء عصر الحداثة الرفيعة لأح أن كلامهم ينتج معجمه اللغوى الافتراضى الخاص به . ومه قرب نهاية القرن أدرك علماء الاجتماع والنظرون القيود التى تفرضها اللغة وانخرطوا فى عمليات ذات صلة بالرياضة اللغوية (مصارعة لغوية) .

وليس من الصعب فقط تعريف مصطلحات Postmodernism و postmodernity و Postn ولكنها مثل مقابلها (-modern) تشير إلى عمليات من التعريف وإعادة التعريف . وتكمن في قلب المجالات المتعلقة بكل من modernism /Postmodernism مسألة «المعنى» ذاتها (أو معنى «المعنى») وحشد كبير من المناقشات الحامية عن معاني المصطلحات الرئيسية المعنية (بما في ذلك شتى المعاني المتشابهة لكل من "The modern" و "The postmodern") وتكون النتيجة أن هذه التسميات التي تتداول في معظم المناقشات المعاصرة تزيد الأمور إبهاماً بدلا من توضيحها . وهذه المصطلحات بحكم طابعها المتأصل المتبسط والمراوغ والمبهم تستخدم باستمرار بطرق متعارضة ، بل متناقضة . وحتى عندما يتم الاعتراف بهذا الالتباس فلا يلوح أنه ثمة طريقة واضحة للخروج من هذا التيه ، ولا توجد طريقة للعودة إلى رؤية واضحة أبسط للمشهد الفكري .

- ٣ -

إن معارضة ما بعد الحداثة ومخالفتها صعب لثلاثة أسباب مترابطة على الأقل : أولاً ، وما زالت هذه النزعة غير متبلورة تماما . وعلى الرغم من وجودها الكلى في كل مكان تقريبا فإنها ما زالت سيئة التعريف . ثانياً ، إن ما بعد الحداثة تبرز في مناقشات شرسة عن الدور الذي تقوم به اللغة حيث يقوم جميع المعلقين تقريباً بنشر مصطلحاتهم وتعريفهم بقصد إستراتيجي كثيراً ما يكون ميالا للقتال . وعلى كل الجوانب فإن الاتفاق على الشروط التي يتم بموجبها النقاش ومصطلحاته أقل أهمية من التأثير فيه من الجوانب السياسية وفي مجال اللغة ذاتها . وتسفر النتيجة عن تعدد التعاريف المتنافسة لما بعد الحداثة . ثالثاً ، إن مخالفة ما بعد الحداثة صعب بصفة خاصة ؛ لأن نزعة ما بعد الحداثة هي في حد ذاتها متشعبة إلى حد بعيد بروح المخالفة . وتعلن نزعة ما بعد الحداثة ، بموقف لافت للنظر باستمرار ، اختلافها على موروث المخالفة السابقة - النزعة الحداثية - وتشدد في الوقت نفسه على الموقف الذي تشاطره مع سابقتها . وتجمع ما بعد الحداثة دائما بين الضدين : فهي النهاية المحددة لنزعة الحداثة وقهرها ، وفي الوقت نفسه هي الحداثة في ظل إدارة جديدة .

وعلى الرغم من استقرار مصطلح «ما بعد الحداثة» في المناقشة الثقافية والفكرية

على مدى العقود الأخيرة فإنه لم يكتسب أبداً أى تعريف محدد أو واضح ، وقد انشترت بوصفها فكرة غامضة شاملة تشير إلى تشكيلة واسعة من السبل التى خلفها لنا التراث الملتبس للحادثة . ولا تعد نزعة ما بعد الحداثة برنامجاً أو إطاراً فكرياً بقدر ما هى «مزاج» أو روح العصر Zeitgeist ، «إحساس عام» .

وإذا كان من الممكن أن تعتبر نزعة ما بعد الحداثة على نحو أكثر دقة مزاجاً معيناً أو حالة نفسية فعدنئذ يمكن أن تكون متسمة بما يسمى «ثنائية الضدين» (تكافؤ الأضداد) وعدم اليقين . وهى لا تعلن عن نفسها بجرأة وفخر ، لكن يلوح أنها تحوم فى الأفق ، وقد تميزت بالمخالفة والتحرر من الأوهام بقدر متساوٍ وعلى الرغم من أن بعض المنتجات أو المظاهر التى تتجمع تحت عنوان نزعة ما بعد الحداثة مازحة أو سارة فإنها تبدو فى كثير من الأحيان أنها تترد إلى موقف المراهق المتبرم الأخرى ، المتردد بين الغضب والتمرد من ناحية واللوم المتهجم والرفض من الناحية الأخرى . وتعتبر نزعة ما بعد الحداثة نفسها بمثابة «مركب نفسى تاريخى» يضاف إليه اضطرابه العصبى ووساوسه . وهناك فريق من المعالجين والمستشارين مشغولون على الدوام باضطراب الشخصية وروح العصر .

— ٤ —

لقد اتسمت الحداثة ، على مدى تاريخها الطويل ، وفى كل تجلياتها ، بالتوتر بين الدوافع التى كانت نقدية أو مرتابة - دوافع تدميرية أو سلبية - والدوافع الأخرى التى كانت أكثر إيجابية ، تأكيدية ، دوافع الأمل والاشتياق - لقد تشابكت الاتجاهات البنائية والتفكيكية على نحو وثيق .

ويمكن اعتبار نزعة ما بعد الحداثة امتداد لدوافع الحداثة النقدية والمرتابية والمعارضة - وحتى العدمية - وتناولها بهذه الكيفية الكثير من نقادها ، وبالنسبة إلى كثرة من نقاد ما بعد الحداثة ، تلك هى وجه الدقة الصعوبة التى تواجههم . وفى ظل أحوال ما بعد الحداثة فإن المخالفة أصبحت معمة ، ويمكن أن تشمل «المخالفة من حيث المبدأ» أو حتى «مخالفة كل شىء ممكن» .

وفى الوقت نفسه فإن نزعة ما بعد الحداثة تدعى أنها صورة جديدة من الواقعية كما أنها تنطوى على الدعوة إلى العودة إلى الفطرة السليمة أو الإدراك السليم ، والبرجماتية فى مواجهة الرؤى اليوتوبية البرية التى انقسمت فيها نزعة الحداثة . وقد عاب عليها - فى حد ذاتها - تفادها ، ولا سيما الماركسيين منهم ، أنها تفضى بسهولة إلى التماثيل والتكيف مع الوضع الراهن . ولننظر فى هذا الهجوم على بودريار من قبل Douglas Kellner :

ومازال بودريار مقروءاً ومقبولاً كراديكالى سياسى . ويعتبر بوجه عام أولئك الذين يزداد انجذابهم نحو فكرة أنفسهم راديكاليين إلى حد ما . ويعد بودريار آخر مثال للنقد النقدي الذى ينتقد كل شيء لكنه من النادر أن يؤكد أن أى شيء يكون أكثر خطورة على الوضع الراهن . وهو كمهرج بلاط للمجتمع يسخر ويحفز النقد على نحو غير مؤذٍ ويعلن عن بضاعته ويلجأ إلى إمتاع حماقات المستهلكين ومجتمع الميديا .
(1989 ، Baudrillard: From Marxism to Postmodernism and Beyond)

وتتكرر فى فكر ما بعد الحداثة الإيماءات النقدية للعقلانية الغربية والتركيز على الكلمة (التمركز العقلى)^(*) والنزعة الإنسانية وتراث التنوير والذات المتمركز ، إلخ . وأكثر لازمة متكررة لدى المعترضين على ما بعد الحداثة والمخالفين لها هى «النقد باسم ماذا؟» ويقدم Richard J. Bernsein أعمق فحص لهذا المأزق : «تتطلب قواعد النقد ذاتها بعض المعايير ، بعض المقاييس ، أساسا ما يقوم عليه النقد . وإلا فهناك - كما يرى هابرماس - خطر يتمثل فى استهلاك الدافع النقدي لنفسه» . ويستطرد مشيرا إلى دريدا ، الذى اعتبر فى معظم الأحيان من قبل أصدقائه وخصومه النموذج الأصلى لما بعد الحداثة : «لا أستطيع أن أتصور راديكاليا ما لم يحفز فى خاتمه الأمر

(*) Logocentrism يترجمها د . محمد عثمانى فى مصطلحاته إلى «الإحالة إلى معنى خارج النص بمعنى وجود مركز Centre خارج النص أو خارج اللغة يكفل ويثب صحة المعنى دون أن يكون هو قابلا للظن فيه أو البحث فى حقيقته . ويعتبره دريدا موقفا مثاليا فى جوهره ، وإن هدم «الإحالة» المذكورة معناه أيضا هدم المذهب المثالى أو الروحي» (مرجع سابق) . (المترجم)

نوع ما ما التأكيد ، أتم الإقرار بذلك أم لا » (Richard Keamey, ed. Dialogues with Contemporary Continental Thinkers ، ١٩٨٤) .

عدمية ، ذاتية ، لا أخلاقية ، تجزئية ، تعسفية ، انهزامية ، متصلبة ، تبدو هذه الأوصاف مألوفة وتشكل بعد المفردات الأساسية المستخدمة فى نقد ما بعد الحداثة ، ويجدر التريث لكى يمكن إمعان النظر فى أن هذه المصطلحات ليس متداولة اليوم على نطاق واسع فحسب - ولها كثير من التبرير - لكنها ذات شجرة نسب أهل للاحترام وممتدة على نحو مذهل .

وفى النصف الأول من القرن العشرين فإن النقاد الرافضين مثل جورج لوكاش استهجنوا الاتجاهات (العدمية ، الساخرة ، التجزئية) للأدب ذى الطابع الحديث (ديستوفسكى ، كافكا ، ميزل) بهذه التعابير نفسها تماما ، وقد ردوا بعلمهم هذا - عن قصد - صدى التحذيرات التى أصدرها هيجل - منذ مائة مضت - فى مواجهة النزعة الذاتية لعاصرية الرومانسيين (نوفاليس ، والأخوان شليجيل Schlegel و Fries و Schleiermacher) .

وكون أن نزعة ما بعد الحداثة - أو على الأقل الاتجاه العدمى الذى تنطوى عليه - لها تراث طويل يعترف به قادة ما بعد الحداثة . وقدم Jonathan Arac منذ وقت طويل فرضية أن نزعة ما بعد الحداثة كانت دائمة تبحث عن تراث بينما هى تزعم التجديد . وفى تشخيص ليوتار لما أسماه «أحوال ما بعد الحداثة» اعتبر هذه الأحوال تحدث مرارا وتكرارا على امتداد التاريخ «وما هى إذن ما بعد الحداثة؟ .. إنها بلا أدنى ريب جزء مما هو حديث .. ويمكن لعمل ما أن يصبح حديثا فقط إذا كان أولا ما بعد حديث . وهكذا نفهم ما بعد الحداثة على أنها ليست الحداثة فى نهايتها بل فى حالتها الناشئة ، وهذه الحالة مستمرة» .

لقد استخرج ليوتار الكثير من الرواد الجديرين بما بعد الحداثة ، وعند بحث الانتقادات الموجهة إلى ما بعد الحداثة قد يكون من الجدير بالاعتبار اقتداء المثال الذى قدمه وفحص سابقة مهمة .

لقد كرس دويدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) عشرين عاما من حياته لتحرير الموسوعة الفرنسية الكبرى Encyclopédie ، واحتل مركز دوائر التنوير الفرنسية . وفي عام ١٧٦١ رسم دويدر في Ramleau's Nephew صورة الرجل الجديد وهو فيلسوف مثله ومثل صديقه السابق جان جاك روسو ، وهو مواطن يتسم بالحزم والوعى الذاتى والسخرية الذاتية فى جمهورية الأدب ، وقد استوعب كل الحجج (المضادة للتأسيسية) المعادية للأشكال التقليدية للسلطة الأخلاقية ، الكنيسة ، الدولة ، وتكون النتيجة أنه يعلن عن نفسه بصفته لا أخلاقيا ، أنانى السلوك ، عدما .

وتعد هذه الشخصية Rameau's Nephew النموذج الأصلى الكلاسيكى للاتجاهات العدمية التى سلطت عليها نيران نقاد ما بعد الحداثة . لكن قصة دويدرو تمنح الأشرار حظا أوفر ولا تقدم ترياقا فعليا للذاتية واللا أخلاقية الخطرة المثارة على نحو موفق للغاية . ولذلك فإن القصة فى حد ذاتها يمكن أن تنتمى إلى ما بعد الحداثة ذاتها التى تهاجمها .

وشعر دويدرو نفسه بأن القصة خطيرة لدرجة أنه تركها دون نشر . وتبين معظم أفكار دويدرو وتأملاته الشخصية كيف أنه أراد إلى حد بعيد أن يكون رجلا صالحا ، لكنها تبين أيضا وعى دويدرو بأنه إذا لم تنقل القواعد الأخلاقية من أعلى فرن الوعى الأخلاقى سوف ينطوى حتما على عدم اليقين والغموض والشك .

وكون الحافز الأخلاقى يمكن ويجب أن يبقى فى المشهد ما بعد الحداثة رسالة تكررت فى كتاب بعد الآخر من قبل بومان(*) Zygmunt Bauman . وإن اختلافات بومان ما بعد الحداثة - التى تشمل فكرة أننا لا يجب أن نحاول استئصال الغموض ، بل يجب علينا أن نتعلم مواجهته وأن نعيش معه - يمكن أن يفهمها جيدا رائدة التنوير ، ديدرو .

(١) بومان (١٩٢٥ - ...) عالم اجتماع بولندى بارز ، طرد من بولندا بعد الغزو السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا فى ١٩٦٨ . نشط كثيرا فى جامعة ليدز وكتب دراسات أساسية عن الطبقة العاملة الإنجليزية ، كما قدم سلسلة من الكتب عن مشاكل الحداثة . وما بعد الحداثة ومن بين ما كتب :

Modernity and Holocaust (1991). Postmodernity and its Discontents (1997), Postmodern Ethics (1993) Life in Fragments (1995) (المترجم)

عندما تبرز نزعة ما بعد الحداثة تقدما بشكل متعقل غير نزالي - كما في مختلف الكتابات الحديثة التي قدمها بومان Bauman - فإنها تستوجب التواضع والزهد - وتتطلب أن نكون مسؤولين على نحو مدقق لا فيما يتعلق بأفعالنا فحسب ، بل حتى إزاء آمالنا وأحلامنا .

وأن تخالف التحرر من الوهم الما بعد حدائى السائد بكل ما سبقه من أطر نظرية وبرامج وحركات اجتماعية يبدو أنه يجعل المرء يشعر بالإثم لأنه يريد بعث أوهام بالية ، وإعادة البهجة إلى عالمه أو على الأقل نظرتة إليه .

وتتمثل إحدى الطرق فى وضع حد فاصل بين ما بعد الحداثة ونقادها فى التركيز على رفض ما بعد الحداثة للعناصر اليوتوبية ، الشبيهة بالحلم التى رافقت التغيير المبرود للحداثة . فقد حملت الاتجاهات الحديثة ، بما فيها الماركسية ، بعالم أفضل . ويعتبر وضع تشريع للعالم على أساس هذا الحلم بعالم أفضل الخطيئة الأصلية لتلك النزعة الحديثة التى تنشذ نزعة ما بعد الحداثة تجاوزها .

ويدور التضاد بين الكثير من أنصار نزعة ما بعد الحداثة والكثير من الماركسيين الجدد حول هذه القضية الشائكة . ويعتبر دعاة ما بعد الحداثة النزعة التسلطية (الحكم المطلق) للنظم الشيوعية نتيجة لمحاولة إنجاز حلم غير قابل للتحقيق ، أو لمحاولة أن تضع أيديها على يوتوبيا وأن تنظمها فى نطاق مجتمعات واقعية .

لقد انتقد ماركس ما اعتبره ساخرا اشتراكيين «يوتوبيين» واحترم دائما التحريم اليهودى لاستقصاء المستقبل . لكن بالنسبة إلى ماركس فإن رفضه لإمعان النظر فى مجتمع شيوعى فى المستقبل كان جانبا من الطابع «العلمى» لعلمه الاجتماعى الاشتراكى .

ويمكن أن يكون من الجلى عند ماركس أن الرأسمالية - الهدف الوحيد للمادية التاريخية عنده - ليست قضية أخلاقية . وأعرب ماركس فى تفكيره طوال حياته عن

التزامه السياسى الشديد . وكانت دائما مسألة علاقة النظرية بالممارسة مسألة حاسمة فى نطاق التراث الماركسى . وبعد سبعين عاما من انتصار لينين فى روسيا فإن هذه المسألة غدت على نحو متزايد شائكة وذات طابع متشدد بالنسبة إلى المثقفين الماركسيين الغربيين .

وعلى الرغم من أن الكثير من الأحزاب الشيوعية والتنظيمات النقابية فى الغرب طورت أشكالاً تنظيمية تسلطية فإن الشكل الشمولى الذى تأسس فى روسيا السوفيتية جذب قلة من المؤيدين نسبيا من بين المثقفين الماركسيين الغربيين الأساسيين . ومن الناحية الأخرى فإن الشيوعية الصينية ، وخاصة «الثورة الثقافية» التى بدأها «ماو» فى الصين جرى النظر إليها ببعض الحماس من قبل الكثيرين إبان احتجاجات الطلبة فى أواخر ستينيات القرن العشرين .

وقد جاءت كثرة من الشخصيات البارزة التى ارتبطت بما بعد الحداثة الفرنسية بما فى ذلك ليوتار وبودريار من التجمعات الماركسية وما بعد الماركسية داخل فرنسا . وكان رد الفعل المعادى للنزعة الشمولية داخل الاتحاد السوفيتى له ما يماثله فى معاداة ضيق الأفق العقلى والممارسات التسلطية داخل اليسار الفرنسى السياسى . ومع حلول نهاية القرن العشرين غدت الماركسية ونزعة الحداثة هدفين سهلى المنال من جانب النزعة المخالفة لهما فى نطاق نزعة ما بعد الحداثة. وقد اكتسبتا الطابع المؤسسى وارتبطتا كلتاهما بما يطلق عليه اسم «المؤسسة» - حتى ولو كانت «مؤسسة» الجماعات المعارضة ، النقابات ، التنظيمات الحزبية ، الكليات الأكاديمية .

وتعد اليوم نفس فكرة الممارسة السياسية الماركسية ذات رنين متناقض ظاهريا ، ومن الناحية الأخرى فإن نفاذ البصيرة النظرية والإنجازات النظرية لماركس مقبولة الآن على نطاق واسع وقد كفت منذ زمن طويل عن أن تكون ملكية خاصة لتجمع أو توجه سياسى معين . ومن ينشد منهم المجتمع حاليا من حيث الأوضاع السوسيولوجية والتاريخية سوف يجد نفسه مقتبساً أو مصححاً أو ساعياً إلى تعميق أفكار ماركس، أو كما حدد المؤرخ الماركسى إريك هوبسبوم E. Hobawwm «نحن جميعا ماركسيون فى الوقت الحاضر» .

وليس من المستغذب كثيراً أن يأتى أعنف نقد للاتجاهات ما بعد الحداثة من كتاب يشعرون بأنه يواصلون العمل فى نطاق الموروث الماركسى بطريقة أو بأخرى . وعلى سبيل المثال فإن Alex Callinicos ماركسى يشدد على أن طبيعة الاستقلال ما زالت دون تغيير فى أساسها الجوهرى . ولكن يمكن فهم التغيرات الجارية فى المجتمع فمن منظورا هيجليا - ماركسيا أو لوكاشيا (نسبة إلى لوكاش) يتناول التطور التاريخى وعالج ما بعد الحداثة كتعبير عن «منطق الرأسمالية فى مرحلتها الأخير»، وبعبارة أخرى فإن ما بعد الحداثة اعتبرت دالة على نظام رأسمالى فى مرحلة معينة من تطوره . ولكن يمكن تطوير منظور نقدى ملائم لمجتمعنا السيبرنيطيقى الاستهلاكى رأى Douglas L.Kellner فى Jean Baudrillard أن موروث «النظرية النقدية» لمدرسة فرانكفورت لديه ما يقدمه أكثر مما لدى النظرية الفرنسية الرائجة حاليا :

«لست متأكدا من أننا تجاوزنا وتركنا خلفنا الحداثة والسياسة التطبيقية ، والعمل والإنتاج ، والإمبريالية ، والفاشية ، والظواهر التى وصفتها الماركسية الكلاسيكية والماركسية الجديدة وغيرها من النظريات السياسية والاجتماعية التى يرفضها بودريار فى الحال وبون تردد» .

وأجرى كيلنر و على غرار جيمسون ، دراسة جادة للغاية لفكر ما بعد الحداثة وأوضح فى تحليله لمجتمع المعاصر أنه استفاد كثيرا من دعاة ما بعد الحداثة . ومع ذلك فهو يصر على أن هؤلاء الدعاة الفرنسيين كانوا متسرعين للغاية فى رفضهم لموروث التحليل الثقافى الماركسى الجديد :

«لقد ارتكب المنظرون الفرنسيون الجدد ، مثل بودريار وليوتار وفوكو خطأ فى تحليله ونظريا خطيرا ببتير عملهم عن النقد الماركسى للرأسمالية ، وعلى وجه الدقة عندما كان منطق الرأسمالية يضطلع بدور متزايد الأهمية فى هيكل المرحلة الجديدة من المجتمع التى اعتبرها مرحلة جديدة من الرأسمالية بوصفها رأسمال تكنولوجيا "Techno-Capital" .

ويمثل ليوتار بالنسبة إلى أنصار ما بعد الحداثة الرأى القائل إن «النضالات

(الاشتراكية) وأوتبتها قد تحولت في كل المجتمعات المتقدمة إلى أنوات ضابطة للنظام» . ويدعى النقاد الماركسيون الجدد ، في مواجهة أنصار ما بعد الحداثة أن النقد ما بعد الحداثى هو دائما وبالفعل متواطئ مع النظام الذى ينتقده .

- ٧ -

إن ما بعد الحداثة بطاقة يمكن لصقها على تجليات ثقافية عبر الكون بأسره ، بيد أنها فى مجال الفلسفة والنظرية الثقافية تتميز بنكهة فرنسية . وقد ابتعد المنظرون الثقافيون الباروزن من أمثال بورديار وليوتار عن تنويعات الماركسية التى كانوا عليمين بها فى فرنسا . وللأسف لم توجد محاولة متواصلة من قبل المثقفين الفرنسيين للانغماس على نحو جدى فى الكيفية التى تطور بها الموروث الماركسى فى البلاد الناطقة بالألمانية . وقد تركت إلى حد كبير للكتاب الناطقين بالإنجليزية من أمثال جيمسون وكيلنر ، مهمة الجمع بين التراثين فى اشتباك نقدى فيما بينهما .

وقد يلوح أن الاستثناء الملحوظ من هذا التعميم هو الطريقة التى عرفت بها لنفسها نظرية ليوتار الفرنسية عن طريقة معارضتها لفكر المنظر الاجتماعى الألمانى يورجن هابرماس . ويطور ليوتار فى «أحوال ما بعد الحداثة» أشهر التعريفات المقتبسة لما بعد الحداثة (كارتياج فى الميتا رواية - الرواية الشارحة metanarratives) بوصفها نقدا صريحا للمشروع النقدى الطموح عند هابرماس . وقد اختير هابرماس لهذا التمييز الفريد لأن أغراضه ما زالت دون خجل تركيبية وبنائية (وليست تحليلية وتفكيكية) . ويعترف هابرماس بالمثل العليا (على الرغم من كونه مجردة للغاية) ويعتبرها عالمية شاملة ، وتتصل نظريته الاجتماعية بصفة مستمرة باعتبارات التطور الإنسانى (بما فى ذلك المراحل التاريخية) . وثمة صعوبة معينة اكتتفت فكرة هابرماس عن «الاهتمام بتوافق الآراء أو الموافقة الجماعية» التى تحتل دوراً حاسماً فى قلب تنظيره المستفيض للاتصال والخطاب . وكثيراً ما اعتبر هابرماس ، الذى يعد مفهوم الحداثة محورياً فى تفكيره ، أجراً مدافع عن مشروع الحداثة غير المكتمل ، بطل مؤثر لتراث التنوير .

وقد قدم هابرماس ردا مبكرا على ما بعد الحداثة فى النظرية الاجتماعية فى مثالة معنونة «الحداثة مقابل ما بعد الحداثة» (22, New German Critique, 1980)) حيث يجرى مقارنة بين نظرية ما بعد الحداثة والنظرية المحافظة الجديدة . وقدم هابرماس معالجة أكثر مثابرة وأكثر جوهرية لما يعتبره نقاض وأخطار ما بعد الحداثة فى محاضراته الاثنى عشرة فى The Philosophical Discourse of Modernity (1985) . ولكن هنا أيضاً فإن الالتزام يمكن أن يكون أى شىء آخر ما عدا كونه مباشرا ، فهو يتعرض لفوكو وديدا كما يتعرض لسوابق فكر ما بعد الحداثة المتمثلة فى نيتشه وهيدجر والسيرىالى جورج باتاى G. Bataille غير أنه أكثر اهتماما باقتفاء أثر ما يعتبره أساسا أكثر تبشيرا من أجل فهم الحداثة (وما بعد الحداثة) من خلال نفاذ بصيرة هيجل والصياغة النظرية لمفهوم الرأسمالية فى مرحلتها الأخيرة . والحداثة فى مرحلتها المتأخرة) من قبل هوركيمر وأورنو . ويقدم Richard Roarty فى نطاق مجموعة مقالات مخصصة لـ Habermas and modernity (1985) Rishard Bernstein, ed. تلخيصا وجيزا للطريقة التى يمكن أن يتبادل بها الحديث كل من هابرماس وليوتار :

«إن أى شىء سوف يعتبره هابرماس منطويا على "نهج نظرى" سوف يعدة ليوتار الميال إلى الشك "ميتارواية" Metanarrative وأى شىء سوف يتخلى عن هذا النهج سوف يعتبره هابرماس "محافظة جديدة" ، لأنه يسقط الأفكار التى استخدمت لتبرير شتى الإصلاحات التى ميزت تاريخ الديمقراطيات الغربية منذ عصر التنوير والتى ما زالت مستخدمة لنقد المؤسسات الاجتماعية الاقتصادية لكل من العالم الحر والعالم الشيوعى . وهجر موقف يتصف على الأقل بطابع عالمى ، إن لم يكن متساميا (ترانسندنتالى) (Transcendental) يبدو لهابرماس خيانة الآمال

(*) اعتناق نزعة فلسفية قائل إن إدراك الحقيقة يتم بإعمال الفكر لا عن طريق التجربة . وهو مستمد من مذهب السمو الذى جاء به الفيلسوف الألمانى كانط والقائل إن التجربة يسبقها الإدراك الذهنى أو المعرفة وإلا ما كانت تجربة ، أو من مذهب التعالى الذى جاء به الفيلسوف الأمريكى إمرسون والقائل إن الفكر والروح لهما ألية على الماديات والإدراك بالتجربة . (انظر د . مجدى وهبة فى معجمه «النفس») . (الترجم) .

الاجتماعية التي كانت محورية في السياسة الليبرالية ، ولذلك نجد النقاد الفرنسيين لهابرماس على استعداد لترك السياسة الليبرالية لكي يمكن تفادي الفلسفة ذات الطابع العالمي النزعة في حين إن هابرماس يحاول أن يثبت بفلسفة عالمية النزعة ، بكل ما تنطوي عليه من مشاكل لكي يمكن مؤازرة السياسة الليبرالية .

- ٨ -

كما نذكرنا Richard Bernstein في The New Constellation (١٩٩٠) فإن الموضوع الأكثر جوهرية وقوة - وربما إغواء - في فلسفة هيجل هو الوعد بإنجاز التوفيق . ومعالجة هابرماس للاتصال والخطاب تشاطر هذه الروح وينشد على هذا الأساس أن يتجاوز «الاتصال المشوه بصفة منتظمة» . ويعد احتفاء ما بعد الحداثة بالطوارئ والتجرب والانشقاق والتفرد والتعددية والقطيعة (التي تتحدى التوفيق) مضادا على نحو عميق لإيماءات هيجل وعمله . ويستمر من هيجل إلى هابرماس (وفيما يتجاوزهما في موروثات أخرى ما زالت فعالة) يستمر الأمل ليس في التوفيق بين الأحياء فحسب ، بل أيضاً بين الموتى . ومن المؤكد أن الموقف ما بعد الحداثي اقتباس الماضي ومحركاته الساخرة وتقليده واستخدامه وإعادة استخدامه عرض مهم في أعراض عصرنا . والعاصمة الفكرية لما بعد حداثية هي مدينة بون مدافن - ولا توجد «نقطة مية»^(١) في مدينتها .

وفي مستهل القرن الثامن عشر نشبت مناقشة كبرى بين «القدامى» و«المحدثين» ، وتمسك القدامى بأن الحضارة الكلاسيكية في اليونان وفي روما كانت مصدر جميع المعايير وجميع المثل العليا الأدبية ، وزعم «المحدثون» أن الأزمنة الجديدة استلزمت معايير جديدة وأشكال تعبير جديدة . وما ينبغي علينا أن نتذكره في هذا السياق أن تلك كانت مناقشة بين البشر ثارت من حول اليونان واللاتين . وحتى أولئك الذين انتموا

(١) "Dead Centre" : مصطلح علمي في المجال الميكانيكي ، عبارة عن موضع المرفق الذي تكون عنده قوة الإدارة المسطرة بواسطة ذراع التوصيل صفرا . وتسمى أحيانا «ذنبه ساكنة» . (انظر ، معجم مصطلحات العلم والتكنولوجيا - ج ١ معهد الإنماء العربي) . (المترجم) .

إلى المعسكر «الحديث» الذين برز من وسطهم أشهر قادة التنوير كانوا منغمسين في الكلاسيكيات . وكان جميع المشاركين في المناقشة على وفاق مع أرسطو وأريستوفان ومع تاسيتوس وشيشرون^(٥) .

وأن تكون «حديثاً» بمعنى الإحساس بالتفوق على ، وبالتالي مقطوعاً عن جميع أسلاف المرء يمكن أن يكون تجربة مغتربة وفاقدة الاتجاه على نحو غير عادي . ونحن نحتاج سلطة بعض القدماء على أقل تقدير . وقد أعيد باستمرار طوال فترة الحداثة خلق قانون «الكلاسيكيات» . ولكن حتى وقت حديث نوعاً ما فإن البحث عاد إلى الوراء إلى منوعات ضخمة من النماذج الأصلية والسوابق التي أنجزت في العالم القديم ، وتتبع من هذه النزعة العالمية والخبوية وهو ما يميز شتى أشكال نزعة الحداثة بدءاً من الحماسة الإصلاحية لفلاسفة التنوير وصولاً إلى التجارب الجمالية للطليعة في القرن العشرين .

ويعد تطور التعليم الجماهيري أحد العوامل الرئيسية في تشكيل التاريخ الاجتماعي للقرن العشرين . وتمثل أحد الشروط المسبقة للتعليم العالم الشامل (وأثره) في أن يختزل على نحو دراماتيكي دور اللغتين اللاتينية واليونانية والكلاسيكيات . وفي النصف الأول من القرن العشرين فإن نزعة الحداثة عملت في نطاق فكري ما زالت الكلاسيكيات ، بهذا المعنى ، تمثل فيه تراثاً فعالاً إن لم يكن متضارباً . فقد أصبحت الكلاسيكيات أكثر فاكثراً حرج الزاوية في تعليم يتمتع بامتيازات خاصة ، بما يسمح للمتمتعين بهذه الامتيازات الإفادة من تراث الماضي . وفي الوقت نفسه فإن الهدم الدائم للمؤلفين الكلاسيكيين والأفكار الكلاسيكية (الأساطير والموضوعات الأسطورية) الذي جرى وسط المثقفين الساخطين - وإن كانوا مع ذلك متعلمين تعليماً راقياً على وجه التقريب دائماً - غدت النزعة العالمية الراديكالية للمذهب الحداثي .

(٥) أرسطو (٣٨٤ ق م - ٣٢٢ ق م) : فيلسوف يوناني ، وهو أحد أعظم الفلاسفة في جميع العصور . أريستوفان (٤٥٠ ق م - ٣٨٨ ق م) : مؤلف مسرحي يوناني ، يعتبر أكبر شعراء الكوميديا في الأدب الإغريقي القديمة . تاسيتوس (٥٦ م - ١٢٠ م) : خطيب ومؤرخ روماني . شيشرون (١٠٦٠ ق م - ٤٣ ق م) : سياسي وخطيب روماني ، تعتبر خطبه آية في البلاغة اللاتينية . (المترجم)

وفى غضون ذلك فإن طلب السوق حول طرز الأوس وموضاته إلى شىء ما قديم بالفعل ، عتيق الزى تماما ، إلى شىء ما ناضج للبعث بوصفه «كلاسيكيا» . إن دورات التاريخ يدفعها رواد النزعات الفكرية فى الثقافة التجارية لكى يتمكنوا مع غيرهم من جنى الربح . ومن بين جميع الصناعات الثقافية فإن صناعة التراث هى التى تشهد أعظم ازدهار متواصل .

- ٩ -

كانت رغبة الطليعة الراديكالية التغلب على الفجوة الفاصلة بين الفن والمجتمع أو الفن والحياة اليومية . والعالم الجمالى الطابع الذى تنبأت به الطليعة الحداثية فى النصف الأول من القرن العشرين قد أضحى ، فى عصرنا ، واقعا أكثر مما ينبغى : لقد أصبح متجاوزا للواقع hyperreal . ولم تتحقق هذه الحالة المفرطة فى الواقعية بمعرفة الطليعة الفنية ، بل بفضل السلع والعدد الذى لا حصر له من المبدعين الذين يساندون الثقافة الاستهلاكية . وبعد السيرىالية لم تظهر أية حركة جمالية جديدة ذات أهمية جماعية تعمل عبر أكثر شكل فنى واحد . كما أوضح دوجلاس كليمر فى «جان بودريار» فإن ما بعد الحداثة تحاكى على نحو ساخر بصفة مستمرة الإيماءات الثورية للطليعة المبكرة فى القرن العشرين . وهذا حقيقى على الأقل بالنسبة إلى أحد فروع ما بعد الحداثة الذى عندما وصل إلى السوق (عارضا نفسه للبيع) أعلن عن نفسه بإصرار حاد بوصفه شيئا جديدا كلية :

«تكاد تبدو كل مناقشة لبودريار فى اللغة الإنجليزية كأنها تفترض مسبقا أنه على حق وأننا نعيش فيما يشبه "أحوالنا ما بعد الحداثة" [إشارة إلى عنوان كتاب بودريار] وأننا تركنا الحداثة وراء ظهورنا ونحيا فى مجتمع جديد كيفيا حيث لم يعد ممكنا التمسك بالمقولات القديمة والتمايزات القديمة ، وأعتقد أن هذه الرؤية ما زالت تركز جزئيا على التفكير من وحى الرغبة والأمانى» .

لقد تعلمنا مؤخرا أن نكون متواضعين فى حداثتنا ، وأكثر حرصا فى أمانينا ، وأكثر ارتيابا فى وعود المستقبل . ولم يعد فى وسعنا أن نأخذ مشروع الحداثة من غير

تحقيق أو برهان بكل بساطة . وحتى هذه المحاولة ما بعد الحادثة لم تعد جديدة . وما بعد الحادثة على استعداد للدخول فى المعاجم والموسوعات كما دخلت بالفعل فى العديد من الكتب التعليمية . وسوف تستمر المناقشات بصدد موروث ما بعد الحادثة والحادثة فى مرحلتها المتأخرة وما بعد الحادثة ، وسوف تتواصل لكى تثمر تفكيراً رصيناً يتطرق إلى من أين أتينا وإلى من أين أتينا وإلى أين نحن نسير .

ثبت المراجع

- Adair, Gilbert, *The Postmodernist Always Rings Twice: Reflections on Culture in the 90s* (London: Fourth Estate, 1992).
- Allen, R. C., ed., *Channels of Discourse, Reassembled* (London: Routledge, 1992).
- Ang, Ien, *Living Room Wars: Rethinking Media Audiences for a Postmodern World* (London: Routledge, 1996).
- Baudrillard, Jean, *America [1986]*, trans. Chris Turner (London and New York: Verso, 1988).
- Seduction [1979], trans. Brian Singer (Basingstoke and London: Macmillan, 1990).
- Simulations*, trans. Paul Foss, Paul Patton and Philip Beitchman (New York: Semiotext(e), 1983).
- Bauman, Zygmunt, *Freedom (Milton Keynes: Open University Press, 1986)*.
- Bernstein, Richard J., ed., *Hobermas and Modernity* (Oxford: Polity Press, 1985).
- Boune, R. and Rattansi, A., eds., *Postmodernism and society* (London: Macmillan, 1990).
- Bradbury, Malcolm and Ruland, Richard, *From Puritanism to Postmodernism: A History of American Literature* (London: Routledge, 1991).
- Braidotti, Rosi, *Nomadic Subjects: Embodiment and Sexual Difference in Contemporary Feminist Theory* (New York: Columbia University Press, 1994).
- Butler, Judith, *Gender Trouble: Feminism and the Subversion of Identity* (New York and London: Routledge, 1990).
- Callinicos, Alex, *Against Post-Modernism: A Marxist Perspective* (Cambridge: Polity Press, 1990).
- Connor, Steven, *Postmodernist Culture: An Introduction to Theories of the Contemporary* (Oxford and New York: Basil Blackwell, 1989).
- Debord, Guy, *The Society of the Spectacle* (Detroit: Black and Red, 1970).
- Deleuze, Gilles and Guattari, Felix, *Anti-Oedipus [1972]*, trans. Robert Hurley, Mark Seem and Helen Lane (London: The Athlone Press, 1984).

- Derrida, Jacques, *Of Grammatology* [1967], trans. Gayatri Chakravorty Spivak (Baltimore and London: The Johns Hopkins University Press, 1976).
- Specters of Marx: The State of the Debt, the Work of Mourning and the New International*, [1993], trans. Peggy Kamuf (New York and London: Routledge, 1994).
- Docherty, Thomas, ed., *Postmodernism: A Reader* (Hemel Hempstead: Harvester Wheatsheaf, 1993).
- Eagleton, Terry, *The Illusions of Postmodernism* (Oxford: Basil Blackwell, 1996).
- Fekete, John, ed., *Life Postmodernism: Essays on Value and Culture* (Basingstoke and London: Macmillan, 1987).
- Fiske, John, *Media Matters* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1994).
- Frith, S. and Home, H., *Art into Pop* (New York and London: Methuen, 1987).
- Foster, Hal, ed., *The Anti-Aesthetic: Essays on Postmodern Culture* (Port Townsend, WA: Bay Press, 1983). Reprinted as *Postmodern Culture* (London and Concord, MA: Pluto Press, 1985).
- Foucault, Michel, *The History of Sexuality, I-III, The History of Sexuality: An Introduction* [1976], trans. Robert Hurley (Harmondsworth: Penguin, 1981): II, *The Use of Pleasure* [1984], trans. Robert Hurley (Harmondsworth: Penguin, 1987): III, *The Care of the Self* [1984], trans. Robert Hurley (Harmondsworth: Penguin, 1988).
- Fukuyama, Francis, *The End of History and the Last Man* (New York: The Free Press, 1992).
- Fuss, D., ed., *Inside/Out: Lesbian Theories, Gay Theories* (London: Routledge, 1991).
- Goodwin, Andrew, 'Popular Music and Postmodern Theory' (*Cultural Studies*, 5, 1991, pp. 174-203).
- Gray, Ann and McGuigan, Jim, eds., *Studying Culture: An Introductory Reader* (London: Edward Arnold, 1993).
- Habermas, Jürgen, *The Philosophical Discourse of Modernity* [1985], trans. Frederick Lawrence (Cambridge and Oxford: Polity Press and Basil Blackwell, 1987).
- Halley, Peter, *Collected Essays 1981-1987* (New York: Sonnabend Gallery, 1987).
- Haraway, Donna, *Simians, Cyborgs, and Women* (London: Free Association Books, 1991).

- Humm, Maggie, ed., *Feminisms: A Reader* (Hemel Hempstead: Harvester, 1992).
- Hutcheon, Linda, *A Poetics of Postmodernism: History, Theory, Fiction* (New York and London: Routledge, 1988).
- Huyssen Andreas, *After the Great Divide: Modernism, Mass Culture, Postmodernism* (Bloomington: Indiana University Press, 1986).
- Jameson, Fredric, *Postmodernism, or, The Cultural Logic of Late Capitalism* (Durham, NC: Duke University Press, 1991).
- Jencks, Charles, *The Language of Post-Modern Architecture* [1975], 4th revd. edn. (London: Academy Editions, 1984).
- What is Post-modernism?* (London: Art and Design, 1986).
- Kaplan, E. Ann, *Rocking Around the Clock: Music, Television, Postmodernism, and Consumer Culture* (New York and London: Routledge 1987).
- Kellner, Douglas, *Jean Baudrillard: From Marxism to Postmodernism and Beyond* (Cambridge: Polity Press, 1989).
- Laclau, Ernesto and Mouffe, Chanta, *Hegemony and Socialist Strategy: Towards a Radical Democratic Politics* (London: Verso, 1985).
- Liotard, Jean- François, *The Differend: Phrases in Dispute* [1983], trans. George Van Den Abbeele (Manchester Manchester University Press, 1988).
- The Inhuman: Reflections on Time* [1988], trans. Geoffrey Bennington and Rachel Bowlby (Oxford: Blackwell, 1991).
- (with Jean-Loup Thebaud), *Just Gaming* [1979], trans. Wlad Godzich (Manchester: Manchester University Press, 1985).
- Libidinal Economy* [1974], trans. Iain Hamilton Grant (London: The Athlone Press, 1993).
- The Postmodern Condition: A Report on Knowledge* [1979], trans. Geoffrey Bennington and Brian Massumi (Manchester: Manchester University Press, 1984).
- McCaffery, Larry, *Postmodern Fiction: A Bio-Biographical Guide* (Westport, CT: Greenwood, 1986).
- McHale, Brian, *Postmodernist Fiction* (New York and London: Methuen, 1987).

- McRobbie, Angela, *Postmodernism and Popular Culture* (London and New York: Routledge, 1994).
- Mercer, Kobena, *Welcome to the Junyle* (London: Routledge, 1994).
- Modleski, Tania, *Feminism Without Women: Culture and Criticism in a 'Postfeminist' Age* (New York and London: Routledge, 1991).
- Morris, Meaghan, *The Pirate's Fiancee: Feminism, Readiny' Postmodernism* (London: Vorso, 1988).
- Nicholson, L. J., ed., *Feminism/Postmodernism* (London: Routledge, 1990).
- Norris, Christopher, *The Truth about Postmodernism* (Oxford: Basil Blackwell, 1993).
- What's Wrong with Postmodernism: Critical Theory and the Ends of Philosophy* (Hemel Hempstead: Harvester Wheatsheaf, 1990).
- Storey, John, ed., *Cultural Theory and Popular Culture* (Hemel Hempstead: Harvester Wheatsheaf, 1997).
- An Introduction to Cultural Theory and Popular Culture* (Hemel Hempstead: Harvester Wheatsheaf, 1997).
- Toulmin, Stephen. *The Return to Cosmologr: Postmodern Science and the Theology of Nature* (Berkeley, CA: University of California Press, 1982).
- Venturi, Robert, *Contradiction and Complexity in Architecture* (New York: The Museum of Modern Architecture, 1968).
- Learning from Las Vegas: The Forgotten Symbolism of Architectural Form* [1972] (Cambridge, MA and London: MIT Press, 1977).
- Waugh, Patricia, *Metafiction: The Theory and Practice of Self-Conscious Fiction* (London and New York: Methuen, 1984).

المحرر فى سطور

ستورات سيم

أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة ساندربلاند.

مهتم بعلم الجمال الماركسى، والقصص النثرى فى القرنين السابع والثامن عشر،
خصوصاً باميان وديفو وشترين ، ومهتم أيضاً بما بعد البنيوية وما بعد الحداثة،
خصوصاً ليوتار وديريدا .

من مؤلفاته "مانيفستو الصمت" ٢٠٠٧ ، و"العالم الأصولى" ٢٠٠٤ .

المترجم فى سطور

وجيه سمعان عبد المسيح

دكتوراه فى الإعلام كلية الإعلام جامعة القاهرة فى موضوع : "دور التلفزيون فى

التغير الثقافى والاجتماعى" ١٩٧٩

صدر له فى المشروع القومى للترجمة كتاب بعنوان "التلفزيون فى الحياة اليومية"

تأليف : لورينزو فيلشس، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠

ومن ترجماته أيضاً كتاب "الاتصال والهيمنة الثقافية" تأليف هروت شيلر ،

صدر فى مكتبة الأسرة .

التصحيح اللغوي : عادل سميج

الإشراف الفني : حسن كامل

